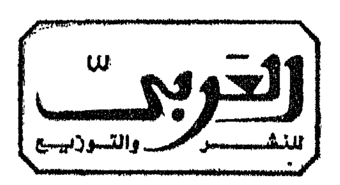

١٩٥٢
١٩٦٤
مصطفى طيبة
رسائل سجين سياسي
ى حبيبته
الثاني
Bibliotheca Alexandrina
0016249



مصطفى طيبة

رسائل سجين سياسى إلى حبيبته

الجزء الثانى



٦٠ شارع القصر العينى ـ أمام روز اليوسف ـ القاهرة
تليفون : ٢٧٥٦٦ ـ ٢٧١٨٢

سجن مصر
ليمان طـــره
تخشيبة الوايلى
معتقل القلعة
سجن الواحات الخارجة
ليمان أبو زعبل
تخشيبة مصر الجديدة
سجن الاستئناف
تخشيبة السيده زينب
سجن المحاريق
سجن القناطر الخيرية

إليكِ



الرســـــالة رقم (٤١)

حبيبتى :

فى مثل هذه الايام من شهر **اغسطس عام ١٩٥٨** ، أى منذ **تسعة عشر عاما** ، زجت بنا « الحكومة الوطنية » فى سجن جديد أقامته خصيصا لنا فى قلب الصحراء ، هو **سجن « المحاريق »** . وهو عبارة عن ثلاث عنابر كبيرة ، فى كل عنبر ٢٤ زنزانة ، تسع الواحدة من خمسة عشر الى خمس وعشرين « حسب الظروف » . جدرانها من الحجر الابيض ذى القدرة الخاصة على امتصاص حرارة الشمس ، وسقوفها وأرضياتها من الاسمنت المسلح ويتميز بقدرته على الاحتفاظ بحرارة الشمس فترة طويلة ، وابوابها صممت بطريقة خاصة ، نصفها الاسفل من الحديد المسمط ، ونصفها الاعلى به أسياخ حديدية ، حتى يتمكن الحارس من رؤية كل شىء فى الزنزانة، ولها نافذتان عاليتان لا تستطيع أن تطل منها على الصحراء الواسعة الا اذا حملك آخر .

قبل أن نغادر **سجن « جناح »** الى **سجن « المحاريق »** بالواحات الخارجة ، شاهدنا ذات صباح عددا من الضباط،أصحاب الكابات الحمراء وعددا من الافندية ، وكان على رأس الضباط **« حمزة البسيونى » قائد السجن الحربى** ، وعلى رأس الافندية **« حسن المصيلحى » مدير مباحث أمن الدولة** . ويبدو أن المأمور قد فوجىء بمقدم هذا الحشد « الخطير » من ضباط أجهزة الامن ، فما أن جلسوا فى مكتبه حتى أرسل الينا من ينبهنا حتى نأخذ حذرنا ! وبعد أن شربوا القهوة وجففوا عرقهم « النبيل » وجدناهم يدخلون من بوابة السجن متجهين الى حيث يعيش **الاخوان المسلمين** ، ومكثوا هناك مدة لا تقل عن ساعتين ، ثم عادوا الى مكتب المأمور دون أن « يشرفونا » بزيارتهم .. فقط التفتوا برؤوسهم « الكريمة » يسارا حيث كنا نقف « نتفرج عليهم » ! .. **حسن المصيلحى** فقط هو الذى رفع يده اليمنى « يحيينا » وتوالت تعليقات الزملاء :

— كان لازم تقف فى الناحية التانيه .
— أجبرناهم على الالتفات « يسارا » .
— اذا حياك رجل المباحث .. تبقى الدنيا ومافيها ..
— وربما الآخرة
— يا أخى دى تحية وطنية ..
— والتفاتة يسارية .
— وربما دكتاتورية عسكرية

— أو فاشيه ..
— وتحولت الى وطنية ..

ونشهد حشد **أجهزة أمن جمهورية مصر** يركب العربات الفاخرة .. ويزعق البروجى بسلام « اللواء » .. وما تكاد تتحرك حتى نرى المأمور قادما نحونا :

— خير يا سيادة المأمور .
— لم تكن الزيارة لكم .
— يا خســـــارة !
— اصل انتم موقفكم معروف .
— موقف ايه ؟
— موقفكم من الحكومة يعنى .

ثم يســــتطرد :

— اصلهم كانوا جايين مخصوص علشان يناقشوا الاخوان الذين لم يؤيدوا الحكومة ويقنعوهم .
— وهل اقتنعـــوا ؟
— القيادة طبعا مش مقتنعة .
— والقواعــــــد ؟
— منعوها من الاتصال بهم .
— وهل هناك اى اخبار عنا .. او لنا . ؟
— يحيون موقفكم !
— اكلنا وشـــبعنا ..
— يا جماعة .. الصبر .. **الاخوان المؤيدون خرجوا .. والمعارضون لمـــا يأيدوا راح يخرجوا** .. وبكره ييجى عليكو الدور ..
— وماجاش علينا ليه ؟
— اصل انتم برضه لكم **وضع خاص** .. ثم .. « يتردد فى أن يواصل حديثه » .
— يعنى .. انا متصـــور أنهم محتفظون بيكو شـــويه للقيام **بـــدور وطنى** .

وبدهشة ، يقول احد الزملاء :

— يحتفظوا بينا علشان نقوم بدور وطنى .. ازاى ؟
— تقنعوا اكبر عدد من الاخوان .
— سيادتك سمعت الكلام ده منهم ؟ .
— طبعا سمعته .. كلهم متأكدين ان انتم اللى راح تقنعوا اكبر عدد من الاخوان زى ما اقنعتوا عدد قبل كده وخرج افراج .
— طب وهوه ده كل دورنا الوطنى فى نظرهم .

وبضيق شديد يقول المأمور :

— انا عارف بقى .. عمرى ما راح افهم فى السياسة .

فى صباح اليوم التالى وصل الى سجن « جناح » ضابط منضباط

الجيش من الذين كانوا يطلقون عليهم اسم **« ضابط الاتصال »** وطلب من المأمور أن يقابل من يمثل الزملاء . ذهبت أنا **وزكى مراد** لمقابلته . وقف وحيانا وابتسامة « رجل المخابرات » على وجهه الناعم وقال :

— عاوز أولا احييكم لموقفكم الوطنى . . وثانيا احمل لكم توقعاتى بالافراج القريب عنكم .
— عن التحية .. شكرا .
— وهل هى توقعات أو اخبار ؟
توقعات تصل الى مستوى الاخبار .
— يعنى نستعد للافراج . . أو النقل **لسجن المحاريق ؟**
— حتى اذا نقلتم لسجن المحاريق . . فهذا لا يلغى الافراج .
— يعنى راح ننقل الى سجن المحاريق ؟
— أنا شخصيا لا اعرف . انما انا جاى لكم فى مهمة خاصة .
— خيرا . .
— همتكم مع الاخوان المعارضين الباقين . كملوا **العمل الوطنى العظيم** اللى بدأتوه معاهم .
— عملنا الوطنى كما تفهمه التزام وليس تكليفا من احد .
— ليس الغرض من زيارتى هو تكليفكم . .
— ما الهدف اذن ؟
— مناقشة سياسية .
— وموضوعها ؟
— مواصلة نشاطكم بين الاخوان — ليس كتكليف منا ولكن باتفاق . .
— موقفنا قبل ذلك لم يسبقه اتفاق ، كان موقفنا نابع من اقتناعنا .
— لكن هناك جديد .
— وهو . .
— اننا سنضطر لاستخدام القوة لاقناع المعارضين من الاخوان .
— ومتى كان الاقناع بالقوة مجديا ؟
— نحن لا نريد اقتناعهم ولكن نريد تأييدهم .
— وما الذى تستفيدونه من التأييد الاجبارى . ؟
— قتلهم سياسيا وجماهيريا .
— وهل تطلبون منا أن نكون احدى ادواتكم ؟
— أبدا . ابدا . . الدور السياسى عليكم . .
— والدور البوليسى عليكم ؟

يضع ابتسامة **رجل المخابرات** على وجهه ويقول :

— مع تجاوز هذه السخرية . . نعم .

ويقول **زكى مراد** بحسم :

— حضرة الضابط . موقفنا الوطنى **التزام نحو الوطن** . السياسة فى عرفنا للبناء وليست للهدم ، لبناء اوسع **جبهة وطنية** ضد الاستعمار وعملائه وليس لتحطيم الوطنيين للانفراد بالعمل الوطنى

ونحن ضد استخدام القوة مع أى وطنيين مهما كانت خلافاتنا معهم وأكمل :

— وسوف نستنكر أى اجراء ارهابى **ضد الاخوان المسلمين** . ولنا فى هذا سابقة حيث أرسلنا من هنا استنكارا **للمذبحة** التى جرت فى ليمان طره بعد ترحيلنا بأيام .

الابتسامة « اياها » لا تزال « ثابتة » على وجه ضابط الاتصال ، ويقول :

— على العموم ياجماعة . . انتم معاملتكم لن تتغير حتى لو نقلتم الى سجن المحاريق .

بعد هذا الحديث بيومين نقلونا الى **سجن « المحاريق »** .

وكان السؤال التقليدى المعتاد عندما ننقل من سجن الى آخر هو : ما الذى ينتظرنا وكيف نستعد له ؟ .

عندما بدأنا فى جمع امتعتنا كانت الاوامر التى عند المأمور أن نأخذ كل شىء معنا . سألناه :

— الكتب والراديوهات والاكواب والاطباق والملابس المدنية وأدوات الرسم . . و . . .
— كله . كله .. حياتكم لن تتغير هناك .
— استنتاجات . . والا اخبار ؟
— دى أوامر أعلى الجهات .

كانت السياسة الرسمية « للتنظيم الواحد » حتى هذه اللحظة تعتبر الحكم الوطنى قائدا **للثورة والجبهة الوطنية** ، لكن الحكم الوطنى لم يكن يعتبرنا حليفا له ، وهذا ما كان زملاؤنا يتناسوه دائما ! وأيا كان الامر بالنسبة لنا نحن المسجونين فى قبضة **« الحليف »** فان لنا الحق كل الحق فى أن نحذر منه ومن نواياه ضدنا . وأعددنا أنفسنا لكل الاحتمالات مع ترجيح السيئة منها . أهم شىء بالنسبة لنا هو المحافظة على غذائنا من المعرفة والثقافة والتى تم نسخها على « ورق البفرة » وتخبئتها فى مكان أمين لا تصل اليه يد « الحليف » أو « العدو سيان . ولنأخذ معنا كل ما عندنا من كتب وراديوهات وكل احتياجاتنا . ولكن لابدأيضا من تخبئة ٣ « ترانزستور » لاستخدامها بشكل سرى عند الضرورة .

منذ الصباح الباكر لذلك اليوم الذى رحلنا فيه من سجن « جناح » الى **سجن « المحاريق »** كنا قد أعددنا أنفسنا للرحيل . صناديق كثيرة بها كل ما نملك من كتب ومجلات ودوريات ، وأكياس كثيرة تحتوى على ملابسنا وحاجياتنا الاخرى ، تحملها ثلاث عربات لورى . وثلاثة عربات أخرى تحمل اجولة من الدقيق والارز والفول والعدس والفاصوليا والملوخية الناشفة .

وقبل أن يحل ظهر اليوم ، بدت الحياة التى دبت فى هذه البقعة من الصحراء منذ ما يقرب من ثلاث سنوات ، كأنها تلفظ انفاسها الاخيرة الخيام التى عشنا بداخلها كل هذه السنوات **سقطت** فى أماكنها فى انتظار من ينقلها الى المخازن بعد أن ادت مهمتها . ومخازن الطعام والمخبز ، والمطبخ اصبحت **خاوية** . . هربت منهـا الفيران . **والقطط تجـرى مذعورة فى الارض الخلاء** . لن تجـد ما تقتاته بعد اليوم . وأشجار الخروع التى زرعناها حول الخيام كى نستظل بظلها قد جفت أوراقها ، وتراخت فروعها . وزهور عباد الشمس تتجه نحو القرص الاحمر ربما لآخر مرة ، فقد أوشكت على الموت بعد أن توقف تدفق الماء الى جذورها .

كان بعض الزملاء يجلسون الى جوار امتعتهم .. يتأملون ، وترك البعض الآخر امتعته وجلس الى جوار مزرعته الصغيرة يتأمل ورودها تارة ويرش عليها الماء تارة أخرى ، سوف **تموت هذه الورود** بعد قليل لكنه حريص أن يسقيها حتى لا تموت أمامه ، وملك الصحراء يحتضن أدوات الرسم بحب ويجلس الى جوار خيمته وسكنه ومرسمه ، يلقى عليهـا نظراته الاخيرة قبل ان يرحل عنها .

لقد انتقلنا من سجن الى سجن ثان الى ثالث طوال السنوات السابقة ولم نشعر فى اى مرة مثلما نشعر به الآن . علاقتنا بهذا المكان كانت من **نوع خاص** . هذه الارض التى كانت موحشة جرداء ، استطعنا ان نخلق فيها الحياة بجهدنا وعرقنا . من ترابها الذى لم ير الماء منذ بدء الخليقة ، خرجت **الورود والازهار والاشجار** ، وتحت سمائها التى لم تشهد بشرا من قبل ، مارسنا كل ما يمارسه الانسان فى أرقى بقعة من بقاع الارض ، قرأنا وكتبنا ، غنينا ورقصنا ، علمنا ، وتعلمنا . كان حوارنا مع أنفسنا ، ومع بعضنا البعض ، ومع الآخرين ، ومع التراب والارض ، والشجر والزرع ، والورد والازهار ، متصلا لم يتوقف ابدا . ما أعظم الحوار وما أروعه حين يكون **صادقا** ! الحوار الصادق ، بين البشر وبين البشر والطبيعة ، هو وحده الذى يخلق **الحياة** ، يجددها ويطورها ويدفع بها باستمرار الى الارقى . متى تعرف البشرية مثل هذا الحوار ؟ فقط حين يصل البشر الى صيغة صادقة للديموقراطية تكون وسيلتهم فى الحوار ، وحين يستخدمون العلم فى حوارهم مع الطبيعة للحصول على خيراتها لصالح الانسان ، وليس فى انتاج السلاح لتدميرها وتدمير الانسان نفسه ، واجد تأملاتى مجسدة فى لوحة رسمها الفنان **داود عزيز** اسمها « **الانســان والمكان** » وهى اللوحة الثانية التى تحمـل نفس الاسم . الاولى رسمها حين وصل الينا من سجن **القناطر الخيرية** من شهور ، والثانية رسمها خلال ساعات انتظار رحيلنا عن هذا المكان .

— لوحتان فقط « بالرصاص » رسمتها خلال اقامتك هنا ؟
— المشهدان اللذان انفعلت بهما .
— الاول اكثر تعبيرا عن الثانى .
— ربما لانى لم اكن اتوقع ما رأيته هنا عند حضورى .
— والثانى لان علاقتك بالمكان لم تكن فى قوة علاقتنا به .

— تهتم كثيرا بقضية العلاقة بين البشر ، وبين البشر والاشياء .
— العلاقة الصادقة اداة تقدم الانسان ، واداة سيطرته على الطبيعة لخير البشر .
— حقيقة نظرية !
— والممارسة الصادقة تصوغها حياة متجددة ابدا .
— كنت أود ان يكون حوارنا متصلا .
— ولماذا توقف ؟
— دخولك السجن مبكرا .
— وهل يبتر السجن حوار الثوار ؟
— كنتم معزولين عن الواقع . .
— وكنتم تتعاملون معه من خلال ذواتكم .
— الآخرون يتحملون المسئولية .
— وأنت قبلهم وأكثر منهم .
— لقد نالوا منى . .
— وأنت واحد من الذين وضعوا البذرة .
— كان من الصعب أن نتصل بكم ..
— بل كان الغرور والتعالى والاحكام القاطعة .
— قرأنا كل ما وصلنا منكم . .
— كما يقرأ الاستاذ الجامعى بحوث تلاميذه !
— لم اكن استاذا جامعيا ..
— ساهمت فى زيادتهم ..
— ربما كان هذا خطئى الاساسى .
— عرفته متأخرا ! .
— حين اصابتك اضراره .
— وهل يتعلمون ؟
— التجربة خير معلم !
— أرجو ان يتعلموا . .
— ليس بعد ..

وأحكى له ولاول مرة قصـــة واحد منهم جاء يقنعنى **أنا ومجـــدى فهمى** أن نقبل قرارهم الغريب بعد وحدة التنظيمين ثم التنظيمات الثلاثة :

— القيادة تحتاج الى اصوات فى الخارج .
— حسنا .
— وأنتم فى السجن ولا نملك اخذ اصواتكم .
— والبديل ؟
— أن يحل محلكما صوتين لحين خروجكما . .
— ثم ؟
— تمارسان القيادة .
— نتوقف عنها فى السجن ؟
— لظروف خاصة بالاتصال بكم ..
— نفهم أن تحاولوا التغلب عليها ..

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— ربما يحتاج الامر الى سرعة . .
— والحاضر يسد ؟ .
— سيكونون هم الاغلبية .
— اليست قيادة واحدة ؟ .
— ليس بعد . .
— اتحاد فيدرالى ؟
— فرضته الظروف .
— الظروف الذاتية ؟
— بل السياسية
— وهل هم غافلون ؟
— سيضمونا فى الحساب .
— أنتم واهمون . .
— أصبحنا اكثر قوة
— بل أشد ضعفا
— أنتم تعارضون الوحدة اذن ؟
— بهذا المنطق الانتهازى . . نعم .
— نحتاج الى وقوفكم معنا . .
— ولماذا الآن بالذات ؟
— كنا مخطئين .
— بل كنتم مغررين متعالين .
— نزلنا من ابراجنا .
— حسنة وأنا سيدك !
— سخريتكم مريرة .
— ومرارتنا « مفقوعة » .
— ترفضون اذن ؟
— الرفض موقف ..
— ممتنعون ؟
— والامتناع موقف .
— ماذا اذن ؟
— غير مكترثين .
— يأس من النضال ؟
— بل منكم
— نوقف الحوار اذن ؟
— بترتموه منذ سنوات .
— نبدأ من جديد . .
— بشرط ..
— هو ؟
— أن تعود الحياة الى الجزء المبتور .
— لسنا أمواتا .
— ليس الموتى وحدهم الذين لا يحسون .

واتبادل التعليق مع **داود عزيز** حينا ، وحينا اخرى تروح عينى لتجوب هذه البقعة من **الصحراء** ، التى تحولت بسواعدنا الى **واحة** ،

وها هم **يقتلون** فيها كل أثر للحياة ، لتعود كمـــا كانت قاحلة جـــرداء ، وتعود ذاكرتى الى الاربعينات وأوائل الخمسينات حتى دخلنا السجن . تركنا **وليدا** مع من لا يملكون عطاء **فقتلوه** بين أحضـانهم الباردة .

وأسـمع صـوتا ينادى على وانضم الى القافلة التى تسـير بنا الى سجن « المحاريق » **بالواحات الخارجة** . وقبل ان تغلق الزنازين أبوابها علينا هناك فى المسـاء نحس بمقدمات لا علاقة لها بما كان ينتظرنا فى سـجننا الجديد . أكتبها لك فى الرسـالة المقبلة يا حبيبتى ..

٥ أغسطس ١٩٧٧ ـــ القاهرة

الرســـــالة رقم (٤٢)

حـــــبيبتى :

تحركت بنا العربات التى تحملنا وامتعتنا الى **ســجن « المحاريق »** وظلت عيوننا معلقة بهذا المكان الذى احببناه حتى غاب عن انظارنا .

كيف نحب مكانا سجنا فيه ؟

علاقة خاصة جدا كانت تربطنا بهذا المكان الذى كلما بعدنا عنهكلما اشتد حنيننا اليه ، لمــاذا لم يتركونا فيه حتى نخرج من السجن ، أحياء أم امواتا ؟ الى هذا الحــد يكرهون **ابتســامة المسجون** وزرع ورد فى السجن ؟

حرارة الشمس حارقة رغم ان الساعة تجاوزت الثالثة بعـــد الظهر . العربات تحاول أن تجد طريقها عبر مسالك ملتوية وسط كثبان الصحراء ، نلمح سرابا بعيدا ، قريبا ، ليس بعيدا ولا قريبا فهو **السراب !** وتصطدم احدى العربات **بكثبان** وتدور عجلاتها على « الفاضى » وفى محاولة يائسة لتنتشل العربة من الرمال الناعمة . تتوقف كل العربات لنجدة العربة **الغارقة** وسط الرمال الناعمة ، وننزل جميعا لنجدتها ، الرمال ساخنة تلسع أيدينا ونحن نزيحها عن عجلات العربة ، وتلهب سيقاننا الغاطسة فيها حتى الركبتين . وتهب رياح قوية تحمل معهـــا كميات هائلة من **رمال الصحراء** وتقذف بها فى وجوهنا تلسعها **كالسياط ،** وتكاد تعمى عيوننا . وفجأة نجـــد انفسنا وسط **دوامة شديدة** من رياح الصحراء المحملة برمالها الكثيفة لتقيم احد كثبانها . ويرتفع صـــوت نسمعه بصعوبة شديدة .

— اصعدوا الى العربات حالا .

ونتلمس طريقنا الي العربات بصعوبة بالغة .

ويعود الصوت مرتفعا :

— كلـــكم طلعتم للسيارات ؟

الشمس ساطعة ، لكن **دوامة الريح** المحملة بالتراب الناعم تحجب عنا نورها ، ولا نرى بعضنا البعض الا بصعوبة .

ويعود الصوت مرة اخرى :

— كل واحد ينطق اسمه ..

وترتفع أصواتنا وأصوات السجانة والمساجين العاديين ، كل ينطق اسمه .

تتوقف رياح الدوامة التى لفتنا فى هذا المكان ، لتنقل الى مكان آخر ونراها من بعيد . سيارة واحدة ، كانت فى المقدمة ، نجت من الغرق فى الرمال . كل عجلات السيارات الباقية **غرقت فى الرمال الناعمة** .

— كان يمكن أن نرقد تحت الرمال .
— انتقال الدوامة من هذا المكان أنقذنا من **موت محقق** .

ويضحك زميل ويقول :

— كثبان تاريخى .

ويرد الضابط المسئول عن « الترحيلة » ضاحكا ، وكان فى العربة التى لم تغرق :

— وأتحمل أنا المسئولية ؟
— أمام الله أم الحكام ؟
— الله لا يرضى بذلك .
— لكن الحكام يتمنون .
— ويحاسبونك على «المعهدة» التى لم تسلمها !
— أو سلمتها لغير أصحابها .

ويقول الضابط ضاحكا :

— احسدكم على روحكم الساخرة حتى فى أحلك الظروف والمواقف .
— ونحن محجبون ضد الحسد !
— ليتنى أعرف مصدر روحكم العالية
— الفكر .
— فقط ؟
— وممارسة تصل به الى اليقين .

ونعود مرة أخرى الى ازاحة الرمال الناعمة عن عجلات العربات الغارقة فيها كى تجد **طريقها الى السجن** ! يا ذوى القلوب السوداء والاكباد الغليظة ، **بأيدينا نمهد طريقنا** الى السجن دفاعا عن حياتنا التى تريدونها أن تنتهى تحت رمال **كثبان الصحراء** . وبفكرنا ويقيننا وبقوة شعبنا العظيم وتضامن كل الوطنيين ستجد مصرنا الغالية طريقها الى الحرية والديمقراطية والتقدم الاجتماعى .

قرص الشمس يسقط ببطء خلف الكثبان البعيدة العالية . الظلام يزحف يغطى الصحراء الواسعة ويختفى السراب . وتستأنف السيارات سيرها **نحو السجن** ! أحلامهم سراب وان خطف بريقه الابصار ، وأحلامنا حقيقة يلوح شعاعها بعيدا فى الافق ، وظلام سجونهم لا يقوى على طمسه .

وتقف بنا العربات بعد حوالى نصف ساعة أمام **بوابة السجن** . الطوب والزلط والاسمنت بكميات كبيرة ماتزال أكواما تنتظر خلطها لبناء الجزء الباقى من السجن . عنبران تم بناؤهما والعنبر الثالث لم يرتفع أكثر من أساساته والعنابر الثلاثة ما زالت فى العراء لا يحيط بها سور من الطوب ، وانما **أسلاك شائكة** .. مؤقتا .

— لماذا تعجلوا فى نقلنا الى هنا والسجن لم يتم بناؤه بعد ؟

ويقول المأمور الجديد للسجن :

— فوجئت مثلكم تماما .. ولا أدرى كيف أدبر طعامكم ..

ويضحك المأمور القديم ويقول :

— لديهم خبرة فى الطبخ !
— لكن لا يوجد أى شىء يطبخ ليؤكل ، أو حتى مطبخ .
— اتينا بكميات من العدس والفول والفاصوليا والملوخية الناشفة ..
— تبقى مشكلة طبخها ..
— تتدبر .. ولا يهمك .

ويصدر المأمور الجديد أوامره للسجانة كى يقوموا **بتفتيشنا** وتفتيش أمتعتنا . ويسأل أحد السجانة :

— ايه الممنوعات يا سعادة البيه ؟

ويصرخ المأمور الجديد غاضبا :

— مش عارف هيه ايه الممنوعات يا سجان يا ابن (...) .

ويرد السجان :

— يبقى كل اللى معاهم ممنوعات .

ويعود المأمور الجديد الى صراخه :

— وجابوها منين .. همه مش جايين من سجن ؟

وينتحى به مأمور سجن « جناح » جانبا ويتحدث معه بعض الوقت ويعودان الينا . يقول المأمور القديم :

— وصلنا الى حل وسط .. الكتب والشاى والسكر والاطباق والملابس المدنية .. و .. و .. تحفظ مؤقتا فى مخزن حتى يسأل المأمور القاهرة .

— ورد القاهرة معروف مقدما ..

ويقول المأمور الجديد بغضب :

— وانا اتحمل مسئولية وجود ممنوعات فى السجن .
— ونحن لسنا على استعداد للتنازل عن اى مكسب كسبناه .
— وانا لست مستعدا للتفريط فى النظام .
— نظام سجون القاهرة لا يمكن تطبيقه هنا .
— لم يحددوا لى نظاما غيره .

— تصرف .. كما تصرف مأمور سجن « جناح »

ويتدخل المـــأمور القديم :

— الوضع مختلف يا جماعة .. فى « جناح » كانت خيام .. وهنـــا زنازين يعنى نظام .

— حسنا .. ليوفر لنا اذن كل حقوقنا فى لائحة السجون .

— سأوفرها لكم بالكامل .

— أين عشاؤنا من اللحم والخضار ؟

— ولم نتناول فى سجن « جناح » وجبة الغذاء من العـــــــدس أو الفول .

— ولنا الحق فى ثلاثة أرغفة كاملة .

يصمت قليلا .. ثم يقول مبتسما :

— أحتاج الى مساعدتكم .

— ونحتاج الى مرونتكم .

— نجرى اتفاقا .

— بشرط أن ندخل السجن ومعنا كل حاجياتنا ثم نناقش .

— موافق .. وانتدبوا من يمثلكم .

انتدبنا **وليم طانيوس** و **د. شريف حتاتة** ليناقشا مأمور السجن الجديد ويجريا معه اتفاقا . ونحن فى مركز قوى ، نملك خبرة اقامـــة منشآت فى **السجن** . مثل المطبخ ، والمخبز ، والورش ، ونملك الكادر الذى يديرها . والمــأمور ليست لديه أى أوامر محددة بالنسبة لنا ، وعلينا أن نستفيد من هذه الظروف المواتية لعقد اتفاق يسمح لنا بحـــد معقول من الحياة داخل هذا **السجن الجديد** ، ليس كما كنا فى «جناح» ، ولا كما يعيش المسجونون فى سجون القاهرة .

— يعنى حل وسط ؟

— لا يا وليم .. مســـــاومة .

— الثوار يساومون أحيانا .

— وأشهد لك بالبراعة .

ويعود الينا وهو يحمل اتفاقا محددا . نقوم باستكمال بناء المطبخ بسرعة وادارته ، كذلك المخبز . نودع الملابس المدنيـــــة (البيجامات والارواب والبدل) . فى احدى الزنازين ولا تفتح الا بحضور من يمثلنا « مسئول الادارة » . يسمح لنا بأخذ السجاير والعلب المحفوظـــــــة والسكر والشاى ويتفق على مواعيد عمل الشاى خارج الزنازين ، تظل الزنازين مفتوحة منذ الصباح حتى الثامنة مساء ولا يسمح بالخروج من باب العنبر الا فى أثناء طابورى الفسحة ، ساعة فى الصباح ، وأخرى قبل غروب الشمس بقليل . توضع الكتب فى مكتب احد الضباط ، ليأخذ منها كل زميل كتابايستبدله بآخر بعد قرائته ، ويشرف بعض الزملاء على تنظيم استعارة الكتب .

— كويس يا وليم .

— ماكانش ممكن أحسن من كده .

يعلق **مجدى فهمى** •

ــ طيب .. هايل .

ويضحك وليم :

ــ ايوه كده .. هايل غير كويس !

واضحك قائلا

ــ لا تنس أن « هايل » دى لازمة لمجدى .

ــ برضه أحسن من « كويس » .

طوب جدران الزنزانة البيضاء ، وسقفها الاسفلتى «تبخ» حرارة الشمس التى امتصتها طول النهار ، **تلسع وجوهنا** ، ثم الجزء الاعلى من أجسامنا العارية ، والعرق يتصبب دون توقف ، حتى الهواء الذى يصل الينا من النافذتين العاليتين وكأنه مر على « جهنم » قبل أن يأتينا. أجسامنا التى هدها التعب وانهكها المجهود الذى بذلته خلال الطريق لازاحة الرمال الناعمة من حول عجلات العربات ، تأبى الاستسلام للنوم ، ويأتى من آخر الزنزانة صوت ماجد حافظ :

ــ مين يعرف جغرافيا ؟ .

ويرد عليه وليم اسحق ..

ــ ليه يا ولد ؟

ويرد ماجد حافظ ضاحكا :

ــ مفيش ولد هنا .. فقدت عرشك يا ملك الصحراء .

ــ لم أفقده .. ولن أفقده .

ــ اخذوا منك الصحراء .. واعطوك حتة فى زنزانة فى الصحراء ..

ــ برضه ملك .

ــ ملك الشطرنج ..

وينهض **وليم طانيوس** بقامته الطويلة ونصف جسمه الاعلى عارى ، والشعر الكثيف يملأ كل صدره ، يمسك فوطة وجه « ويهوى » بها وتتوالى تعليقات الزملاء :

ــ شوية هوا ينوبك ثواب .

ــ الله دى الزنزانة بحرى .

ــ ايه « السكس » ده يا وليم ؟

ــ « سكس » محبوس .

ــ وامتى اخذ حريته ؟

ويدافع وليم عن نفسه « وسكسه » . عشرات **العذارى** سقطن فى « دباديبه » . لكن ماكانش ممكن .

ــ ليه يا وليم ؟

ــ الجمود يا بيه .

ــ الجمود والا البرود ؟

— برود فى عينك

ويقف **سعد باسيلى** . هو ايضا شبه عارى ، العرق يتصبب منه يجففه بفوطة الوجه حينا ، و «يهوى» بها حينا آخر . جسمه أبيض يشوبه احمرار ولا توجد شعرة واحدة فى صدره أو فى ساقيه .

ويصرخ **رمزى يوسف** ضاحكا :

— لا .. ما اقدرش على كده ؟

— ايه يا رمزى ؟.

يشير الى سعد باسيلى ويقول :

— الفتنــة واقفــة ..

يضج الجميع بالضحك ماعدا سعد باسيلى الذى تصله النكتــة متأخرة . فهو «جد» جدا ولا يحب النكت وكان ثلاث زملاء آخرين كانوا فى عالم آخر . اثنان منهما كانا مشغولين بعمل « مخبــأ » فى الارض **ورمزى يوسف** الذى كان يضع سماعة « الترانزستور » على احــدى أذنيه . يهمس فى أذنى :

— **مقال خطير فى الاهرام** .

— لخصــــه لنـــا .

ويلخص **رمزى يوسف** المقال الذى يبدو أن الاذاعة اذاعته اكثر منمرة امس الجمعة . وها هى تذيعه بعد نشرة الحادية عشر والنصف اليوم السبت . **هجوم شديد على ثورة العراق ، وعبد الكريم قاسم والحزب الشيوعى العراقى** . ورد على الاتهامات التى وجهت الى الحكم فى مصر خلال محاكمات المهداوى . **وعيد وتهديد** . « للشيوعيين » المصريين الذين يتعاطفون مع **قاسم والشيوعيين فى العراق** . أولئك الذين هتفوا فى بعض التجمعات ، وكتبوا فى المنشورات **« زى قاسم يا جمال » !**

— يعنى ايه زى قاسم ؟

— يعنى جبهة وطنية فى مصر زى العراق .

— وراحت فين **الجبهة** اللى كانت ملتفة حول **جمال ؟**

— كانت فى ســـنة ٥٦ .

— مؤشر خطير .

— حملة اعتقالات واسعة متوقعة .

— وتنكيل بنـــا .

— نحن الرهائن .

— طفــولة يسارية .

— وعبث **أطفـــال** .

ويرتفع صوت عاقل :

— لا تنسوا مسئولية **الحكم فى مصر** ، ونحن لا نعرف الوضع فى العراق بالدقة . المح طفولة يســارية من **الشيوعيين فى العراق** ، ومواقف قومية متعصبة **لعبــد الكريم قاسم** . وتنافس على زعامة المنطقة بين القاهرة وبغداد له امتداده فى التاريخ المعاصر ، فلنتريث حتى

نجمع أكبر مادة ممكنة تساعدناعلى تحليل الموقف . والامر العاجل بالنسبة لنا هو أن نعد أنفسنا لاسوأ الاحتمالات .

منذ دخلنا **السجن** ونحن نعيش فى ((**دوامة**)) **الاحتمالات** . عشنا فيها فى **سجن مصر** ، وانتقلت بنا الى **ليمان أبى زعبل** ، ثم الى **ليمان طره** ، ثم الى **سجن** ((**جناح**)) .. وها هى تنتقل بنا الى سجن ((**المحاريق**)) وكانت دوامة تختلف عن كل الدوامات التى عشناها ، فى السجون الاخرى.كانت لها سمات خاصة تشترك معدوامة رمال الصحراء الناعمة، تلك التى عشناها بعد ظهر اليوم فى سمة أساسية ، سوف تتضح لك معالمها يا حبيبتى فى رسائلى المقبلة .

والى اللقاء فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

٧ أغسطس ١٩٧٧ ـــ القاهرة

الرســـــالة رقم (٤٣)

حـــبيبتى :

لا أعرف ان كان الانسان قد اكتشف قوانين دوامات الطبيعة ، فى البحر ، وفى الجو ، وفى الصحراء ، أم لا ؟ ربما يكون اكتشفها لكنه لم يستطع بعد السيطرة عليها ، وان امتلك القدرة على مقاومتها . فاذا وجد السباح المـــاهر نفسه فجأة وسط دوامة فى البحر ، فانه لكى ينقذ حياته يهبطالى قاع البحر ويسبح فيه حتى يخرج من الدوامة ، والطيار المـــاهر يتفادى أسر الدوامة الهوائية بالصعود بطائرته أو الهبوط بها سريعا . وبدو الصحراء قادرون بملاحظتهم الدقيقة لاتجـــــاه الريح أن يبتعدوا عن مكان تنتظره دوامة الرمال الناعمة . ولست أعرف كيف يمكن مقاومة **دوامة الرمال الناعمـــة اذا وجد انســـان نفسه داخلها فجأة .** ما أعرفه ، هو ما حدثتك عنه فى رسالتى السابقة حين فاجأتنا دوامة الرمال الناعمة ونحن فى طريقنا الى سجن **المحاريق** بسبب جهل **« قادة »** السيارات ، فقد كانوا من المدينة ، ولو كان معنا أحدا من بدو الصحراء لمـــا فاجأته الدوامة التى لم ينقذنا منها سوى تغير اتجاه الريح ! **والحياة فى السجن دوامة** . والدوامات التى عشناها فى **ســـجن مصر وليمـــان أبو زعبل وليمان طره ، وسجن جناح** ، كانت اقرب الى دوامات البحر والجو ، نجونا من أخطارها حيث كنا نملك القدرة على التصرف . وبعد الاشهر الاولى من وجودنا فى سجن **المحاريق** ، لاحظنا بوادر « دوامة » تشبه دوامة الرمال الناعمة وتفاديناها ـــ رغم أنه لم يكن بيننا أحد من بدو الصحراء ـــ وفجأة وجدنا أنفسنا داخلها ، لا نملك غير الانتظار . لقد وصل الينا **«قادة» أحياء القاهرة «الراقية»** وسلبونا حق التصرف ، ووجدنا أنفسنا جميعا وسط **دوامة الرمال الناعمة** ومات من مات ، ومن لم يمت خرج من السجن نصف ميت ! رغم أن الريح غيرت اتجاهها .

بدات حياتنا الجديدة فى سجن **« المحاريق »** تســـير وفق الاتفاق الذى تم مع مأمور السجن الجديد . ساهمنا فى استكمال بناء المخبـــز والمطبخ وورش النجارة والحدادة ، وانتظم معظم الزملاء فى العمـــل فيها وبعد مضى اسبوعين تقريبا حصلنا على مكسب هام ، هو عدم غلق **الزنازين** علينــــا الا بعد الثامنة مساء ، مع حقنا فى ساعتين فسحة فى صباح وبعد ظهر كل يوم . واستطعنا من خلال تعاوننا مع الادارة الجديدة للسجن فى استكمال الناقص من منشآت السجن المختلفة أن نكسب احترامها حين احترمنا كلمتنا مع المـــأمور . ومن خلال هـــــذا الاحترام المتبادل حصلنا على حق بناء «فرن» لحرق الفخار ! ولهذا «الفرن» قصة طريفة أحكيها لك :

ذات يوم ـــ بعد حوالى شهر من وجودنا فى سجن **المحاريق** ـــ كنت اسير ومعى **وليم اسحق** على مسافة بعيدة من « العنبر » الذى نعيش فيه ـــ داخل اسوار السجن ، وقريبا من «فيلا» مأمور السجن ـــ خارج الاسوار . وجلسنا الى جانب السور الذى يفصل السجن عن «فيلا» المـــأمور . كان المـــأمور ومعه طفلاه يتمشون قريبا منا ، خارج الاسوار وكنا نراهم من البوابة الخلفية للسجن . فجأة وجدناهم يقفون أمامنا . كان وليم يقوم بتشكيل «زهرية» من طين عثر عليه فى فناء السجن . هذا «الطين» كما يؤكد وليم افضل كثيرا من «الطين» الذى يصنعون منه الفخار والخزف فى القاهرة . انتبهنا على صوت المـــأمور يقول :

ـــ بتعمل ايه يا وليم ؟
ـــ زهريـــــة .

تناولها المـــأمور وبعد أن تأملها قال :

ـــ والطين ده منين ؟
ـــ ده مالى الدنيا هنا .
ـــ ممكن يتعمل منه فخار ؟
ـــ وخزف كمان .. احسن من « البورسلان » .
ـــ طبعا بمعـــــدات حديثة .
ـــ ابدا .. مش اكثر من معدات بتاع القلل الفخار .
ـــ اعتقد أنه محتاج لحرارة شديدة .
ـــ ممكن جـــــدا .
ـــ ازاى ؟
ـــ الحطب مالى الدنيا هنا .
ـــ مش مصدق .
ـــ نعمل تجربة .
ـــ موافق .. وورينى همتك .

وينصرف المـــأمور بعد أن يتفق مع وليم على أن يبدأ العمل فى بناء الفرن من صباح الغـــد ، وبات **ملك الصـــحراء** يحلم باستعادة عرشـه الذى فقده فى جناح .

ـــ لم افقد العرش يا درش .
ـــ على وزن « انت العرش يا درش » . كما قالها الوفديون للنحاس باشـــــا .

وبدأ العمل فى بناء الفرن . كميات كبيرة من «الطين» نجمعها من أماكن متفرقة فى فناء السجن ، نكدسها فى كوم كبير ، لنأخذ منه مانضعه فى حفرة كبيرة ونعجنه بالمـــاء ـــ وعـــدد من النجارين **« الاخـــوان »** يقومون بعمل « دولاب » الفخار ، ومنضدة كبيرة . وعدد آخر يبنى حجرة من الصاج . ولمدة ١٥ يوما كان العمل يجرى بنشاط حتى موعد «التمام» فى الثامنة مساء ، وكان المـــأمور يأتى كل يوم يراقب ما يجرى أمامه فى دهشة . أحيانا لمـــا يشـــاهده من **حماس شديد** فى العمل ، وأحيانا

اخرى لانه لا يصدق امكانية بناء فرن هنا لحرق الفخار والخزف بامكانيات محلية مائة فى المــائة .

ها هو الفرن قد تم بناؤه . وهذه كميات كبيرة من **الاوانى والزهريات** والاطباق التى شكلها الزملاء من الطين ، ولم يبق غير اشعال الفرن والقيام بالتجربة . ويقول المــأمور :

— انتاج كثير .. بس لسه طين .
— حالا نولع الفرن وتشوف الفخار .. والخزف .
— فخار ممكن .. لكن خزف دى كبيرة قوى .
— لو تسمح نبعت نشترى الوان «جليز» وبعض المــواد الكيماوية وتشوف الخزف .
— اكتب لى قائمة باللى انت عاوزه وانا أبعت اشتريه .
— وبعد ماتشوف الانتاج .. اقدر أطلب حاجة ثانية ..
— كل طلباتك مجابة .. بس أشوف الفخار والخزف .

ويضحك وليم ويقول :

— كلها .. كلها ؟
يشارك المــأمور الضحك ويقول :
— ماعدا حاجتين ما اقدرش أعملهم .
— الافراج اول حاجة .. والثانية ايه ؟
— الستـــــات .

ويضج الجميع بالضحك .. ويعلق وليم :

— ماهو الافراج والستات حاجة واحدة .

ويعلق **ماجد حافظ** :

— انت لسه فاكر شكل الستات يا وليم ؟
— اسكت يا ولد .. انت لسه صغير .. متعرفش الحاجات دى .
— صغير .. صغير .. أدامى مستقبل .. المشـــــكلة بقى فى اللى عجزوا .

وتســـود فترة **صمت** ، ينصرف خلالها المأمور دون أن يعلق . لكن مسحة من حزن تكسو وجهه . **ماجد حافظ** مايزال شاب ، لمس بتلقائية ما عملنا على دفعه **للخلف** طوال السنوات السابقة .. معظمنا تجاوز **الثلاثين** من عمره ويقترب من **الاربعين . كم يبلغ عمرنا عند انتهاء مدة العقوبة ؟** وكم يبلغ عمرنا حين نخرج من السجن ؟ سيزيد عن الاربعين ؟ هل نجد من النساء من يرضى بنا ؟ واذا وجدناهن ، **هل نملك مانعطيهن ؟** ليس بالخبز وحده يحيا الانسان . كثيرون احبوا ومارسوا الحس بعد الخمسين لابعد الاربعين . وهناك رأى يقول بأن الرجل لا يتوقفعطاؤه حتى المائة . الاربعون أو بعدها بسنوات قليلة سن النضج والرجولة . المهم هو أن نحافظ على صحتنا .

وبضحكته الطفولية والتى تحمل اعتذارا يقطع ماجد حافظ صمتنا الخارجى ، وحوارنا الداخلى ، ويقول :

— ايه ؟ مالكم بلمتم كده ؟ الشباب شباب القلب .

ونرد فى نفس واحد وبصوت عال :

— يا ابنى احنا شباب على طول .

كانت كلمة أشعلت النار فى أعماقنا وكنا قد أخمدناها منذ دخلنا السجن ، كانت كهذا البنزين الذى وضعه **وليم اسحق** على الحطب والفحم ليشعل نار الفرن التى ستحرق الطين وتجعل منه فخارا . ترى ما الذى ستفعله فينا النار التى اشتعلت فجأة فى داخلنا ؟

النيران تحول الحطب الى رماد ، وتبدد سواد الفحم تدريجيا حتى يتحول الى جمرات حمراء ترسل لهيبها القوى الى الطين لتحوله فخارا . يحكم وليم غلق باب الفرن ، وينظر الى جمرات النار المشتعلة من خلال طاقة زجاجية صغيرة ويقول :

— ٢٤ ساعة وكل اللى فى الفرن يستوى .

الساعة تقترب من الثامنة مساء وحان موعد انصرافنا الى **الزنازين** كى تغلق علينا حتى صباح اليوم التالى . وقبل ان أدخل باب العنبر التفت الى الفرن ، كان لهيب النار يرسل شعاعا يخترق ظلام الليل الحالك واحسست بهدوء نفسى .

وحتى انصرافنا من « أتيليه الفخار والخزف » فى مساء اليوم التالى لم نفعل شيئا سوى تأمل الجمرات الحمراء وهى ترسل لهيبها الى الاوانى والزهريات الطين لتحوله الى فخار .

— لهيب النار يكسب الطين صلابة .
— كما يكسب لهيب الثورة الثوار صلابة .
— لا تكسبهم .. وانما تزيدهم صلابة .
— معك حق .. النار فى الحالتين عامل خارجى .

ونرى المأمور قادما نحونا ومعه ولديه وطبيب السجن ، وبعض أصدقائه من الموظفين الذين يعملون فى الوادى الجديد . يلتف الجميع حول الفرن يتأملون النار المشتعلة داخله وهى تخبو تدريجيا .

ويقول المأمور :

— أظن الفخار استوى يا وليم ؟
— نصف ساعة ويبقى كله تمام .

يلتفت المأمور الى من معه ويقول بفخر :

— دلوقت تشوفوا الانتاج العظيم .. و..

ويقاطعه وليم :

— بكره الصبح .

— ليه بقى انت مش بتقول نصف ساعة ؟
— أيوه .. بس مش ممكن افتح الفرن الا لمـــا يبرد خالص .

ويقول واحد من الذين جاءوا مع المـــأمور :

— يا خسارة كنت عاوز ارجع البيت ومعايا زهرية ..
— معلش .. كلها سواد الليل .
— بس أنا مش فاضى الصبح .

ويقول المـــأمور ..

— اطمئن مش راح اتصرف فى حاجة الا لمـــا تيجى بكره بعد الظهر .

كان المأمور يخاطبـــه **باحترام شـــديد** . ربما كان **المحافظ** ، وربما كان **ضابط مخابرات أو مباحث** . من يدرى ؟

وينصرف المـــأمور ومن معه بعد أن يؤكد على وليم بعدم التصرف فى أى قطعة ، فكل ما فى الفرن قد أصبح **((عهدة))** ! **ولا** يعترض الفنان ، فالذى يسعده هو الخلق ، وهو يفرح حين يجـــد انتاجه مع الناس . الفن من اجل الناس ، وليس الفن للفن .

— ولكن ليس بالاكراه يا وليم .
— الظروف تحكم يا درش .
— وعلينا أن نستفيد منهـــا .
— سأطلب من المـــأمور عمل مرسم .
— سيوافق بشرط ..
— أن تصبح اللوحات « عهدة » !

وفى صباح اليوم التالى نجد المـــأمور ومعه كل من صحبوه مساء امس حتى ذلك الرجـــل **((المحترم))** فى انتظار وليم كى يفتح الفرن . جمرات الفحم تحولت الى رماد ، والطين اكتسب حمرة خفيفة . يخرج وليم احدى الاوانى و **((يخبط))** عليها بأصبعه **((فترن))** ويقول :

— الفخار الكويس « رنتـــــه » مش مكتومة .

ويتناول المأمور منه الآنية ويعطيها للرجل **((المحترم))** ..

— قطعـــــة فنيـــــة ..

وعلى المنضدة كانت كمية كبيرة من الزهريات والاوانى والاطباق والتماثيل ، يتبادلها الواقفون ويبدون اعجابهم . ويلتفت المـــأمور الى واحد من الضباط ويقول :

— يا حضرة الضابط سجل الحاجات دى كلها فى دفتر « العهـــدة » .

ويقـــــول وليم :

— بلاش نسجلها المرة دى .
— لا ياوليم ده مجهودكم ولازم تحتفظ بيه .

— نحتفظ بيـــــه ليه ؟
— تعرض للبيع فى معارض **مصلحة السجون** . جزء منها ثمنها لكم .
— طيب ايه رأيك نعتبر الشــــوية دول تجربة .. وبعــــد كده نســـجل .
— ودول نعمل فيهم ايه ؟
— هــــدية لسيادتك ..
— وأنا أعمل ايه بكل ده ..
— توزعهم بمعرفة سيادتك .

ويعلق الرجل ((**المحترم**)) وبعض الآخرين :

— معقول نعتبرهم « تجربة » .
— وسيادتك تتولى توزيعها كهدايا ..

ويكلف المـــأمور بعض السجانة بحمل الانتاج الى مكتبه . وقبل أن يتصرف المـــأمور ومن معه يقول :

— على فكرة الالوان « الجليز » اللى انت طلبتها جايه بعد كام يوم .
— المرة الجاية بقى نعمل خزف .

ويضـــحك المأمور :

— ونعملهم هدية برضه ؟
— وفيه حاجات ثانية تصلح هدايا .
— ايه هيه ياوليم ؟
— بورتريه ظريف لسيادتك ..

ويشـير الى الرجل ((**المحترم**)) ويكمل :

— أو لوحة جميلة لصالون سيادته .

ويعلق عليه الرجل « المحترم » :

— لفيت البلد كلها مش لاقى لوحة مناسبة **لحجرة النوم** .

ويرد وليم :

— أهو ده بقى اللى ما اعرفش أرسمه ..
— ليه ؟ انت فنان .
— والفنان لا يرسم الا اللى مقتنع بيه .

ويضحك الرجل « المحترم » :

— امراة عارية لا تقنعك ؟

ويحمر وجـــه وليم خجلا ويقول :

— ممكن تقنعنى بحاجات تانية .. لكن أرسمها ، لا .

ويعلق **داود عزيز** .

— ويجيب منين **امراة عارية** .. هنا فى السجن ؟
— وهوه لازم يعنى موديل ..
— أمال يرسم ازاى .. ؟
— من الخيـــال ..

ويضحك وليم ويقول :

— خيالى مافهوش ست عريانة .

— لازم انت مش متجوز ؟

— وحتى لو كنت متجوز ..

ويبذل الرجل « المحترم » آخر محاولة لاقناع وليم :

— عندى صورة هايلة **لمارلين مونرو** .. وضع اغراء .

ويبتسم وليم ابتسامة مريرة ، ويقول :

— أنا .. أصلى ما اقدرش على كده .

وتبدو علامات الدهشة على وجه الرجل « المحترم » نموذج غريب من البشر . **كيف يكون فنانا ولا يرسم امرأة عارية ؟** يرسم ايه أمال ؟ انه يعرف فنانين كل لياليهم « حمراء » . حجرات نومهم مليئة بصور النساء فى أوضاع مختلفة . صحيح عندى منها الكثير فى « الجارسونيرة» . لكن كنت عاوز واحدة «حشمة» شوية فى منزل **« الزوجيـــــة »** . وكمان كان يمكن أن تكون « مادة » حديث مع الزوجة قبل وجبة « الخضـــار المسلوق » فى حجرة النوم . « ياه » ! دى كانت تبقى فعلا تسليـــة ظريفة .. **فنان .. ومسجون .. وأحمر** .. يرسم لى أنا « **وحدى** » صـــورة **امرأة عارية** ، لماذا لا أصدر له أمرا ؟ كل رغبـــاتى فى هـــذا البلد تحققها **أ**وامرى فكل من فيها يعرف من «أنا» بالتأكيد . اذا عرف سوف ينفذ أمرى ؟ احتمال كبير أن لا ينفذه . هؤلاء « الحمر » عنيدون . سأتفاهم مع المـــأمور :

ويحاول المأمور تخفيف صدمة رفض طلب الرجـــل « المحترم » فيقول مبتسما :

— تحب سيادتك تختار ايه من الحاجات دى ؟

ويرد عليه بضيق واضح :

— أى حاجة .. بعـــدين .

ويلاطفه المـــأمور قائلا :

— وعندنا كام فنان .. ضرورى حد منهم يرسم الصورة لسيادتك ، ويلتفت الى وليم اسحق .

— خلاص ياوليم .. اختار زنزانة من الزنازين الفاضية اللى فى عنبركم وجهزها للرسم . عندك الادوات اللازمة ؟

— موجوده كلها فى المخزن .

— ابقى تعالى خدها .

ويدرك المـــأمور من خلال خبرته فى التعامل معنا ، مغزى **الا** يشكره وليم اسحق وقد حقق له مطلبا عزيزا بموافقته على عمـــل مرسم فينصرف ومن معه بعد أن يرجو الرجل « المحترم » أن يتقدمه ! ربما ارضاء لغروره . وربما كى نفهم الى أى حد هـــذا الرجل « محترم » فنعيد النظر فى أمر رفض وليم رسم صورة **المرأة العارية !**

فى تكاسل شديد نحاول استئناف تشكيل الطين دون أى تعليق على ما حدث . اين حيوية « **ملك الصحراء** » وابتسامته الدائمة ، وتعليقاته الساخرة ، ومزاحه الدائم مع تلاميذه الصغار ، نبيل حلمى ، ومحمد خليفة ، وماجد حافظ ، ومنير المغربى؟. ينتحى **داود عزيز** به جانبا ويتهامسان . أرقبهما من بعيد وارى فى تعبيرات وجهيهما ترجمة لحديثهما. فجأة يقطع وليم اسحق حديثه مع داود عزيز ويسرع نحوى قائلا بغضب :

— أنا بقى مش مستعد ..

واقاطعه :

— ونا كمان مش موافق .

ويقول داود عزيز :

— طيب نتناقش .

وارد بحسم :

— وبدون مناقشة .
— موقف غير سياسى .
— بل محاولة غير انسانية .
— السياسة لا تخضع لمجرد موقف انسانى .
— انت فنان ارسمها انت.
— قرار ؟
— لا . باقتناعك .
— ومن قال اننى مقتنع ؟
— هل تقتنع بقرار ؟
— القرار ينفذ ولو عن غير اقتناع .
— اذا تطلب الامر يصدر القرار .

وتعود الى ملك الصحراء ابتسامته الانسانية ومرحه المعروف عنه . ويصيح **رمزى يوسف** :

— افراج يا وليم .. هيص .

يعقبه **منير المغربى** ..

— ملك بصحيح ..

يليه **ماجد حافظ** « العمدة » :

— خد يا ملك سيجارة بلمونت بحالها .

ثم **وديع وهيب** ..

— اعمل لك فنجان « قهوة » قشطة اليمن .

وحتى المساء ، عندما حان موعد عودتنا الى **الزنازين** ، لم تتوقف تعليقات الزملاء على مشهد « **الرجل المحترم** » حين رفض وليم اسحق تحقيق رغبته .

وتمضى الايام المتبقيـــة من أغسطس وسبتمبر **عام ١٩٥٨** وحياتنـــا فى الســـجن تقترب الى حد كبير من حياتنا فى **ســـجن جناح** . الزنازين مفتوحة طول النهار وحتى الثامنـــة مساء ، نشاط ثقافى وفكرى لايشله توقع حملات التفتيش المفاجئة . عدد كبير من الزملاء اصبحت هوايتهم صناعة الفخار والرسم وصنع تماثيل من الجبس . المجلات السياسية والفكرية ونشرة الاخبار العالمية أصبحت ناطقة بعد ان كانت مكتوبة ، لظروف الامان وندرة الورق ، حتى كانت زيارة **اللواء اســـماعيل همت فى أول أكتوبر عام ١٩٥٨** . أحكى لك عنها فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٩ أغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـــالة رقم (٤٤)

حـــــبيبتى :

ســـبق زيارة **اللواء اسماعيل همت لسجن ((المحاريق))** فى أول **أكتوبر عام ١٩٥٨** زيارات عديدة قام بهــا عـــدد من رجـــال **المخابرات والمباحث** ، وكانوا يعقدون لقاءات مع قيادات **الاخوان المسلمين** للحصول منهم على تأييد للحكومة . ولم تسفر تلك الزيارات الا عن تأييد عدد قليل بين قواعد الاخوان المسلمين وظل مـــوقف القيادات كما هو لم يتغير . امام هذا الموقف أرسلت « الحكومة الوطنية » اسماعيل همت لارهابهم والتنكيل بهم .

فى ذلك اليوم استيقظنا على صوت بروجى **((اللواء))** يصيح عاليا ، وكانت هذه أول مرة نسمع فيها فى ســـجن المحاريق تحية البروجى للواء .. اى لواء طبعا ! فلم نكن نعرف بعد انه **اسماعيل همت** . لم تفتح الزنازين فى موعدها وسألنا عن السبب فقال واحد من السجانة.. ربما يكون تفتيش مفاجىء يقوم به اسماعيل همت على راس حملة كبيرة من **الضباط والجنود والكلاب** . « ليست نكتة فقد كان مع همت كلبان » . بعـد قليل جاء من يطلب « مســئول الادارة » كى يقابل ضابط العنبر بسرعة . قال له الضابط انه مكلف من المـأمور أن يبلغنا بأنه لا يعرف ما هو الغرض من حضور **اللواء همت** هذا المفاجىء ، ويطلب أن نقوم بعملية « تنظيف » تامة لكل الممنوعات ، خاصة الورق والاقلام والكتب وأى شىء له علاقة **بالثقافة أو الفكر** ، وان نلبس ميرى مائة فى المائة ، الطاقية الزرقاء على الراس ، وبدلة السجن الزرقاء ، والاحذية بدون رباط ! على فكرة .. النظام فى السجون لا يسمح للمسجون أنيلبس حذاء برباط خوفا من أن يستخدم هذا الرباط فى شنق نفسه !

وبسرعة قمنا بعملية « التنظيف » الشاملة ، كل الكتب والممنوعات الاخرى جمعناها ووضعت فى مخزن الملابس ، ولبسنا « يونيفـــورم » السجن ، ثم جلسنا فى **الزنازين** نفكر فى شتى الاحتمالات . لم يخرج أحد للعمل كالمعتـــاد ، وفتحت الزنازين ، زنزانة ، زنزانة للذهاب الى دورة المياه ، وكان موقفنا كالآتى : عدم الاستجابة لاى استفزاز ، فى الوقت نفسه رفض أى عمل يقدمون عليه يهدر كرامتنا **ومقاومتـــه حتى الموت** . كان الزملاء متفرقين فى عدد من الزنازين ، ولا تجمعهم زنزانة واحدة، فاتفق على اختيار زميل فى كل زنزانة لمناقشة همت والتصدى لاى عمل ارهابى .

وظلت **الزنازين** مقفلة علينـــا حتى قبـــل الظهر بقليل . وفجـــأة سمعنا صراخا عاليا بأنات موجعة **وطلقات رصاص** . ثم رأينا دخانا كثيفا يهبط علينا من نافذتى **الزنزانة** العاليتين ، كان فى فناء السجن **حـــريق** هائل ، وجاء أحد السجانة ليقول لنا أنه شاهد من باب العنبر ، همت يقف وسط مجموعة من الضباط والاخوان يأتون اليه بين **طابورين من** الجنود الذين يحملون **الكرابيج** فى أيديهم ، وبعد أن يقترب « الاخ » من همت يتبادلان كلمات قليـــلة ، بعدها تنهال عليـــــه الكرابيج من كل جانب حتى يقع مغشيا عليه فيسحب ويأتون بغيره ، وهكذا . وبالقرب منه كان عدد اخر من السجانة يحضرون الشنط « المخالى » التى تحتوى على حاجيات **الاخوان** التى أحضروها معهم من **« جنـــاح »** ويلقون بها فى النار .

وتذكرت المناقشة التى جرت بيننـــا وبين **« ضابط الاتصال »** فى جناح وتهديده يعمل **مجزرة للاخوان المسلمين** المعارضين اذا لم يؤيدوا « الحكومة الوطنية » . لقد صح ما قاله الضابط ، هم لايريدون تأييـــد الاخوان كقوى وطنية وانما يريدون تصفيتهم . هم يريدون تصفية كل القوى الوطنية تنظيميا وسياسيا لينفردوا هم بالحكم والسلطان .

ويبرز أمامنا سؤال : نحن جميعا فى السجن وكل زملائنا فى الخارج لا نزال داخل اطار القوى المؤيدة للحكم الوطنى ، **فهـــل يجىء علينـــا الدور بعد الاخوان ؟**

وجاءنا الرد سريعا . باب العنبر يفتح فجأة وصوت الســـجان يصيح بأعلى صوته :

— **انتبـــاه .**

وانتباه تعني أن يستعد المسجونون لاستقبال شـــخصية خطيرة وعليهم أن يقفوا بمجرد ان يفتح باب الزنزانة ويصيـــح السجان بنفس الـــكلمة ،

— انتبـــــاه .

ومن ثقب **الزنزانة** رأينا همت تحوط به مجموعة من الضباط والافندية **والكلبان والملازمان** له دائما يسيرون داخل العنبر ويطلون بسرعة على الزنازين التى نعيش فيها . توقفت الاقدام الكثيرة عند **زنزانتنا** ، ثم سمعنا صوت المفتاح يوضع فى باب الزنزانة . يفتح باب الزنزانة وصوت يرتفع عاليا يكاد يصم الآذان :

— انتبـــــاه .

ووقفنا متحفزين . صوت ناعم أملس يصدر عن همت :

— عاملين ايـــــه ؟

— مســـــجونين .

يضحك بصوت عال ثم يلتفت الى قائلا :

— أهلا .. ازيك من مدة لم .. أرك .
— فعلا .. من سنوات طويلة .
— لكن دايما بأسأل عنك .
— شـــكرا .

تبدو علامات الدهشة على مرافقيه . انه يتكلم معى بطريقة لم يعهدها احد منهم فيه . لكن الزملاء كانوا يعرفون . فى عامى **١٩٥٠و١٩٥١** كنت موظفا مدنيا فى وزارة « الحربية والبحرية » — «الدفاع» حاليا — والتقيت مرات عديدة بحكم عملى هذا **باللازم اسماعيل همت** وكان يعمل بديوان الوزارة . ونشأت بيننا علاقات زمالة العمل ، وفى بعض الاحيان كان يشترك مع الموظفين فى مناقشات سياسية عامة . وبعد أن ألقى القبض على فى **يوليو ١٩٥٢** بحوالى أربعة أشهر جاءوا به من الجيش وعينـــوه وكيلا **لمأمور سجن مصر** . وذات يوم وكنا فى طابور الصباح جاء من ينادى على فقد جاءتنى زيارة خاصة . وذهبت مع السجان الى مكتب الضابط النوبتجى الذى تتم فيه الزيارات الخصوصية عادة . لـــكن السجان قال لى أن الزوار فى مكتب المأمور . وفوجئت به يقف على باب مكتبه ويعانقنى ويقول :

— عرفت من الوزارة بخبر القبض عليك .. وكنت انوى زيارتك .

حسبت انه جاء كزائر مع زوجتى السابقة واخى فقلت :

— ليـــه تتعب نفسك .. ازى الموظفين زملاءنا ؟
— كلهم بيسلموا عليك .. وكلهم مفاجئين .
— وانت لسه فى ديوان الوزارة .

ادرك اننى لم أعرف بعد أنه **وكيل المأمور** فقال ضاحكا :

— جابونى هنا وكيلا لمـــأمور السجن .

قلت ضـــاحكا :

— تبقى الحبسة احلوت .
— اى خدمة انا زى اخوك .
— شـــكرا .

وبدات الزيارة لتستمر اكثر من ثلاث ساعات والمفروض أنها لاتزيد عن نصف ساعة . ترك مكتبه طول مدة الزيارة ولم يكن معنـــا سجانا ولا ضابطا كما يحدث دائما . كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة بعـــد الظهر حين عاد الى مكتبه . قال :

— لو ماكانش عندى مشوار كنت خليتهم قاعدين معاك .
— شكرا .. دى زيارة عال جدا .

ثم نادى على السجان وقال له :

— خد الاكل والسجاير وكل الحاجات دى طلعها فوق فى زنزانته .

ثم وجه حديثه للزوار ، قائلا :

— اى حاجة عاوزين تدخلوها له .. أنا فى الخدمة .

وبعد أن انصرفوا طلب منى الانتظار وجرى بيننا حديث .

— قرأت تصريحات **فتحى رضوان** ؟ . سيفرج عن كل السياسيين .
— أفرجوا عن الجميع عدانا ..
— مش عملتوا تظلمات زى **القانون** ما بيقول ؟
— أيوه عملنـــــا ..
— ان شاء الله خير .

ثم بدأ الحديث يتطرق الى مهمته فى السجن . الجيش ينوى اصلاح السجون ليكون شعارها « تأديب وتهذيب واصلاح » شعار حقيقى وليس شعارا مجردا .

— كيف ؟
— أنا عضو فى اللجنة العليا لاصلاح السجون وقـــد قدمت مشروعا لعملية الاصـــلاح .
— مثـــلا ؟
— عمـــل **كانتين** فى السجون تباع فيـــه القهوة والشاى والمرطبـــات والسجاير وبعض المـــأكولات . الغاء الزيارة العادية غيرالانسانية وجعـــل كل الزيارات مثل الزيارات الخصوصية . السمــــاح للمسجون بعـــد مدة معينة ولحسن السير والسلوك بزيارة أهله فى منزله مرة كل شـــهر على الاقل . الغاء القيود الحديدية للمحكوم عليهم بالاشغال الشاقة والغاء العمل فى تكسير الاحجار . حياة انسانية معقولة للمسجون داخل الســـجن . فى نومه ، وأكله ، وشربه . والغاء السابقة الاولى حتى لا يعود المفرج عنـــه الى الجريمة .

— عظيم جدا .. هل نوقش هذا المشروع ؟
— بدأنا فى مناقشته .. لكنه يواجه بمعارضة شديدة .
— من من ؟
— من ضباط السجون القدامى .. ومن بعض رجال القانون الرجعيين .
— وهل ترى امكانيـــــة تنفيذه ؟
— ده مشروع الجيش وهو مصر على ذلك .
— وبالنسبة للمسجونين السياسيين .. مفيش أى حاجة ؟
— عندك اقتراحات ؟
— السماح بالصحف والكتب ومعاملة حرف أ للجميع بصرف النظر عن وضعهم الاجتماعى .
— ممكن تكتب لى مذكرة ؟
— قوى . بس ماعنديش ورقة ولا قلم ..

فقال ضاحكا :

— أيوه ماهى ممنوعات ..

وناولنى قلم حبر وكمية من الورق ، الفولسكاب : وقال :

— عاوزها بكره ؟

ولاكثر من ستة شهور كان **المأمور اسماعيل همت** يحظى بحب كل المسجونين . فقد كانوا يعرفون أنه «يناضل» من أجل تحسين حياتهم داخل السجن . ولقد استطاع بالفعل أن يحقق بعض المطالب ، مثل : عمل كانتين فى كل سجن ، **السماح بشرب السجاير** ، والغاء القيود الحديدية ، ومعاملة المسجونين السياسيين تحت التحقيق معاملة حرف أ بصرف النظر عن انتماءاتهم الاجتماعية . وكانوا قبل ذلك يفرقون بين المثقفين الذين يعاملون معاملة حرف أ وبين العمال الذين يعاملون معاملة حرف ب . وأصبح الجميع يتمتعون بامتيازات أهمها : النوم على **سرير** وليس على **برش** ، طعامهم من **متعهد** وليس من **السجن** ، حقهم فى قراءة الصحف والكتب المسموح بها .

اذكر انه يوم تقرر السماح **بشرب السجاير فى أواخر عام ١٩٥٢** كان عيدا لكل المسجونين . جمع همت المسجونين ووزع على كل منهم سيجارة ليدخنوا . وكانت سعادتهم لاحد لها فقد كانوا غير مصدقين . ويومها ثارت مشكلة :**الكبريت غير مسموح به ، فكيف يشعل المسجون السيجارة** ؟ رأى مصلحة السجون أن لا يدخن المسجون الا اثناء الفسحة اليومية ، صباحا ، وبعد الظهر ، ويقوم السجان بمهمة اشعال السجاير . وكان همت يرى أن يسمح بالكبريت وانتصر رأيه فى النهاية .

لم يكن من الغريب أن يعتبر المسجونون همت رجلا مصلحا فكانوا يحبونه . فهو لم يحقق لهم هذه المطالب التى كانت حلما بالنسبة لهم فقط ، وانما الغى الى حد كبير أنواع الاهانات التى كان المسجون يلقاها يوميا ، مثل الضرب ، والسباب ، والتفتيش اللاانسانى . وكان الرجل معنا لطيفا وانسانا ، كانت كل الزيارات الخصوصية التى تأتى الينا يسمح لها بوقت اضافى . وفى الزيارات العادية كان يخصص وقتا لنا وحدنا . وكان يسمح لنا بادخال الكتب المتداولة فى السوق وبادخال الطعام . وخلال هذه الفترة نشأت بينى وبينه علاقة كنت أحس من خلالها احتراما لنا وتقديرا . وكان لا يزعم أنه يعرف فى السياسة وكان لا يرد على ملاحظاتى السياسية عن الحكم الا بقوله انه لا يفهم فى السياسة ، ويؤمن بأن له رسالة اصلاح فى السجون وليست له رغبة الا أن يحققها .

وفجأة نقل من سجن مصر ، وسمعنا أنه عاد الى **الجيش** فى أوائل عام ١٩٥٤ ، واستنتجنا يومها أن ضباط السجون القدامى هم **الذين** ضغطوا لابعاده لانه على الاقل تسبب فى قطع مورد أساسى من موارد رزقهم ، فقد كانت السجاير والاطعمة التى أصبحت تباع فى الكانتين تجارة يربحون منها الكثير فى **السوق السوداء للسجون** .

والتقيت به مرة ثانية فى **أوائل عام ١٩٥٧** فى سجن مصر وكنت قد رحلت اليه من سجن «جناح» للعلاج ، وكان هو قد عاد اليه مأمورا .

ورأيته فى حوش السجن أثناء فسحة **الاخوان المسلمين** حيث كنت أقيم فى عنبرهم ، كان فى يده كرباج وحوله عدد من الضباط والسجانة ، واذا به ينهال على بعض الاخوان بالضرب دون أى مبرر ، ويسبهم بأبشـع الشتائم . فوجئت به شخصية أخرى تماما غير تلك التى عرفتها فى سجن مصر عام ١٩٥٢ . لمحنى من بعيد واقفا ولم أجلس «ديز» مع الاخوان . والمعتاد فى السجون أن المسجونين يجلسـون «ديز» كلما مر ضابط أو مأمور ، أو اذا أراد الحديث معهم . نحن فقط منذ دخلنا السجون الذين لم ننفذ هذا وقاومناه بشدة ، فقد كنا نرى فيه نوعا من المهانة لم نرضها لانفسنا وحين لاحظ عدد من **السجانة** انه ينظر الى هجموا على حتى أجلس «ديز» ولمـا رفضت تقدم نحوى مبتسما وهو يمد يده للتحية بين دهشة الموجودين من الضباط والسجانة والمسجونين ، وقال :

— **أهلا .. انت هنا ليه ؟**
— للعـلاج .
— افتكرت افراج .
— ازاى بقى ؟
— انتم محل تقدير .. انتظروا اخبار هامة .
— نأمل .. هل تسمح لى بكلمة ؟

انتحى بى جانبا وبعيدا عن الحاضرين ، قلت :

— **انت تغيرت كثيرا ..**

ابتسم ، قال :

— ايه اللى اتغير فيـه ..
— **معاملتك للاخوان المسلمين .**

قال بصوت غاضب :

— أولا : دى أوامر .. وثانيا : أنا بطبيعتى لا أحب الاخوان .
— كانت معاملتك لنا انسانية ، رغم الاوامر ورغم عدم اتفاقك معنا .

وكان رده غريبـا :

— بالنسبة للاوامر .. فقد كنتم تقاومونها وكنت التمس من مقاومتكم حجة .. ولم أكن متفقا معكم .. ولكن لم اكن معاديا لكم .

وكانت هذه هى المـرة الثالثة التى التقى فيها مع **اسماعيل همت فى نوفمبر ١٩٥٨** ، وكان قد أصبح **مديرا عاما لمصلحة السجون** منذ شهور . وبعد أن تبادلنا تلك الكلمات القليلة . انصرف ومن معه من العنبر ، ثم من السجن ، وعاد الى القاهرة ، ثم رأيناه بعـد ذلك فى **مايو ١٩٥٩** مرة رابعة فى سجن **« المحاريق »** يشرف على أكبر عملية تنكيل بزملائنا الذين عليهم قبض فى **أوائل يناير ١٩٥٩** .

كانت زيارة **اللواء اسـماعيل همت** اذن خاصـة لارهاب الاخوان المسلمين . يبدو أن الخلافات التى لاحت بوادرها منذ **ثورة العراق فى**

يوليو عام ١٩٥٨ بين زملائنا فى الخارج وبين **الحكومة الوطنية** ، لم تصل بعد الى حد يجعلهم ينكلون بنا . ولكن نحن نقاوم هذا الاسلوب الارهابى اذا وقع علينا ، ونستنكره اذا وقع على غيرنا ، وقد سبق أن أرسلنا من «جناح» استنكارا للمذبحة التى **قتلوا فيها ١٣ أخا فى ليمان طره** . وقررنا أن نكتب للمسئولين مذكرة نستنكر فيها هذا الارهاب الوحشى للاخوان والذى يتعارض مع أبسط الحقوق الانسانية التى أقرتها المواثيق الدولية.

ومضى على انصراف **اسماعيل همت** اكثر من ساعتين .. لكن الزنازين ظلت مغلقة علينا . كنا خلالهما ننادى على السجان ليفتح لنا الزنازين فيقول بأنه ليست لديه أوامر بذلك . أخذنا ندق بأيدينا على أبواب الزنازين ، كى تصل أصواتنا الى المأمور أو الضابط ، واستمر دقنا يعلو ويعلو حتى جاء ضابط العنبر :

— ليه الزنازين مقفولة ؟
— ليس عندى أوامر بفتحها .
— وهل عندك أوامر باستمرار اغلاقها ؟
— لا ..
— اذن افتح .
— لما المأمور يصدر أوامر ..
— اظن الاوامر عادية .. طالما ماعندكش اوامر اخرى ..
— كلام منطقى بس مش راح افتح ..
— طيب نقابل المأمور ..

لا يرد وينصرف . ونعود الى الدق على الابواب ويستمر دقائق يعود بعدها الضابط ويطلب « مسئول الادارة » كى يقابل المأمور . وتبدأ متاعب من نوع جديد . أحكى لك عنها فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى.

١٠ أغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـــالة رقم (٤٥)

حـــــــبيبتى :

لم تسفر المناقشة بين **مأمور السجن** وبين زميلنا « مسئول الادارة » حول طريقة معاملتنـــــا فى السجن بعد حملة **همت الارهابيـــة للاخوان المسلمين** الا عن المعـــاملة نفسها التى يعاملوا بها الاخوان ، ففى حين أصدر تعليمات محددة بشأن معاملة الاخوان ، فانه لم يقل شيئا محددا عن معاملتنا واكتفى بكلمتين : **طبق النظام .**

— اذن لا جديد بشأن معاملتنا .

ويرد المـــأمور :

— بل هناك جـــــديد .
— ماهـــــو ؟
— النظـــــام .
— منذ جئنا هنا ونحن نطبق نظاما .
— لم يكن نظاما بل اتفاقا بيننا .
— كان اتفاقا حول نظام .
— بل كان اتفاقا حتى نعرف النظام .
— وكيف نعرف النظام ؟
— من الاوامر .
— وهل وصلتك أوامر محددة بشأننا ؟
— عندى أوامر بشأن معاملة الاخوان المسلمين .
— وبالنسبـــــة لنا ؟
— أمرنى بتطبيق النظام .
— اى نظـــــام ؟
— النظام الذى يطبق على الاخوان المسلمين .
— كيف ولم تصدر لك أوامر بالنسبة لنا مماثلة لتلك التى صـــــدرت بالنسبة للاخوان ؟
— ولم تصدر أوامر أخرى بالنسبة لكم .
— اذن يستمر الوضع حتى صدور أوامر اخرى .
— ربما يحملوننى المسئولية بعد ذلك .
— وهل تتحمل مسئوليـــــة تطبيق نظام علينا لم تصدر لك أوامر به ؟
— الاخف ضررا بالنسبة لى .
— وربما يكون العكس .
— أملك ما أدافع به عن نفسى .
— قلت انك لا تملك أوامر بالنسبة لنا .

— أملك تفسيرا لكلمتى : طبق النظام .
— والنظام هو الذى يطبق على الاخوان ؟
— بالضبط ..
— ولكنك غير مقتنع بهذا التفسير .
— صحيح .. ولكنه ينقذنى عند اللزوم .
— وأين تذهب من ضميرك ؟
— وماذا يفعل الموظف غير ذلك ؟

ووجدنا أنفسنا فجأة بين **شقى الرحى** ، زملاءنا فى السجن الذين كنا دائما منذ التقينا بهم فى **ليمان طره** نتفق معهم على مواقف واحـــدة ، غير مستعدين للمقاومة حتى لا نستفز « الحكومة الوطنية » ويتعطل الافراج عنهم ، وقيادتنا فى الخارج تحاول الضغط على « الحكومة الوطنية » من خلال توثيق علاقتها **« بالاشقاء » فى سوريا وفى العراق** ! وعبثا راحت كل محاولاتنا للاتفاق مع « المقتنعين بالافراج عنهم » حول موقف واحد نتخذه ضد النظام الجديد الذى يريد المــأمور فرضه علينا فى السجن . حتى لقد وصل بهم الامر الى أنهم رفضوا الاشتراك معنا فى كتابة مذكرة الى الجهات المسئولة حول هذا الموضوع . وكان من العبث أن ننفـــــرد باتخاذ موقف .

سألناهم : ماذا يكون موقفكم لو **أضربنا** عن الطعام مثلا ؟

قالوا : لن **نتضامن** معكم .

— نعرف .. لكن نحتاج الى مساعدتكم على الاقل .
— لن نساعدكم .. وانما سنقاومكم ..
— تقفون مع ادارة السجن ؟.
— انه موقف مع « الحكومة الوطنية » .
— وتقبلون التنكيل بنا ؟
— لن نستنكره .
— حتى لا يتعطل الافراج عنكم ؟
— حصلنا على وعد بالافراج وسنقاوم كل من يعمل على تعطيله .
— ربما كان مثل وعودهم السابقة ؟
— أخطأنا حين اتحدنا معكم ومع الآخرين .
— كان هذا سبب نقض الوعود ؟
— طبعـــــــا .
— وهذه المرة لن يخلوا بوعدهم ؟
— ولــماذا يخلون بوعدهم وقد أصبحت الامور واضحة .
— مؤيدون .. ومعارضون ؟
— بالضــــــبط .
— لكنا مازلنا مؤيدين .
— وهم يرون انكم معارضون .
— وأنتم ماذا ترون ؟
— نرى ان تأييدكم للحكومة الوطنية شكلى .

— الموقف من الوحدة المصرية السورية ، والموقف من ثورة العراق..
خلاف سياسى .
— خلاف جوهرى يضعكم مع المعارضة .
— أنتم اذن متفقون مع « الحكومة الوطنية » فى كل شىء .
— فى كل شىء .
— وماذا عن الديمقراطية ؟
— تحل بالافراج عنـــــا .
— حتى ولو لم يفرج عنا ؟
— انتم معارضــــون .
— والديموقراطية تلغى المعارضة ؟
— المعارضة تفتت الوحدة الوطنية .
— وأين قانون الوحدة والصراع ؟
— داخل الجبهة الوطنية .
— والجبهة أحزاب .
— حزبنــــا موجـــــود .
— ومعترف به ؟
— سيعترفون بنـــا .
— أهو اعتراف بنشاط يحرمه القانون ؟
— اعتراف بنا .
— والآخرون ؟
— اذا تخلوا عن معارضتهم .
— والقوى الوطنية الاخرى ؟
— اذا ايدت الحكم الوطنى .
— والاحزاب الوطنية ؟
— الظروف الموضوعية لا تسمح .
— تسمح لكم فقط ؟
— هى الديموقراطية الموجهة .

لم يكن أمامنا اذن سوى أن نتقبل تطبيق **« النظام »** كما يطبق على **الاخوان المسلمين** وكان زملاؤنا « الذين ينتظرون الافراج » أكثر حرصا على تطبيقه حتى لا **«يخدش»** الحكم الوطنى أى «خدش» يصيب كبرياءه فيتراجع عن وعده لهم « بالافراج عنهم والاعتراف بهم » .

ومرت بنـــا **ثلاثة أشهر** كانت من **أســوأ** الايام التى شـــهدناها فى السجون . **الزنازين** مغلقـــة طول النهار ولا تفتح الا ربع ساعة فقط فى الصباح ، واحدة بعد الاخرى ، وحرارة شمس أكتوبر ونوفمبر وديسمبر لا تصل الى أجسامنا التى تصلبت من البرد القارص . الكتب والصحف ممنوعة منعا باتا . الخروج الى العمل فى مزرعة الســــجن أو الورش والمطبخ والمخبز ممنوع تماما . **وفرن الخزف** اصبح كوما من الطين ، ولكنا كنا على صلة بالعالم الخارجي من خلال راديو صغير كنا نستمع اليه فى المساء فى ظل حراسة مشددة . الزمـــلاء يتناوبون الوقوف على باب الزنزانة ينبهون الزميل الذى يضع سماعة الراديو فى أذنه عند قدوم أى

انسان الى **الزنزانة** . فقد كان **التفتيش** علينا يجرى فى أى ساعة من ساعات الليل أو النهار . وكان المأمور الذى أطلقنا عليه اسم **((الشواف))** لا يتوقف عن حملاته التفتيشية ليلا ونهارا . حتى أن زملاءنا « المؤيدين » غضبوا لهذه التسمية .

كان عددنا لا يزيد عن الثلاثين زميلا ، كل عشرة فى **زنزانة** وكانوا هم يتجاوزون هذا العدد بقليل . كانت امكانياتنا المالية التى تسمح لنا بالشراء من الكانتين ضعيفة جدا ، وكانت امكانياتهم كبيرة جدا . وقد تدهورت صحتنا الى حد خطير حيث كان اعتمادنا الاساسى على غذاء السجن من **((السوس المفول))** والعدس و **((الاعشاب))** التى تطبخ ويطلقون عليها اسم «خضار» وقطعة اللحم التى عجزت أسناننا عن مضغها بعد أن فقدت «الكالسيوم» مصدر صلابتها . وذات نهار سقط منا زميلان **(نبيل حلمى — ووليم اسحق) من الاعياء** ، الاول كان مريضا بالكبد والثانى مريض بصدره ، والاثنان لا تصل الى أمعائهما طعام يقاومان به المرض ، ولا يتناولان الادوية الضرورية ، ووجدنا أنفسنا فى وضع لا يمكن السكوت عليه ، طلبنا من السجان أن يبلغ المأمور بحالة الزميلين فرفض لان عنده أوامر صريحة بأن لا يذهب اليه مهما كانت الاسباب :

— ياشاويش دول راح يموتوا ..
— لما يموتوا يحلها ربنا .
— انت مش بنى آدم ؟
— بنى آدم لكن عندى أوامر .
— طيب نادى على الضابط نكلمه .
— لما ييجى مكتبه فى العنبر .

وكالمجانين ، يدق بعض الزملاء على باب الزنزانة ، ويدق الآخرون بغطيان الجرادل وترتفع أصواتنا عالية ويشاركنا زملاؤنا فى **الزنازين** الاخرى ولا مجيب .

ويتضاعف جنوننا ويتضاعف دقنا على الابواب وعلى الجرادل ، وتتضاعف أصواتنا ، وفجأة نسمع أقداما كثيرة تدخل العنبر وتقف أمام زنازيننا . ويفتح باب الزنزانة لنجد المأمور **((الشواف))** على رأس عدد كبير من السجانة الذين يحملون **العصى والكرابيج** يقول :

— ده تمرد فى السجن .
— سميه زى ما انت عاوز .
— عارفين عقوبة التمرد فى السجن ؟
— لن تكون اسوأ مما نحن فيه .
— يزيد عليها الجلد .
— ولو ..
— وعاوزين ايه ؟
— طبيب السجن .

ــ ودي تستحق كل الهيصة دى .. ؟
ــ اسأل سجانتك

يرى الحالة التى عليها الزميلان ، يصفر وجهه :

ــ مالهم ؟
ــ زى ما انت شايف .
ــ من امتى ؟
ــ من ساعتين على الاقل .

ويلتفت الى السجان ويقول له بصوت غاضب :

ــ ليه ما قلتش للضابط ؟
ــ لسه ماجاش .
ــ ليه ماجيتش ليــــه ؟
ــ لان الضابط ماجاش .
ــ يا « .... » كان لازم تجيبنى ..
ــ ماعنديش أوامر ..
ــ اوامر من مين ؟
ــ اوامر سيادتك .

واتدخــــل :

ــ اظن الافضل تنادى على الطبيب .
ــ لسه ماجاشى .
ــ خللى الدكتور شريف حتاتة يشوفهم .
ــ ده مسجون .
ــ طبيب مسجون .
ــ دى مسئولية .
ــ ايهما اخطر .. موت اثنين « من العهدة » او مسجون يكشــــف على مسجون .
ــ تســـخر ؟ .
ــ ولا اتوقف .

ويتجه الى الزنزانة المجاورة ينادى على الدكتور شريف الذى يأتى الى زنزانتنا بأمر « **الشـــواف** » يجس نبض وليم اسحق ثم نبيل حلمى ، ويقول :
ــ حالة اعيــاء شديدة .. يلزمهم اسعاف سريع .

ويذهب مع احد الضباط الى العيادة ويعود معه طبيب الســجن الذى حضر منذ دقائق وبعض الادوية ، ويأمر **الطبيب** بنقلهما الى **مستشفى السجن فورا** . ونصر على أن يذهب معهما « مسئول الادارة » وانا حتى نطمئن عليهما ، ويوافق المــأمور مضطرا ، ليس بدافع من انسانيته التى فقدها ، ولكن بدافع الخوف من **المسئولية** ! وبعد أن يقوم الطبيب باسعافهم .. نسأله :

— الا تشعر بأن عليك مسئولية ؟
— مسئوليتى أن اعالج من يأتى الى العيادة من مرضى .
— عليك مسئوليات أخرى .
— وهل يملك الطبيب غير العلاج ؟
— الوقاية قبل العلاج .
— مثـــلا ؟
— الشمس .. نحن لا نرى الشمس منذ ثلاثة شهور .
— هذا نظام السجن .
— ربما لم تعمل قبل ذلك فى السجون ؟
— هذه أول مرة .. ولكن لمـــاذا ؟
— وحديث التخرج ؟
— ثلاثة أعـــوام فقط .
— لا تعرف واجبات طبيب السجن ؟
— ما هى .. غير العلاج ؟
— هى مثل واجبات وكيل النيابة .. الاشراف على تنفيذ العقوبة .
— وما وجه الشبه ؟
— الاشراف على صحة المسجون .
— كيف ؟
— حق المسجون فى **«طابور»** الشمس صباحا وبعد الظهر ، الكشف على الطعام قبل وبعد طهيه وتوزيعه . مراقبة توزيع الطعام الخ.

ويتدخل المـــأمور :

— السيد الطبيب عارف واجباته كويس .

ويقول الطبيب الشـــاب :

— لا والله يا سيادة المـــأمور لم اكن اعرفها .

ويرد عليـــه بغضب :

— طيب اديك عرفتها .

ويجيبه بتحدى :

— وسأنفذها حرفيـــا .

ويلتفت الينا ويسأل :

— ما هى أهم طلباتكم الآن .
— طابور الشمس .

ويكتب الطبيب فى دفتر «العيادة» ان صحة الزميلين تعرضـــت للخطر بسبب عدم الحركة وعدم تعرض اجسامهما **للشمس** . وانه قد اكتشف اننا محرومون من **طابور** الصباح **وطابور** بعد الظهر . ويأمر بهما فورا ، وانه لا يتحمل المسئولية بعد ذلك .

كان الطبيب يقـــرأ كل كلمـــة يكتبها كى نعرف قراره . ويقـــول **« الشواف »** :

— ده نظام السجن ومش ممكن أغيره .

ويرد عليه الطبيب :

— وسأرسل للادارة الطبية فى مصلحة السجون .
— الادارة الطبية لا تعطينى أوامر .
— وأنا لا اتبع الا الادارة الطبية .
— وأنا لا اتبع الا مدير المصلحة .

— سأكتب مذكرة حالا عن حالة المسجونين هنا .. ورفض توصيتى بضرورة الطابور لهم .
— ولن أنفذ توصيتك الا بأوامر من أعلى .

الاوامر ؟

ـاب نظرات **انسانية** وهو يقو

بنيه وهو يقول للمأمور :

أطلب التحقيق .

ومعنا طبيب السجن الشاب
بوعا نخرج فى نهايته من ظلا
ة بعد **ثلاثة شهور** نور النهار
ـاير القارص أن يجمدها .

فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى

١٨ أغسطس ١٩٧٧ . الث

الرســـــالة رقم (٤٦)

حــــــبيبتى :

لم يكن **الطبيب الشاب** بالفعل يعرف واجباته كما يحددها **القانون** . فقد شاء حظه العاثر ان يبدأ عمله فى مصلحة السجون وفى ســـــجن **((المحاريق))** بالذات ، وبعد حملة **((همت))** على الاخوان المسلمين بحوالى شهر . افهموه أن واجباته تنحصر فى الحضور الى السجن لمدة نصف ساعة صباح كل يوم ليكشف على المرضى الذين يأتون اليه فى العيادة ويعطيهم عند اللزوم شيئا من تلك ((**الزجاجات**)) التى على الرفوف فى العيادة ، او بعض **((الاقراص))** من تلك **((العلب))** الصفيح . كان كغيره من خريجى الجامعات الذين يواجهون الواقع لاول مرة بعد تخرجهم ، ولا يعرفون كيف يتعاملون معه . وتختلف ردود فعلهم مع هذا الواقع الذى تختلف صورته عن تلك التى رسمتها لهم **الصحافة وأجهــزة الأعلام :** وردية ، مشرقة ، ويرونها سوداء ، مظلمة ، بعضهم تحركه دوافـــــع ذاتية فينتظمون سريعا فى موكب الانتهازية والوصولية ، « واهو كله كده» وهذا «اسهل طريق» . والبعض الآخر تعوق حركتهم فى صعود «السلالم قفزا » مبادىء ومثل مازالوا يعتزون بها ، فقد ورثوها عن آبائهم **واجدادهم،** او اكتسبوها من بيئاتهم الشعبية ، فيقفون فى انتظار صعود السلالم درجة بعد اخرى كما ينص قانون العاملين ، يكتفون بمرتبهم الهزيل ، ويرفضون المـــال الحرام ، مع ان الحكاية **((آخر سيبان))** فالقناعة كنز لا يفنى ، وفى ((**الشرف**)) راحة البال . حتى أولئك الذين كانت لهم اهتمامات فكرية وسياسية خلال دراستهم فى الجامعة ، يرون صورة الواقع غير تلك التى رسمتها لهم تحليلاتهم التقليدية .فيحاولون تغييرها بتطوير تحليـــــلاتهم وبتحـــديهم واصرارهم ، وهؤلاء يهـــددهم شـــبح **الســجن** او الاعتقال حينا ، وشبح **الموت** جوعا حينا آخر . بعضهم يصمد ويتحدى ويقاوم ، والبعض الآخر يقع فى هاوية السلبية وشعاره **((لن أغير الكون وحدى))**.

وطبيبنا الشاب من النوع الثانى ، كان اصغر أخوته الاربعة وهو الوحيد الذى اكمل الدراسة الجامعية بفضل **مجانية التعليم** ، فلم يـــكن أبوه موظف الارشيف « درجة خامسة » بعد ٣٠ سنة خدمة قادرا على مصاريف الجامعة لاخوته الذين يكبرونه ، فاكتفوا بوظائفهم الصغيرة بعد حصول اثنين على « البكالوريا » والثالث على دبلوم الصنايع . خـــلال دراسته فى الجامعة لم تكن له اهتمامات سياسية لكنه كان يشعر بالامتنان للثورة التى هيأت له فرصة اكمال دراسته الجامعية ولا يستطيع الا أن يتعاطف من بعيد مع شعارات الحرية والدستور والديموقراطية والمطالب الاجتماعية . وكان يرى ان **الثورة** التى حققت مجانيــــة التعليم واتاحت لامثاله من **ابناء الفقراء** ان يكمل تعليمه لابد وان تحقق كل هذه الشعارات.

حتى تخرج من كلية الطب ليبدأ حياته فى ممارسة المهنة على المسجونين، وفى سجن **((المحاريق))** الذى يضم أعدادا من المسجونين السياسيين اخوانا مسلمين وشيوعيين ، وبعد حملة **((همت))** الارهابية ، صدمته الحقيقة المؤلمة . هؤلاء المسجونين لماذا يعارضون الثورة التى جعلت منه طبيبا ، وكان هذا بالنسبة له **حلما مستحيلا** ؟ ولمـــاذا تعاملهم **((ثورة))** مجانية التعليم بهـــذا الاسلوب المنافى لابسط الحقوق الانسانية ؟ وكان من المستحيل أن يعثر وحده أو من خلال موظفى السجن وضباطه ، أو من زملائه من موظفى ومهندسي واطباء محافظة الوادى الجديد ، والذين يلتقى بهم فى النادى ، على اجابة لهذين السؤالين ، قالوا له **((مالك والسياسة))** وقالوا له ، **((خليك فى حالك))** وقالوا له **((قم بواجبك كطبيب وبس))** .واختار القول الثالث . سيقوم بواجبه الذى يمليه عيه شرف المهنة ، التى يحترم قسمها . وظل لمدة شهرين منذ جاء الى سجن «المحاريق» لم يكشـــــف خلالهما الا على أربعة مرضى من المسجونين العـــاديين وقام بعلاجهم ، وطوال هذين الشهرين لم يكشف على مريض واحد من **المســـــجونين السياسيين** . كان يفهم واجبه كما قال له المـــأمور ، بأنه ليس عليه الا ان يذهب الى عيادة السجن صباح كل يوم ليكشف على من يأتى اليه من المرضى . وظل هكذا حتى عرف ماهى واجباته ، عندما اضطر أن يأتى به ليجرى الكشف على الزميلين الذين حدثتك عنهما فى رسالتى السابقة . ومن خلال مناقشتنا معه دخل الطبيب الشاب معركته جانبنا ضد المـــأمور الذى خدعه طوال هذين الشهرين . بدأها بالبرقيـــة التى أرسلها الى الادارة الطبية بمصلحة السجون يطلب فيها التحقيق مع المأمور الذى يحرم **المسجونين** حق الحركة وتعريض أجسامهم **للشمس** خلال طابورى الصباح وبعد الظهر ، وأورد بالبرقية المادة التى تنص على هذا الحق . ثم عكف الليل طوله على دراسة **لائحة الســـــجون** ليعرف بالدقة ما هى واجباته كطبيب فى السجن .

فى صباح اليوم التالى عرف ان المـــأمور لم ينفذ توصيته بضرورة خروجنا فى طابورى «الفسحة» ، لم يناقشه وبدأ يقوم بواجباته الاخرى . ذهب الى المطبخ فوجد أنه غير مستوف **للشروط الصحية** ، وزن اللحم فوجد أنها أقل **من المقرر** ، وذهب الى المخبز وسجل ملاحظاته ، ثم وزن رغيفا من الخبز فوجده أقل من المقرر . طاف بالعنابر ودخل دورات المياه فوجدها لا تتوفر بها أبسط الشروط الصحية . وعاد الى بيته فى الظهر ليكتب مذكرة الى الادارة الطبية بمصلحة السجون ، وعاد بعد الظهر مرة أخرى الى السجن وطلب من المـــأمور اجراء الكشـــــف الطبى على كل **المسجونين** . واعترض المـــأمور ، فالكشــــــف الطبى لا يجرى الا على المرضى منهم ، وأصر على طلبه . فسأله المـــأمور :

— لمـــاذا تصر على طلبك هذا ، تتحدانى ؟
— اللائحة هى التى تتحداك .
— وما دخل اللائحة ؟
— ربما كان هناك مرض معد بينهم .
— اذا ظهر يحلها حلال .

— الوقاية تنص عليها اللائحة .
— الوقاية التى تعنيها اللائحة هى النظافة والشروط الصحية والطعام .
— هذه كلها سجلت عليها ملاحظاتى .
— هنا ينتهى دورك .
— وقاية الانسان قبل كل شىء .
— اللائحة لم تنص على ذلك .
— ولم تنص على عدم اجراء كشف طبى عام على المسجونين .
— ولم تنص على ذلك .
— والوقاية كما أفهمها كطبيب تحتم ذلك .

ولا يملك المأمور غير ان يرضخ لطلب **الطبيب الشاب** الذى يبدأ فى الكشف الطبى على المسجونين ، ويبدأ بنا واسمع منه وهو يجرى الكشف على هذا الحوار الذى جرى بينه وبين المأمور منذ اقل من ساعة. يقول لى بعد أن يجرى على كشفا طبيا كاملا ، بالسماعه ، ومقياس ضغط الدم ، فى صوت ودود :

— صحتك كويسة ..
— الحمد لله .
— اكتب لك علاوة طبية .. حلاوة . بيض . عسل ..
— خليها لمن يستحقها .

وتبدو على وجهه علامات الدهشة :

— ترفض طعام أنت محروم منه ؟
— ليأخذه من يحتاجه .
— ويقول بخجل ملحوظ :
— ممكن أعرف ، أنت مسجون بقالك قد ايه ؟
— من قبل ما تقوم الثورة .

يهب واقفا ويصيح :

— يعنى انت مش ضد الثورة ؟

وابتسم قائلا :

— انا مسجون قبل **الثورة** وبالتالى لم اكن ضدها .
— ولماذا لم يفرجوا عنك كما أفرجوا عن آخرين ؟
— ربما كانوا ينجمون .
— وهل تعارضها الان ؟
— من اكثر الناس دفاعا عنها .
— يسجنوك وتؤيدهم ؟
— ليست قضية ذاتية
— يحرمونك من ابسط الحقوق الانسانية وتدافع عنهم ؟
— من اجل **مصر** لا من اجلهم .

وخلال اسبوع معركته مع المأمور « الشواف » كنت أقضى معه كل يوم أكثر من ساعتين نناقش خلالهما الكثير من القضايا السياسية والفكرية . لقد أصبح صديقا لى ليس فقط بعد أن نقل من سجن « المحاريق » وانما طوال السنوات التى بقيت فيها فى السجن حتى الافراج عنى ، كنا نتراسل خلال سنوات السجن ، ولم تتوقف صداقتنا بعد خروجى من السجن حتى وقت ليس بعيدا . فقد انقطعت أخباره فجأة لسبب لا أعلمه ولن أتوقف عن السؤال عنه حتى أعرف أين هو . ربما يقرأ هذه الرسالة ان رأت النور فيحن الى ايام عزيزة مضت ويسأل عنى ، وربما أجده أمامى فجأة فى أحد شوارع القاهرة الحبيبة فارسا من فرسان الشعب . وأثق انه لم يفارق الحياة ، وأثق أيضا أنه لم يستسلم للضياع .

تسألين يا حبيبتى من أين أستمد كل هذه الثقة فيه . ورغم انك تعرفين الاجابة على هذا السؤال ، الا أننى سوف ألبى رغبة عارمة أراها فى عينيك لتسمعى صوتى من خلال كلمات تعرفين كل حروفها ، وتملكين القدرة على وضع النقاط فوق حروف قد أنسى وضعها .

خلال اكثر من **ثلاثين عاما** مضت من حياتى فى شوارع مدن وقرى **مصرنا الحبيبة** من الاسكندرية حتى أسوان ، وفى **سجون مصر وليماناتها ومعتقلاتها المختلفة** ، التقيت بالمئات من أبناء الشعب الذين تعاملت معهم جميعا . ومن خلال تعاملى معهم كنت أجد نفسى مشدودا الى أشخاص بعينهم ، وكانوا هم ايضا يجدون أنفسهم مشدودين الى ، تماما كما يجذب المغناطيس المعادن الصلبة فقط يختارها من بين كل المعادن ، ومقياسه الوحيد هو : الصلابة ، وليس غلو ثمنه أو رخصه . أحيانا يحس انسان ما بارتياح لانسان آخر عند أول لقاء ، وفى مثل هذه اللقاءات السريعة يحس الطرفان بومضات مضيئة ، ربما كانت انسانية ، وربما كانت عاطفية ، وربما كانت وجدانية ، وربما كانت الثلاثة معا ، ولا يدركان أبعادها العميقة فى اللحظة نفسها ، ولكنهما يدركانها فى لحظة من لحظات علاقتهما المشتركة ، فى هذه اللحظة يتحدد مستوى علاقتهما ، صداقة عادية ، أو صداقة حميمة ، أو حب يقف عند حدوده الانسانية ، أو يتخطاها الى حدوده العاطفية ، أو يقفز بها الى حالة الوجد .

وتجربتى مع ذلك الطبيب الشاب ، بدأت بالتقائنا الانسانى ، ووصلت سريعا الى مستوى الصداقة الحميمة ، ولم تكن معركته مع مأمور **سجن المحاريق** بدافع من مجرد احساسه بالواجب ، وانما كانت فى جوهرها بدافع انسانى عام وخاص فى الوقت نفسه . لم تكن دفاعا عن نفسه وحقه فى ممارسة علمه كطبيب فقط وانما كانت دفاعا عن **الانسان** . ولهذا لم ترهبه تهديدات **المأمور ومحافظ الوادى الجديد** واتهامهما له بعمل علاقات خاصة معنا . كما لم تخفه مذكرة أرسلها المأمور الى **مباحث أمن الدولة** ، ولا مذكرات عديدة أرسلها الى مدير مصلحة السجون . وطوال اسبوع كامل لم يتوقف عن اثبات ملاحظاته

الصحية على مرافق السجن المختلفة ، ولا عن تسـجيل توصيته بضرورة خروجنا من الزنازين للشـمس والهواء ، ولا عن مطالبـة المأمور بشراء بيض ولبن وعسـل وتمر ليصرفه لنا كى نعوض ما فقدناه خـلال الشهور الماضية . وظل يوميا يرسل برقيات ومذكرات الى الادارة الطبية يطالبها بالتدخل لحماية صـحة المسـجونين التى تتدهور لان المأمور لا ينفذ توصياته الطبية . ولم يكف يوما عن لقائى مع بعض الـزملاء للمناقشة فى بعض القضايا السياسية والفكرية ، وكان يتحدث عرضا عما يفعله من اجلنا ، ولا يقبل منا شكرا ، بل كان يغضب أحيانا اذا شكرناه ، وكان يقول لنا ، لم افعل شيئا يذكر بجانب ما قدمتموه لمصر . وعند نهاية آخر لقاء بيننـا فى سجن « المحاريق » قال ، بودى ان أصل الى مستوى اليقين كما وصلتم . وفى المسـاء بعـد هذا اللقـاء علمنا انه نقل الى القاهرة بعد أن كسب معركتـه ، فخرجنا الى الشـمس والهواء ، فى طابور الصباح وطابور بعد الظهر ، واخـذت بملاحظاته الطبية على المرافق العامة ، وملاحظاته عن وزن اللحم والخبز وتوصياته بصرف علاوات طبية لنا جميعا من البيض واللحم والعسل والحـلاوة الطحينية والتمر .

فذات يوم فوجئنـا بوصول **اللواء عبـد المنعم موسى** وكيل مصـلحة السـجون ومعه عـدد من الضـباط **ومدير الادارة الطبية** بمصـلحة السجون وعدد من الاطباء للتحقيق فيما جاء ببرقيات ومذكرات طبيب السجن الشاب وكان يوما حافلا . فى صباح ذلك اليوم لاحظ ضابط العنبر فجأة أن شعر رؤوسنا طويل بشكل غير « قانونى » ، ولخوفه من مسئولية هذا « الخرق » للقانون الذى سيكتشفه حتما وكيل المصلحة ، استدعى الحلاقين ، وفتح الزنازين ، وطلب منا المثول أمامهم كى يحلقوا رؤوسنا درجة « **زيرو** » . واتخذنا بسرعة قرارا بعـدم الحلاقة مهما كان الثمن ، وكنا على علم بوصول وكيل المصلحة ومدير الادارة الطبية وكان تقديرنا انهم حضروا كى يحققوا فى برقيات ومذكرات طبيب السجن حول ملاحظاته الصحية . وأن هذا التصرف من جانب ضـابط العنبر هو تصرف ذاتى ربمـا لا يكون للمأمور دخل فيه . وعنـد فتح أول زنزانة طلب ضابط العنبر خروج الزملاء منها ، اثنين اثنين ، للحـلاقة « زيرو » ، فرفضنا . وحين حاول ضربهما هجما عليه وكتفاه ، وتجمع السـجانة لتخليصه من الزملاء الذين التفـوا حوله ، وحدثت معركة بين الزملاء وبين السـجانة بينما أسرع الضابط وأمر البروجى بضرب **بروجى « كبسة »** . وبروجى « الـكبسة » لا يضرب الا فى حالات **تمرد** المساجين ونغماته هى : نداء لكل السجانة حتى الذين فى راحتهم بعـد العمل ، أن يأتوا فورا ومعهم **السلاح المحشو بالرصاص** للضـرب فى المليان ، اذا اسـتدعى الامر ولانهاء حالة التمرد ، وتصادف أن سمع وكيـل المصلحة عند دخوله بوابة السـجن الخارجيـة نوبة « **الكبسة** » هذه ، وفوجىء بها المأمور ولم يقدم اجابة عن سببها عندما سأله وكيل المصلحة ، فأمره بضرب بروجى « أنهاء الكبسة » ، وكان تصرفا حكيما فقد كان من الممكن أن تحدث مذبحة يروح فيها عـدد من الزملاء الذين فاض بهم فاشتبكوا ، وكانوا عشرة فقط ، مع اكثر من عشرين سـجانا

فى معركة وصلت الى لحظة كاد الضابط أن يأمر فيهـا بضرب **الرصاص** فى المليان ، لولا سماعه بروجى « انهـاء الكبسة » ورؤيته لوكيـل المصلحة ومن معه يدخلون باب العنبر بسرعة ، ويصـدر الامر للسجانة والحلاقين بالانسحاب فورا من العنبـر . ومن خلال مناقشة عاقلة بيننـا وبين وكيـل المصلحة ، وبعـد أن أصدر أمرا بفتح كل **الزنازين ،** عرف كل شىء ، تعبيرات وجهـه حين رآنا كانت تدل على أنه لا يصدق ما يراه ، آدميـون اقرب الى الهياكل العظمية ، بعضنـا يـكاد يسقط من الضـعف ، الصفرة تكسو وجوهنا ، لكن ارادة التحـدى تكسب عيوننا بريق الاصرار ، ذلك الذى كان زملاؤنا العشرة يستمدون منه موقفهم فى معركتهم مع ضابط العنبر وسجانته . قال وابتسامة ودودة تكسو وجهه :

— ممكن تعطونى فرصة للمناقشة معكم ؟
— نرجو أن تكون قد جئت قبل فوات هذه الفرصة ؟
— ربما جئت فى الوقت المناسب .
— نرجو ذلك .

وينصت الرجل الى حديثنا اكثر من ساعة كاملة . نلاحظ خلالها تعاطفا معنا فى بريق عينيه ، وفى تعبيرات وجهه ، واحيانا من خـلال بعض النظرات الغاضبة الى المأمور ، ونظرات أخرى الى ضـابط العنبر . وينصرف وكيل المصلحة والمأمور وطبيب السجن الشـاب ومن معهم دون أن يعلق بلسانه ، لكن تعبيرات وجهه وبريق عينيـه تقول : قلبى معكم ، سأحاول أن افعل من أجلـكم شيئا . وفى مساء اليوم نفسه علمنا بصدور امر وكيل المصلحة بنقل المأمور « الشواف » ونقل الطبيب الشاب الى القاهرة . وفى صباح اليوم التالى ، فتحت كل الزنازين ، بعد أن كانت تفتح واحدة بعد الاخرى لمدة ربع ساعة ، وحصلنا على حق الخروج فى طابور الصباح لمدة ساعتين ، وطابور آخر بعد الظهر لمدة ساعتين ، كما سمح لنا بالخروج الى مزرعة السجن والى مرافقه العامة، كما صدر الامر باعادة تشغيل الفرن .

وبعد أقل من أسبوع كان معنا **مأمور جديد** ومعه بدأت مرحلة جديدة من حياتنا فى سجن « المحاريق » .

احكى لك عنها فى رسائلى المقبلة يا حبيبى .

١٨ أغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٤٧)

حبيبتى

كان قرار نقـل المأمور « الشــواف » والطبيب من ســـجن « المحاريق » الى القاهرة حسما **للصراع** بين الادارة الطبية التى وقفت الى جانب الطبيب وادارة المصـلحة التى لم تستطع الدفاع عن المأمور ، ولكنها لا تريد الاعتراف بأخطائه . ويبدو أنه كان من الصعب نقل الطبيب وعدم نقل المأمور . ويبدو كذلك أن شخصية اللواء **عبد المنعم موسى** المعتدلة ، وهو شقيق **نبوية موسى** ، قد لعبت دورا فى الوصـــول الى هذا الحل . غير أن ادارة المصلحة كانت حريصة فى الوقت نفسه على أو لا تهتز هيبتها أمامنا فيختل **الضبط والربط** فى السجن ، وتعـــود الحياة على طريقة سجن « جناح » ، فأوفدت الى سجن « المحاريق » واحدا من الضباط المعروفين بقدرته على فرض النظام فى اى سجن ، وكان قد استدعى من سجن اسيوط الذى يضم عتاة المجرمين ، الى سجن « المحاريق » الذى **يضمنا والاخوان المسلمين** . ومع أن وكيل المصلحة **عبد المنعم موسى** امر بخروجنا لطابور الصباح وبعد الظهر ، وللعمل فى مرافق السجن ، وفتح الزنازين صباحا وبعد الظهر للذهاب الى دورة المياه ، وكان هذا فى حضور **المأمور الجديد** للسجن ، الا انه بعد سفر وكيل المصلحة اجتمع معنا ليلقى علينا خطبة ويعلن فيها انه غير موافق على هذه القرارات .

وقف أمامنـــا بقامته الفارعة وهـــو يمسك **بعصا صغيرة** يحركها بين يديه وهو يتكلم . تحدث عن قسوته فى معاملة المســـجونين لفرض الضبط والربط ، وكيف أنه يؤمن **بضرب** المسجونين **وجلدهم** ، كوسيلة وحيدة لاصلاحهم ، هذا على الرغم من قرار المصـــلحة بعدم الضرب ، وقال بفخر : اسألوا عنى فى سجن أسيوط الذى فيه **عتـــاة المجرمين** والذى عجز كل الضباط عن ادارته ، استطعت أنا أن أؤدبهم . وقال مهددا : لقد استدعونى من سجن أسيوط الى هذا الســـجن لتأديب كلمن يحاول الخروج على النظام . لا تحلموا أبدا بالعودة الى ما كنتم عليه فى سجن « جناح » . لم يكن سجن « جناح » هذا سجنا ، كان معسكر كشافة ، وأيضا لا تظنوا أن نقل المأمور الســـابق عقوبة له لانه أخطأ ، أبدا ، حتى لو كان مخطئا مش مفروض أبدا أنه يعاقب . المسألة كانت ببساطة شكاوى من المأمور ومن الطبيب ، وخناقة بين ادارة المصلحة وبين الادارة الطبية وكان **الحـــل الوسط** هـــو الحل المناسب ، ومن حسن حظ هذا الطبيب انه لم يقع مع واحد زى حالاتى . لو كان وقع فى ايدى كنت عرفت ازاى أؤدبه . واختتم المأمور كلمتـــه

بقوله : لقد قلت لوكيل المصلحة اننى غير موافق على النظام الذى أمر به لتطبيقه هنا لكننى سأنفذه بطريقتى الخاصة . **عبد المنعم موسى** من المدرسة التى تنادى بمعاملة المسجونين **معاملة** حسنة وانسانية وتعليمه وعدم ضربه ، وأنا أنتمى الى المدرسة الاخرى التى ترى أن **الوسيلة الوحيدة** هى ضَرب المسجون **وجلده** واذا لم ينصلح لابد من بتره من المجتمع تماما .

لم يضف المأمور بحديثه هذا جديدا الى ما عرفناه عنه من أحد السجانة الذين اشتغلوا معه . كنا نملك معلومة أخرى عنه ، فقد **سجن فى الاربعينات** بضعة أيام لاشتراكه فى **مظاهرة** قام بها طلبة مدرسة المنصورة الثانوية ، واتفقنا على الاستفادة من هذه المعلومة التى عرفناها من الزميل **حمدى عبد الجواد** الذى كان زميلا له فى نفس المدرسة .

وعندما انتهى المأمور من كلمته قال بصوت غليظ :

ـــ حد عاوز أى ايضاحات ؟

وقف « مسئول الادارة » وقال :

ـــ تسمح لى اتكلم بالنيابة عن الزملاء

رد عليه بغضب :

ـــ كل واحد يتكلم عن نفسه بس .

ـــ يعنى .. اختصارا للوقت .

يتضاعف غضبه ويقول :

ـــ مش عاوز فلسفة .. كل واحد يتكلم عن نفسه

وكان لابد من موقف مرن فى هذه اللحظة . فقال الزميل :

ـــ طيب .. أتكلم عن نفسى

قال المأمور بلهجة المنتصر :

ـــ أيوه كده .. اتكلم عن نفسك بس .

ـــ نحن نحترم آراء ..

ويقاطعه المأمور :

ـــ قلنا مفيش نحن .. واللا من باب التفخيم يعنى ؟

ويرد الزميل :

ـــ أنا أحترم آراء سيادتك فى معاملة المسجونين ، وفى نفس الوقت أحترم الآراء الاخرى . لكن دى مسألة ليست موضع مناقشة الان .. و ..

ويقاطعه مرة أخرى :

ـــ ومن قال اننى عاوز أتناقش ؟

ــ ده كان مدخل للكلام اللى عايز اقوله .

ويزداد غضبه :

ــ انا عارف انكم بتوع كلام ومناقشة .. ادخل فى الموضوع .

ويرد الزميل وفى صوته رنة حسم :

ــ طيب الموضوع هو .. ان سيادتك هنا لاول مرة بتتعامل مع مساجين سياسيين .. مساجين رأى .

ويقاطعه بصوت عال وغاضب :

ــ المسجون مسجون .. أنا ماعنديش فرق بين المجرم العادى والمجرم السياسى .

ويرد الزميل بصوت هادىء :

ــ سيادتك لك تجربة وتعرف ..

ــ انا لم اتعامل مع مسجونين سياسيين قبل كده .

ــ لكنك انت كنت مسجون سياسى .

ويسود الصمت لحظة ، نتأمل خلالها تعبيرات وجهه تعكس **صراعا بداخله** ، ونلمح **ومضة انسانية** فى نبرات صوته وهو يسأل :

ــ وعرفتوا منين الحكاية دى ؟

ويقول الزميل حمدى عبد الجواد بهدوء :

ــ منى أنا .

ينظر اليه المأمور قليلا ثم يسأله :

ــ انت مين ؟

ــ زميل قديم لسيادتك فى المنصورة الثانوية .

ــ مش فاكر شكلك .. اسمك ايه ؟

ــ حمدى عبد الجواد .

يتقدم منه خطوات وهو يقول :

ــ برضه مش فاكر .

ــ هدوم السجن .. ومدة طويلة

يقترب منه خطوات أخرى

ــ برضه مش قادر اتذكرك .

ــ ان كان يهمك .. أفكر سيادتك .

تضعف مقاومته **للانسان** فى داخله ويقول بصوت ها

ــ يمنى .. يهمنى برضه .. مهما كان الوضع .

وينفـــذ صوت **حمدى عبـــد الجواد** الهادىء "
وهو يقـــول :

ــ سيادتك كنت عضو فى لجنة الوفد بالمنصو

ــ **أيوه .**
ــ وفى يوم خرجنا مع طلبة المدرسة فى مظاهرة .
ــ أيوه .. أيوه .
ــ وقبض علينا مع عدد من الطلبة .
ــ تمام .. مضبوط
ــ وقضينا ايام سوا فى السجن .

ويسود الصمت دقائق نرى خلالها وجه المأمور صورة لما يجرى فى **داخله** . صراع بين **تلقائية** الطالب الذى سجن يوما لانه سار فى مظاهرة تطالب بالحرية والاستقلال ، وبين **التزام** ضابط السجن بواجبات تفرضها **وظيفته** ، ونلمح فى عينيه ومضة غريبة ، **لمسة انسانية هزته من الاعماق** . ويرتفع صوته بطريقة يبدو فيها الافتعال .

ــ فيه حد عاوز حاجة .. يا مسجون **انت** وهوه ؟

ويرد الزميل « مسئول الادارة » بصوت هادىء :

ــ متشكرين .

وفى هدوء يسير الرجل متجها الى مكتبه ، وننصرف نحن الى الزنازين .

مر يومان بعد هذا اللقاء لم نره خلالهما . وفى صباح اليوم الثالث وقبل أن تفتح الزنازين فى موعدها نسمع صوتا غليظا :

ــ انتباه .

باب العنبر يفتح .. واقدام كثيرة خارج الزنزانة ، ويفتح بابها ونجد المأمور على راس عدد كبير من السجانة والضباط ، الذين يدخلون الزنزانة للتفتيش :

ــ كتب يا افندم .

ويرتفع صوت المأمور :

ــ ايه الكتب دى .. منين ؟
ــ من المكتبة .
ــ خدها يا سجان .. ممنوع الكتب .
ــ شاى وسكر يا افندم ..
ــ ممنوعات .. خدها .

ويقول زميل :

ــ شارينها من الكانتين .
ــ مفيش كانتين ..
ــ لكن ده موجود وبنشترى منه .

ـــ خلاص .. قفلته ..

ويصيح سجان :

ـــ قلم وورق .. يا افندم .

ويصرخ المأمور :

ـــ كمان .. قلم وورق .. مين صاحبهم ؟

ويتقدم زميل :

ـــ انا صاحبهم ..

ويصرخ المأمور :

ـــ ودوه التأديب .

ويخرج الزميل من الزنزانة بهدوء ويسير مع السجان فى طريقه الى التأديب . ودون أن نتبادل اى كلمة معه . يغلق باب الزنزانة . وتفتح زنزانة اخرى ، ونسمع صوتا يصرخ :

ـــ منشورات يا افندم ..

ويعلو على هذا الصراخ صوت المأمور :

ـــ لا ، دى المسألة زادت قوى .. خدوه التأديب .

ونسمع صوت الزملاء ..

ـــ دى بتاعتنا كلنا ..

ويعلو صراخ المأمور :

ـــ خدوهم كلهم التأديب ..

ونسمع صوت اقدام تخرج من الزنزانة المجاورة .. ثم نرى عشرة زملاء يتجهون الى التأديب .

تغلق الزنزانة الثانية ، وتفتح الثالثة ، ونسمع صوتا عاليا :

ـــ منشورات .

وصوتا يعلو عليه :

ـــ خدوهم التأديب

ويمر علينا عشرة زملاء آخرين فى طريقهم الى التأديب . وتمضى دقائق يعود بعدها كل الزملاء وكان عددهم ٢١ زميلا الى حيث يقف المأمور على باب الزنزانة الرابعة .. ونسمع حوارا طريفا ، صوت يقول :

— يا أفندم . مفيش تأديب فى السجن ده .
— ازاى ؟
— لسه بيبنوه ..
— أمال اللى يستحقوا التأديب بتحطوهم فين ؟

ويرد أحد الضباط :

— فيه زنزانة صغيرة .. نستخدمها مؤقتا .
— حطهم فيها .
— العدد كبير قوى .

وتمر لحظة صمت .. يقول المأمور بعدها :

— بسيطة خليهم فى الزنازين .. وطبق عليهم نظام التأديب ..

ويفتح باب الزنزانة الرابعة .. ونسمع صوتا :

— مفيش حاجة يا أفندم ..

كان عددنا لا يزيد عن الستين موزعين على ست زنازين . اثنان منهما تحولا الى تأديب . والتأديب معناه أن لا يكون عند المسجون سوى بطانية واحدة حتى ولو كنا فى عز البرد . ولا يأكل سوى ثلاثة أرغفة فى اليوم « وغموسهم » من الملح الرشيدى الخشن . ويحرم من الفسحة فى طابورى الصباح والمساء ، ولا تفتح عليه الزنزانة الا مرة واحدة فى الصباح ولمدة لا تزيد عن خمس دقائق للذهاب الى دورة المياه . وهكذا اصبح ثلثنا تقريبا فى التأديب وكان على الثلثين أن يقتسم طعامه وسجائره مع الزملاء الذين فى التأديب . وكانوا يأخذونه سرا وبمعاونة واحد من أصدقائنا السجانة ، أو أثناء خروجهم من الزنازين الى دورة المياه أو للطابور .

وبعد يومين آخرين قام المأمور بحملة تفتيشية أخرى وجد فى جميع الزنازين — التى تحولت الى تأديب والتى لم تتحول بعد — ممنوعات من الشاى والسكر والكتب والمطبوعات .. وصاح بأعلى صوته :

— كل الزنازين حولوها الى زنازين تأديب .

ويبدأ السجانة فى استلام البطاطين الزيادة فى كل زنزانة ليكون عند كل منا بطانية واحدة وبرش واحد .

ونسأل المأمور :

— مدة التأديب قد ايه ؟

ويقول المأمور :

— طول مافيه ممنوعات فيه تأديب ..

ونرد بهدوء :

— يبقى راح نعيش فى التأديب على طول ؟

- أيوه ..
- بدون تحقيق ؟
- أنا ماعنديش حكاية التحقيق دى .
- ده حقنـــــا .
- يعنى ايه ؟ . مش راح أحقق .
- ونحن نصر على التحقيق .
- ليــــه ؟
- علشان نثبت فى المحضر الممنوعات المضبوطة . وأهمها المنشورات والورق والاقلام .

ويقول بغضب :

- راح اثبتها طبعا .
- وطبعا تطلب النيابة .

ويسأل بدهشة :

- ليه بقى ؟
- للتحقيق معنا وتقديمنا للمحاكمة .
- ماشى .. اطلب النيابة .

ونسأل بخبث ..

- وتتحمل **المسئولية** :؛
- اى مسئولية ؟
- مسئولية دخول هذه الممنوعات للسجن .
- لن تدخل بعد ذلك أبدا .

ونســــأل :

- هل استطعت ان تمنع المخدرات عن المساجين فى سجن أســـيوط أو اى سجن آخر ؟

يصمت المأمور قليلا ويقول بصوت يملاه الاسى :

- أبدا لم استطع

وينصرف الرجل بسرعة الى مكتبه . وتغلق علينا الزنازين وقـــد تحولت كلها الى **زنازين تأديب**.ويمر يومان لا يأكل كل زميل خلالهما سوى ستة أرغفة وكمية من **الملح الخشن** « الرشيدى » . ولا نخرج للطابور ولا للعمل فى مرافق السجن . وفى صباح اليوم الثالث نفاجأ بالمأمور ومعه عدد من السجانة والضباط .. وينادى المأمور على ثلاثة من زملائنا .. سعد باسيلى ، ومحمد جبر وصلاح هاشم ، ويقول لهم ..

- جاءنى أمر من المصلحة بجلد كل واحد منكم ١٨ جلده .

ونفاجأ بالخبر ..

- لمــاذا ؟

— لاعتدائكم على ضابط العنبر .
— لكن وكيل المصلحة شهد لمصلحتنا .
— ومع ذلك كان لابد من جلدكم .
— لمـــاذا ؟
— حتى لا يجازى ضابط العنبر .
— وما علاقة جلدنا بمجازاة الضابط ؟
— لانه أمر بضرب بروجى « كبسه » دون مبرر .
— والمبرر هو اعتداؤنا عليه ؟
— بالضبط .
— نتحمل من أجل أولاده .

نلمح اثر هذه الكلمات الانسانية على وجهه ، يقول :

— غدا ينفذ الجلد فى حوش السجن .

وفى صباح اليوم التالى يشهد حوش سجن المحاريق مشهدا مثيرا .. احكى لك عنه فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى .

٢٢ اغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـــالة رقم (٤٨)

حـــــــبيبتى :

وفى صباح اليوم التالى خرجنـــا جميعا نحن والاخـــوان المسلمون والمساجين العاديون الى فناء السجن وجلسنا حول « **العروسة** » . وفى مكان قريب من العروسة وقف **الجلادون** وفى أيديهم **السياط** . وكانوا ستة جلادين والى جوارهم منضدة عليها وعاء به زيت ويقف معهم طبيب السجن الجديد وضابط . وفى مكان آخر كان المـــأمور يقف ومعه عدد من الضباط والضابط الذى جاء من المصلحة يحمل **حكم الجلد** على الزملاء . وبعـــد قليل بدأت الطقوس التى تسبق تنفيذ عقوبة الجلد .

الضابط الذى جاء من القاهرة يقرأ الحكم :

ــ بامر من **اللواء** مدير عام مصلحة السجون يجلد كل من المساجين **سعد باسيلى ومحمد جبر وصلاح هاشم ١٨** جلدة لكل منهم لاعتـــدائهم على الملازم أول (...) ضابط العنبر اثناء تأدية وظيفته ، وقد صدر هذا الامر بعد التحقيق اللازم . ينفذ الجلد فى حوش السجن وأمام كل المساجين .

بعد أن تلا الضابط الحكم .. اشار المـــأمور بيده الى طبيب السجن ليقوم باجراء الكشف الطبى على المحكوم عليهم . تقدم الطبيب من **سعد باسيلى** ليكشف عليه فقال له بهدوء :

ــ مفيش داعى للكشف الطبى .

ويســـأله الطبيب :

ــ ليـــــه ؟
ــ صحتى كويسه تستحمل الجلد .
ــ لكن لازم اكشـــــف .
ــ وانا ارفض الكشف .
ــ دى مسئولية .. لازم اكشف .
ــ أكتب انك كشفت .

ويرفض **سعد باسيلى** باصرار أن يجـــرى الطبيب الـــكشف عليه ويتدخل المـــأمور ، ويتضامن مع سعد باسيلى الزميلان الآخران . وتثور مشكلة قانونية ! كيف تنفذ العقوبة دون اجراء الكشف الطبى ! يقـــول المأمور للطبيب :

ــ اكتب انك كشفت عليهم ..

ــ أكتب ازاى وأنا لم أكشف عليهم .
ــ وفيها ايه ؟
ــ ممكن حد منهم مايتحملش الجلد .
ــ يعنى حد راح يموت ؟
ــ ممــكن .

ويقف المــأمور حائرا . انه لا يستطيع أن يأمر بتنفيذ العقوبة قبل اجراء الكشف الطبى فربما يموت واحد منهم .. واذا مات تبقى مسئولية عليه . والطبيب أيضا معه حق اذا كتب أنه كشف عليهم دون أن يجرى الكشف فعلا تبقى مسئولية عليه أيضا . ويسود الصمت دقائق . عشرات المســاجين الملتفين حول **العروسة والضباط والسجانة** والمأمور ومندوب المصلحة حامل الحكم والطبيب يخيم الصمت عليهم جميعا . وفجأة يتقدم الزملاء الثلاثة نحو الطبيب ويطلبون اجراء الكشف الطبى .ويصيح المأمور بدهشة :

ــ طيب ليه ما كان من الاول ؟

ويرد ســعد باسيلى بقوة :

ــ حتى ترى اننا لا نخاف الموت ذاته .

ويعود الصمت مرة أخرى بينما يقوم **طبيب السجن** باجراء الكشف الطبى على الزميل **سعد باسيلى** .. يتقدم من الطبيب أحد الضباط ويهمس بأذنه .. ويصيح سعد باسيلى بأعلى صوته :

ــ حضرة المــأمور .. أنا لا اقبل اى تزوير .

ويرد عليه المــأمور :

ــ تزوير ايه ؟
ــ ولا أقبل أى عطف من أحد .

ويســأل المــأمور :

ــ تزوير ايه وعطف ايه ؟

ويقول ســـعد :

ــ شايف فيه محاولة عطف من طبيب السجن بايعاز من حضرةالضابط..

ويضحك المــأمور ويقول للطبيب :

ــ اكشف عليه بدقة يا دكتور .

ويضج كل الموجودين بالضحك . وبعد اجراء الكشف الطبى يتقدم سعد باسيلى بخطوات ثابتة نحو **العروسة ويصلب** نفسه عليها . وحين يتقدم اليه السجانة ليربطوا يديه وقدميه بأطراف «العروسة» يثير سعد مشكلة أخرى ، يرفض باصرار . ويصيح المــأمور :

— ليه يا سعد ؟
— أنا مش محتاج لربط أقدامى ويدى ..
— ده أحسن لك .
— ومع ذلك مش محتاج ..
— لكن يمكن تسقط على الارض أثناء الجلد ..
— لا .. مش راح اسقط أبدا .
— يا ابنى اسمع الكلام ..
— دى بقى مافيهاش فصال ..

ويسأل المأمور بدهشة :

— طيب بس اعرف ليه ؟
— لنثبت لك أننا قادرون على تحمل اى شى بارداتنا .

ويسود الصمت مرة ثالثة ، بينما يضع **سعد باسيلى** نفسه **مصلوبا** على **العروسة** فى شجاعة نادرة . وكأنما كان يستمدها من سواعدنا تلتف حوله وقلوبنا تحوطه كل من جانب .

يصدر الامر بالجلد وترتفع يد الجلاد يضرب ، وآخر يعد .

— واحد .. اثنين .. ثلاثة .. أربعة .

الابتسامة لا تفارق وجه سعد ولا **تصدر منه أنة** واحدة .

الصمت يسود . يتقدم الجلاد الثانى :

— خمسة .. ستة .. سبعة .. ثمانية .

ويأخذ **الجلاد الثانى** راحد ويعود الاول الى الجلد ثم الثانى مرة أخرى .

— ١٥ .. ١٦ .. ١٧ .. ١٨ .

وينزل **سعد باسيلى** من على العروسة . **والابتسامة** لا تفارق وجهه بينما ظهره ينزف دما .

أحد الضباط الاصدقاء يهمس لى :

— المأمور منفعل جدا بهذا الموقف .
— أرجو أن يكون قد وجد الفرق بيننا وبين مجرمى أسيوط .
— هذا شىء لم يحدث فى السجون أبدا .

وعدد من الاخوان المسلمين يلتفون حول الزملاء **المجلودين** يحيون **شجاعتهم وصلابتهم** . وآخرون يسيرون مع بعض الزملاء يتبادلون الحديث حول ما شهدوه منذ وقت قصير مضى . أسمع من يقول :

ـ كان **سعد باسيلي** وهو يتقدم بثبات نحو « العروسة » مثل « **جان دارك** » وهى تتقدم نحو النار التى حرقوها فيها .

وصوتا آخر يقول :

ـ الابتسامة لم تفارقه ..

وصوت ثالث :

ـ كان النور يشع من وجهه .

ـ وأيضا محمد جبر وصلاح هاشم .. نفس الثبات ونفس الشجاعة.

ويسأل صوت رابع :

ـ كلكم كذلك ؟

ـ نعم .. كلنا كذلك .

أبدا لن تستطيع كل **أجهزة اعلامهم** النيل من صدق **انتمائنا** الى أرض **مصرنا الحبيبة** ، فحبك يا غالية هو هذا **الهواء** الذى نستنشقه ، وهو هذا الماء الذى نشربه ، فأنت .. **انت الحياة .. ولا حياة بدونك يا مصر** .

وفى المساء ، بعد ان أغلقت **الزنزانة** علينا ، وبينما كان الزملاء **يدلكون** ظهور الزملاء الذين **جلدوا** فى الصباح ، ويضعون عليها فوط الوجه المبللة بالماء ، وزملاء آخرون يعملون الشاى على نار قطعة قماش مبللة بالجاز ، يخرج منها «هباب» يحجب الرؤية ، وزميل آخر يستمع الى خطاب **جمال عبد الناصر بمناسبة ٢٣ ديسمبر ١٩٥٨** ـ عيد النصر ـ ونسأله بين الحين والآخر ويقول :

ـ هجوم شديد على السوفييت .
ـ هجوم علينا ..
ـ يصفنا بالعمالة ..
ـ انذار صريح للزملاء .
ـ انتهى شهر العسل .

ويدور حوار لا ينتهى الا مع طلوع الفجر .

ـ وبدأ شهر البصل .
ـ والبصل راح يصنن .
ـ ريحة الصنة واضحة من زمان .
ـ لكن فى العسل نايمين .
ـ اياك يشموا الصنة .
ـ فى برد ديسمبر ؟
ـ احتمال زكام .
ـ مش للدرجة دى ..
ـ وأكثر وحياتك .
ـ وبكره نشوف .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

— واللى يعيش يشوف أكثر .
— يا جماعة دى الريحة فايحة .
— البارفان يغطى عليها .
— مدة قصيرة والريحة تغلب .
— نحط بارفان تانى ؟
— وبعـــــدين ؟
— وثالث ..
— البارفان يخلص ؟
— بعدها يفوقوا .
— يا ريت يفوقوا .
— بعد الاوان ؟ . ايه الفايده ؟
— تروح السكرة .
— وتيجى الفكرة .
— يستخبوا على الاقل ..
— وليـــــه ؟
— اذ ربمــــا .
— ما يقدرشى .
— كلام واضح وانذار صريح .
— هم أذكياء .
— ذكاء ذاتى .
— ويساوى غباء اجتماعى .
— لا .. لازم راح يفهموا .
— تراهن .
— بسيجارة بكره .
— وتعرف بكره ازاى ..
— من اخواننا المؤيدين .
— لا .. فيه فرق ؟
— فرق شكلى ..
— موافق على الرهان .

ويعلق ملك الصحراء :

— تبقى خسرت الرهان يا بطل .

ويعلق صلاح هاشم مسئول الحياة العامة وكان ذهنه منتبها رغم جلده ١٨ جلدة التى اخذها على ظهره فى الصباح :

— واللى يخسر مش راح يطول منى ولا نفس ..

ويجرى **حوار جاد** بعد هذا **الحوار الساخر** لا يختلف عنه الا من حيث الشكل لكنه ينتهى الى **حقيقة** لاتحتاج الى **الرهان** عليها . أن العلاقة بين **الحكم الوطنى** وبين زملارنا وصلت الى حالة **تدهورها القصوى** ، ومن

المؤكد انهم سوف يواصلون **العمل تحت الارض** .. وتغمض جفوننا وفى داخلنا أمل أن لا تكون هذه البديهية **مجرد حلم** يتبدد فى الصباح .

وفى صباح اليوم التالى نفاجأ بالمأمور ومعه ضابط العنبر وسجان يفتح باب الزنزانة ونقف للتفتيش كما تعودنا ولكنه يبتسم ويقول :

ـــ انا جاى اشوف زملاءكم بتوع امبارح .

ويدور حوار وينتهى باتفاق .. هو الاول من نوعه فى السجون التى قضينا فيها السنوات السابقة . أحكى لك عنه فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٢٢ اغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـــالة رقم (٤٩)

حبيبتى

كان موقف الزملاء الذين جلدوا نقطة تحول فى علاقة مأمور السجن بنا . كان الرجل يعرف انهم مظلومين ومع ذلك تحملوا الجلد حتى لا يعاقب ضابط العنبر و « من اجل أولاده » . ثم شـــهد موقفهم البطولى قبـــل عملية الجلد وبعدها « وهو مشهد لم يره فى حياته . لقد تعامل مع عتاة المجرمين الذين اثاروا الرعب فى البلاد ، ووجدهم يصرخون عنـــد أول جلدة تنزل على ظهورهم . كذلك فقد اجبرهم بالتهديد والوعيـــد على أن يصرخ الواحد منهم ويقول (انا . . .) . وهؤلاء **المساجين السياسيون طلبة ومثقفون وموظفون وعمال** ، كيف يتحملون كل هـــذا ؟ ولماذا هم صـــامدون الى حـــد يثير الدهشـــة ؟ **بطولاتهم** تنتزع الاعجاب والتقدير حتى من أعدائهم ؟

واسئلة كثيرة اثارها المأمور اثناء حواره معنا صباح اليوم التالى لليـــوم الذى جلد فيه الزملاء . قال بصـــوت ودود لم نالفـــه منـــه من قبـــل :

ـــ انا جاى اشوف زملاءكم بتوع امبارح .
ـــ نرجو أن يكون خيرا .

ويضحك قائلا :

ـــ حكاية النون دى مش قادرين تتخلوا عنها ؟
ـــ سنوات طويلة ونحن نستخدمها فى السجن .
ـــ والضباط هل كانوا يوافقون ؟
ـــ يعترضون ثم يوافقون .
ـــ وجدوا أن هذا يسهل عملهم .
ـــ ويبدو لى ان هذا صحيح .
ـــ التجربة خير برهان .
ـــ من اين نبدأ ؟

ويشير الزميل مسئول الادارة الى راسه ويقول :

ـــ من هنـــا .

ويرفع المأمور يده الى اعلى ويقول ضاحكا :

ـــ وليس من هنـــا .

— وهو فرق أساسى فى التعامل .
— لكن التعامل معكم مسئوليته كبيرة .
— لماذا ؟
— الكتب .. والورق والاقلام والمنشورات .
— لن تجد أثرا لها عند اللزوم .
— تستغنون عنها ؟
— لا وانما نخفيها فى الوقت المناسب .
— وهل تعرفون هذا الوقت المناسب ؟
— نعرفه منك . ونستعد له .
— كلام رجاله ؟
— نترك تقدير هذا لكم .
— حملات تفتيشية كثيرة لكم فى الايام المقبلة .
— نتوقعها . ونتوقع ما هو اكثر .
— سمعتم خطاب الرئيس أمس ؟
— نعم سمعناه .
— سمعتوه .. أو سمعتم عنه ؟
— سمعناه من ترانزستور عندنا .
— أين هو ؟
— فى هذه الزنزانة .
— اذا فتشت أجده ؟
— لن تجده .
— اذن نجرب .
— اتفضل .

ويقوم المأمور ومعه ضابط وسجان **بتفتيش الزنزانة** تفتيشا دقيقا دون أن يجدوا أى أثر **للراديو** ولا أى ممنوعات أخرى . ويقول المأمور ضاحكا :

— ربما يكون فى جيب واحد منكم .

ونضحك :

— فتشنا .

ويقوم بنفسه بتفتيشنا ولا يجد شيئا .

— ودائما ستجدنا كذلك .
— اتفقنا .
— اتفقنا .
— وزملاؤكم المؤيدون ؟
— نحن جميعا مؤيدون .
— يقولون انكم معارضون .
— هذا رأيهم .
— انتم اذن غير متفقين .

قف فرضوه علينا .. للاسف .
ما يكون هذا عقبة أمام اتفاقنا .
ـا لن يسكون .
ثقـــون ؟
، الثقـــة .
سم انـــكم مختلفون ؟
خلاف السياسى لا يؤثر .
نلون اليهم اتفاقنـــا .
خـل أن تجـــريه معهم .

ويتجه المأمور نحو **زنازين الزملاء** ويجـــرى معهم نفس الاتفاق ، الزنازين مرة اخـــرى . وما يكاد باب العنبر يقفل حتى يفتح خرى . ونسمع اقداما تتجه نحو زنزانتنا ويفتح بابها ثم يقـــول ـ ضاحكا :

لى فات نعمل فيـــه ايه ؟
لى فات مات .
المضبوطات عاوزينها ؟
مــل غيرها .
سانـــكم عملتوا ؟
بـعـــا .

ـيقول ضاحكا ..

نش ؟

ـنرد ضاحكين :

ـــستعدون .
ـمان ونصف .. لم تأكلوا .
كلنـــا عيش وملح .
كفى ؟
ـتى نخرج من التأديب .
لماذا لم تطلبوا هـــذا ؟
ـكناه لتقديركم .
كنتم عنـــد حسن ظنى بكم .
ـقى خرجنا من التأديب .

ويأمر المأمور بفتح كل **الزنازين** ، واعادة **البطاطين** التى اخـــوذها اصحابها ، وخروجنا للعمل فى مرافق السجن ، واعادة فتح **الفرن** ـسم . وقبل ان يخرج الزملاء من **الزنازين** اتفقنا على عدم مناقشة ـء « المؤيدين » فى خطاب الرئيس **جمال عبد الناصر** أمس حتى ـدث استفزازات تؤثر على وضعنا الجـــديد فى السجن والذى بدأ

بالاتفاق الجديد مع المأمور . وكان الزملاء « المؤيدون » قد اتخذوا الموقف نفسه . ومضت الايام المتبقية من ديسمبر ١٩٥٨ فى شبه مقاطعة بيننا وبين زملائنا « المؤيدين » . لكن تعليقا ساخرا قاله أحد زملاؤنا حين وصلتنا اخبار **الاعتقالات الواسعة** لزملائنا وهم يحتفلون بليلة **رأس السنة الجديدة** كادت ان تؤدى الى اشتباك بيننا . !!

ففى صباح **أول يناير ١٩٥٩** وكنا قد سمعنا من الاذاعات العالمية فى المساء أخبار **الاعتقالات** ، قال **وليم اسحق** لزميل صديقه من زملائنا « الآخرين » :

— وحياتك يا زميل ما تنساش لما تطلع افراج تبعت لى سجاير وحلاوة طحينية .

ومع أن الزميل لم يتأثر بكلام وليم الذى يحظى بحبه واحترامه الا أن بعض زملاء الزميل الآخرين الذين سمعوه هجموا على وليم يريدون الاعتداء عليه . وكادت تنشب معركة وتبقى « فضيحة » لولا تدخل العقلاء الذين قلبوا الحكاية الى مزاح وقررنا المقاطعة التامة بين الفريقين .

وكان المأمور لا يجد اجابة مقنعة على سؤاله : **كيف تفرق السياسة بين من يحملون فكرا واحدا ؟**

كان يسمع منا ومن الزملاء اجابات مختلفة على سؤاله ولكنه لم يقتنع أبدا بأى منها . عندما كان يتسلم منا مذكرات كنا نرسلها الى الرئيس **جمال عبد الناصر نؤيده فى مواقف وطنية** ، وكانوا هم أيضا يقدمون مذكرات كان المأمور يضرب كفا على كف بعد أن يقرأها ، ويقول :

— طب مختلفين ليه بقى ؟

وكنا لا نجد غير الاجابة التقليدية :

— أصل المسألة اعمق من كده .

هذه الخلافات لم تؤثر فى موقف المأمور منا جميعا بعد الاتفاق معه ، وأيضا لم يتأثر **بالحملة الاعلامية** المسعورة ضدنا فلم يفكر يوما فى عمل شىء يناقض الاتفاق . ولم يكن هذا بالامر الغريب ، فلقد « بيضنا وشه » على حد قوله أمام رؤسائه وظل بالنسبة لهم هو المأمور القاسى والناشف القادر على فرض النظام والذى استطاع أن « يشكلنا » فلقد رأوا ذلك بأعينهم . واذكر انه منذ الاسبوع الاخير من ديسمبر عام ١٩٥٨ حتى أوائل مارس ١٩٥٩ ، حين وصلت الينا « **طلائع** » **المعتقلين** ، كان موقفنا مع المأمور موقف « رجالة » على حد قوله . ففى تلك الفترة وصل الى السجن **ستة مفتشين** من مصلحة

السجون على ست مرات **للتفتيش** على السجن ، وفى كل مرة كان المأمور يعطينا خبر قبل حضورهم بساعات ، حتى نستعد . وكنا فى كل مرة نعد أنفسنا للتفتيش بشكل مبالغ فيه أحيانا . الجميع يلبسون البدل الزرقاء والطاقية على الراس والاحذية بدون رباط والزنازين خالية تماما من كل **الممنوعات** التقليدية وغير **التقليدية** فلا شاى ، ولا سكر ، ولا جاز ، ولا أمواس حلاقة ، وطبعا لا ورق ولا أقلام ولا كتب ولا منشورات . وعند كل تفتيش كنا نقف الوقفة النظامية فى السجون عند مرور مفتش السجون . البرش والبطاطين ملفوفين فى شكل اسطوانى ويقف المسجون الى جانبها عند التفتيش . وفى كل مرة ، كان المأمور **يشخط وينطر** امام **المفتش** ونبدو أمامه خائفين مرهوبين . وهكذا ظل المأمور أمام المسئولين فى المصلحة هو الضابط الناشف القادر على معاملة عتاة المجرمين وعلى معاملة السياسيين ، فلاول مرة فى تاريخ التعامل مع المسجونين السياسيين لا تحدث اضرابات عن الطعام ، ولا تضبط أوراق وأقلام ومنشورات ، بل لا يطالب المسجونون بأى مطالب من مطالبهم التقليدية . أليس هذا كله دليلا على أن (...) هو الضابط المثالى القادر على فرض النظام حتى على السياسيين . وهكذا حين استطعنا أن نكون « رجالة » و « نبيض وش المأمور » — كما كان يقول لنا دائما — استطعنا فى نفس الوقت أن نمارس نشاطنا الثقافى والفكرى والفنى .

خلال تلك الشهور كانت أنباء **اعتقالات الزملاء** تتوالى . عشرات فى **سجن القلعة** ، وعشرات فى **الفيوم** ، وعشرات فى **أوردى أبو زعبل** وعشرات فى **الاقسام المختلفة** . وكانت الصحف التى تأتى الينا بوسائل خاصة أحيانا ، ومن المأمور أحيانا اخرى مليئة بالحملات على الزملاء دون تمييز وعلى « الاشقاء » فى **سوريا والعراق** . ومع ذلك لم تتأثر علاقتنا بمأمور السجن وظل وضعنا كما هو بل وحصلنا على بعض المكاسب الاخرى، مثل السماح بفتح **الزنازين** الى ساعة متأخرة من الليل لعمل حفلة عيد ميلاد زميل داخل العنبر ، أو مناسبة وطنية . وذات يوم فى أوائل مارس **١٩٥٩** أخبرنا المأمور أن أكثر من **٣٠٠ معتقل** سيصلون الى « **المحاريق** » بعد أيام وأن عددا منهم سيسكن فى الزنازين الخالية فى عنبرنا وكنا لا نشغل غير ست فقط ، والباقين سيسكنون فى العنبر الجديد الذى انتهى العمل فيه منذ أيام . وقال أن عددا من ضباط **المصلحة ومعهم** عدد من ضباط المباحث سوف يصلون غدا لاصدار تعليمات بشأن معاملة المعتقلين ، وانهم سوف يشرفون على تسكينهم . وطلب منا بأن نعطيه « الترانزستورات » التى عندنا واى مطبوعات اخرى وأن نحتفظ بترانزستور واحد نعطيه له فى آخر لحظة قبل حضور الضابط ، وبعد رحيلهم سوف يعطينا كل شىء بالتمام . ووافقنا على الفور . وطلب منا كذلك أن نقبل اغلاق **الزنازين** علينا لمدة ثلاثة أيام على أن تفتح زنزانة زنزانة للطابور والذهاب الى دورة المياه كذلك اغلاق المرسم وفرن الخزف خلال هذه الايام الثلاثة والتى سيتواجد فيها هؤلاء الضباط . ووافقنا دون اى مناقشة . كان تعليقه بعد أن وافقنا على كل طلباته :

ــ انا عارف ان موافقتكم دى .. موقف رجالة .. مش موقف ناس خايفين .

وفى صباح ذات يوم من الايام الاولى **لمارس ١٩٥٩** اخبرنا المأمور بأن **المعتقلين** سيصلون بعد ساعة . وذكرنا باتفاقنا الاخير معه والتزمنا به تماما . أغلقت الزنازين ولم يسمح لاى واحد بالخروج منها أبدا . وبعد ساعة سمعنا أصوات أقدام كثيرة تدخل العنبر . وبذلنا جهدا لنرى أحدا منهم ممن نعرفه لكن كان من الصعب أن نرى الداخلين الى يمين الزنزانة التى نسكن فيها . فجاء **وليم اسحق** بمرآة واخذت أنظر معه فيها وهى على يسارنا ورأينا اجساما كثيرة تدخل العنبر .

فجأة يصيح وليم اسحق :

ــ **جيتو يا طلاينه .. !**

ــ جسد الموقف كله بسخرية مريرة .

وبمقدمهم تنتهى فترة من حياتنا فى **سجون مصر الملكية ، ومصر الجمهورية ، ومصر العربية المتحدة** ، وتبدأ فترة جديدة .. احكى لك ما تعيه ذاكرتى منها فى رسائلى المقبلة يا حبيبتى .

٢٣ اغسطس ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـــالة رقم (٥٠)

حبيبتى

كانت أول مشكلة تواجه ادارة السجن بعد وصول **المعتقلين** ، هى تدبير الطعام لحوالى **٤٠٠** شخصا بعد أن كان **١٦٠** شـــخصا منهم ١٠٠ من الاخوان المسلمين ، وكان عددنا ٦٠ فقط . كانت ادارة السجن تحتاج الى ما لا يقل عن عشرة أيام تستطيع خلالهـــا الاتفاق مع المتعهد على اللحم والخضار ، وحتى تصـــل الكميات اللازمة من الدقيق والعدس والفول والفاصوليا من القاهرة . هذا فضلا عن اعداد المطبخ والفرن ليستطيعا خدمة هذا العدد الكبير . على أن حيرة المأمور لم تدم طويلا ، فقد كان المعتقلون يحملون معهم كميات كثيرة مما لذ وطاب من الطعام .

سال المامور :

— لـــكن هذا الطعام سينفد اليـــوم فماذا افعل غـــدا وبعد غد ولاكثر من عشرة أيام ؟

— قالوا . . معنا معلبات كثيرة . . ونقود اكثر .

— تسجنون على حسابكم ؟

— حتى يأتى المدد من القاهرة .

وكان حلا ســـعيدا ليس فقط لادارة السجن ، ولكن لنا ايضا ، فقد كان دخل الفرد منا **٢٥ مليما** فى الاسبوع لسد **احتياجاته** من بعض الغذاء الاضافى والسجاير . وكثيرا ما كان توزيع هذه **المليمات** مثـــار خلاف بين الزملاء وبين « مسئول الحياة العامة » **صلاح هاشم** ، فقد كان يفضل **ملعقة من الطحينة** كل اسبوع عن **نصف سيجارة** ، لـــكن الزملاء كانوا يرفضون أى غذاء اضافى مكتفين بما يقدمه السجن من طعام ويطالبون بتخصيص هذه المليمات **للسجائر فقط** . وأخيرا وصلوا الى حـــل مرن : هـــذه المليمات تـــكفى لتدبير **ثلث سيجارة** كل يوم ، **وربع كيلو حلاوة** طحينيـــة لـــكل عشرة زملاء . وكان الزملاء يؤلفون « كميـــونة » سجاير ، كلا ثلاثـــة فى « كميـــونة » يجتمعون فى الصباح يدخنـــون ثلث سيجارة معـــا ، وأخرى بعـــد الظهر . والثالثة بعـــد العشـــاء .

ومع حلول موعـــد الغـــذاء ، راينـــا « **ديوك روميه** » ! . وترتفع صيحات الاعجاب :

— ديك رومى مرة واحدة ؟

— ده حلم
— الحلم المستحيل
— ويتحقق فى السجن ؟
— مين كان يصـــدق ؟
— أن يتحقق حتى فى الحرية .
— ومتى كانت « حريتنا » تحقق ديوك روميه ؟

ورأينا دجاج محمر . ولحم بارد ، وبفتيك واصناف أخرى
— لا .. دى بقى شفناها .
— وأكلنا منهـــا كمان .

ورأينا معلبات كثيرة ، طعام محفوظ ، وفواكه — واصناف كثيرة الجبن ، رومى ، وبيضـه ، وركفور . و . و .

— رومى ؟
— لذيذة قوى مع السميط .
— ومعاها شوية دقة ..
— وعلى شط النيـــل يا جميل .
— وايه الروكفور دى ؟
— يعنى « المعفنـــة » ..
— واحنا ناقصين « عفن »
— بيقولوا ان فيه أكثر من ٤٠ صنف جبنه .
— ويحفظوا أسماءها ازاى ؟
— لكن دول ٥ أصناف بس ؟
— قيود الاستيراد بقى .

ورأينا أصناف كثيرة من الشيكولاته والحلويات .

— مارون جلاسيه .
— سمعنا عنه فى فيلم ممنوع الحب .
— قالتها راقية ابراهيم .
— بيقولوا الحب زى المارون جلاسيه .
— يبقى عمرنا ما حندوق الحب .
— وده بنمبون « ماكينتوش »
— ماكنتش فاكر كده .
— أول مره تشوفه ؟
— ولا حتى أسمع عنه .
— وارد انجلترا .
— جابتها « مامى » من لندن .
— كل بمبوناية مختلفة عن التانية .
— فى الطعم ؟
— وفى اللون كمان .

و . و . و . و « حاجات كثيرة » . اصناف كان لا يمكن لذاكرتى ان تختزن أسماءها « الخواجاتى » وما وعته ذاكرتى منها هنا ، كان لاننى تعاملت معها بعد **خروجى من السجن** واصبحت «صحفيا» ! وسافرت **الى الكويت قبل « الانفتاح »** !

لو أن أى واحد من المساجين القدامى شهد ليلة القدر ، فان خياله لن يذهب فى طلباته الى ربع أو نصف ما يراه بعينيه ، ويلمسه بيديه ، فى تلك المناسبة « السعيدة » .

ويرتفع صوت الزميل حامل جردل « العدس » :

— العدس يا زملا ..
— عدس ايه يا اخينـــا ؟
— خلاص نســـيتوه ؟
— ونحقـــد عليـــه .
— كلهـــا يومين .
— ولو .. نعيش اللحظة .

احيانا **يحلم** الانسان **بلحظة يعيشها** . يتصورها مزيجا من احلامه الكثيرة التى يتوق لها ، ثم يفاجأ خلال معايشتها ، بأنها تفوق كل تصوراته او انها دون احلامه بكثير . ومع أن الاســـاس المادى لتلك اللحظـــة التى تصورها **اصحاب البدل الزرقاء** كان موجودا ، الا انهم صـــدموا فى **احلامهم** ، كانت نظرتهم **أحادية الجانب** حين ركـــزوا على **النـــوع** ولم يهتموا **بالـــكم** . صدمتهم الحقيقـــة وهم على عتبة **اللحظة** التى حلموا بها . خمسة ديوك رومى كيف يتم توزيعها على **٣٠٠ شخص** ؟ واللحوم بكل اصنافها والفراخ ، لا يزيد وزنها عن **١٥ كيلوجرام** .. كيف توزع على هذا العدد الكبير بالعدل والقسطاس ؟ والمعلبات لا يمكن توزيعها فمن يدرى متى تاتى **المؤن** من القاهرة ؟ ثم هل نشترى بكل **النقود** طعاما ينفذ فى كام يوم ؟.

ويرتفع صوت صلاح هاشم :

— **العدس يا زملا** .. !!

كان السجن يضم ثلاث عنابر . فى كل عنبر **٢٠** زنزانة . وكان المسجونون ، دفعات (**١٩٥٢ — ١٩٥٤**) يشغلون ربع عنبر (٢) . ويعيش المعتقلون دفعتـــا **مارس ويونيو ١٩٥٩** معهم فى نفس العنبر . وفى عنبر (١) وضع المعتقلون من **دفعة أكتوبر عام ١٩٥٩** ، ضم اليهم بعد ذلك المعتقلون الذين كانوا معنا فى عنبر (٢) . وبدا الامر غير عادى .

فى اليوم نفسه الذى وصلت فيه دفعة **أكتوبر ١٩٥٩** من المعتقلين الى ســـجن « **المحاريق** » وصلت الينـــا رسالة من الخـــارج تحمل خبر

التصديق على أحكام زملائنا وكانوا فى **سجن مصر** فى انتظار هـــذا التصديق ، وبالطبع توقعنا كما توقعت الرســـالة أن يأتى الى ســـجن « **المحاريق** » هؤلاء **المسجونون الجدد** . وحســـبنا أن اخـــلاء عنبـــر (٢) من المعتقلين هو من أجل أن يستقبل المسجونين الجدد ، لكن ما حدث بعد ذلك اليوم نسف كل ما توقعناه . فى صباح اليوم التالى لم تفتح ابواب زنازيننا كالمعتاد . سألنا السجان :

ــ ايه الحكاية ؟
ــ أوامر جديدة .
ــ المعتقلين فتحوا عليهم
ــ لا .
ــ ممكن نقابل المأمور
ــ لما أسأل ضابط العنبر .

وجاء ضابط العنبر .. قال وابتسامة غامضة على وجهه :

ــ خـــير .
ــ أوامر جـــديدة .
ــ ايه هيـــه ؟
ــ عدم فتح الزنازين .
ــ لحـــد امتى ؟
ــ لحين صـــدور أوامر أخرى .
ــ نقابل المأمور .
ــ اســـأله .

مضت أكثر من ساعة ونحن نضرب **أخماســـا فى أسداسا** . حتى مساء اليوم الســـابق كانت الحياة تسير بشكل عادى جدا ، **الزنازين** مفتوحة طول النهار حتى الثامنة مساء . الزملاء المسجونون والمعتقلون يذهبون الى العمل فى مرافق السجن المختلفة . ووليم اســـحق وداود عزيز ومجدى **نجيب** كانوا يرســـمون لوحات طلبهـــا ضـــباط أصدقاء . وحتى صـــباح اليـــوم الباكر سمعنا كل اذاعات العالم ولا شىء غير عادى فى البلد :

ــ ايه الحكاية ؟
ــ كلام المأمور امبارح مش مطمئن .
ــ يظهر ان عنده أوامر جديدة

ونســمع صـــوت ضابط العنبر ينادى على **وليم طانيوس** « مسئول الادارة » وأستأذن من الضابط ان اذهب معه ويوافق .

كان مع المأمور فى مكتبه اللواء (...) **وكيـــل مصلحة السجون** و « أفندى » كان يبدو عليه أنه من **الرجال** « **المهمين** » .

قال المأمور وبعض الغضب على وجهه :

ـــ عندى أوامر جديدة .
ـــ خـــير .
ـــ لازم تشكروا سيادة اللواء .
ـــ نحن دائما نشـــكر سيادة اللواء .
ـــ وقف الى جانبكم .
ـــ وهو معنـــا دائما .
ـــ مالكوش دعوة بالمعتقلين .
ـــ بس نفهم .

ويتدخل « الافندى » ويقول بصوت عال :

ـــ عايزين تفهمـــوا ايه ؟

نتجاهله ونوجه كلامنا للمأمور :

ـــ نفهم ايه الاوامر الجديدة ؟

وقبل أن يرد المأمور .. يصرخ « الافندى » :

ـــ المعتقلين دول **تبعنـــا** .

تسود فترة صمت يقطعها صوت **اللواء (...) :**

ـــ **البيه من المباحث العامة .**
ـــ واحنا طبعا مش تبعهم .

وتزداد علامات الغضـــب على « **الافنـــدى** » ويســـود الصمت مرة اخرى وقبل أن ينطق هذا **« الافندى »** يقول (...) ضاحكا :

ـــ لا طبعا انتو المساجين تبعنا احنا .

ويقول المأمور :

ـــ وطبعا معاملة المسجون غير معاملة المعتقل .
ـــ طبعـــا .

ونلاحظ أن المأمور يرغب فى انهاء المقابلة وينادى على الســـجان ويقول له :

ـــ وصلهم للعنبر ، واقفل عليهم .

ونمشى مع السجان بعد أن لمحنا فى عينى المأمور الرغبة فى أن ننصرف حتى لا تحدث **مشادة** بيننا وبين هذا « **الافندى** » .

ويقفـــل علينـــا باب الزنزانة مرة اخرى وقد فهمنا امورا واخرى لم نفهمها بعـــد :

— يدبرون أمرا ضــد المعتقلين .
— ولماذا المعتقلين فقط ؟
— هذا ما فهمناه من المقابلة .
— ليست السياسة اذن ؟
— ولم لا ؟
— كانت تشـملنا أيضا .
— ولماذا يستثنى المسجونون ؟
— احتمال تناقض بين مصلحة السجون والمباحث العامة .
— هذا هو الارجح .

وتثور مناقشة حادة بين الزملاء . ويقول واحـد منهم بحدة :

— هل تفصلون بين الاجهزة ؟
— يعنى ايه يا زميل ؟
— يعنى كل الاجهزة بتنفذ سياسة واحدة
— هذا اذا كانت سياسة عليا .
— وهل هناك سياسة خاصة ؟
— احتمال وارد .
— يعنى المباحث تدبر شيء لا تأمر به السلطة .
— جايز جدا .
— جهاز من أجهزة الدولة يعمـل سـياسة تتعارض مع سـياسة السـلطة ؟
— ومين قال انها تتعارض ؟
— يعنى تبقى متفقه ؟
— ممكن .

ونسـمع صوت **ضـابط العنبر** ينادى على الزميـل مسـئول الادارة :

— المأمور عاوزك فى مكتبه .

ونذهب اليـه ، ما أن يرانا حتى يقـول وابتسامة ودوده على وجهـه :

— أنا عارف انكم رجاله وتقدروا المسئولية .
— شكرا على هــذه الثقة .
— معاملتكم لن تتغـير .
— والمعتقلين ؟
— أرجو أن تـكون سحابة وتمر .
— وراح تعاملوهم ازاى ؟
— كما أمرت المباحث العامة .
— لكن دى مسئولية سيادتك .
— أنا مسئول عن المساجين فقط .
— طيب ممكن نعرف كيف سيعاملون ؟

ويجيب المأمور بأسى :

— اغلاق **الزنازين** عليهم **طول النهـار** فيما عـدا نصف سـاعة فى الصباح ، ونصف ساعة بعد الظهر ، يلبسون ملابس **المسـجونين تحت التحقيق** « البيضاء » **ويخلعون أحذيتهم** ، لا يسمح لهم بشراء شىء من الكانتين . **وزيارتهم ممنوعة تماما** . وغير مسموح لهم باستلام خطابات من أهاليهم أو ارسال خطابات اليهم .

يصمت لحظة ثم يقول بحزن :

— وفى انتظار أوامر أخرى .

ونتساءل بدهشة وغضب :

— أكثر من كده ايه ؟
— ربنـا يسـتر .
— لازال عندك ما تخفيه عنا .

ونلحظ رنة **الصدق** فى صوت المأمور :

— ابدا .. أبدا .. والله .

لحظة صمت ونقول :

— البركة فى سيادتك .
— وأنا فى ايدى ايه ؟
— يعنى .. برضه .
— دى أوامر المباحث العامة .
— اى أوامر يمكن تنفيذها بمرونة .

ويقول المـأمور بعد تردد :

— الحقيقة انا مش واثق فيهم .
— دول زملاؤنا واحنا عارفينهم .
— عارفينهم كلهم ؟
— بالاسم .. طبعا مش كلهم .
— أهو بقى ان كنتم عارفينهم كلهم راح تغيروا رايكم .
— فيه مسئولين منهم يقدروا يحكموا الكل .
— ويضمنوا أن ماحدش منهم يتكلم .
— يتكلم مع مين ؟

ويقول المأمور **بسخرية :**

— يعنى مش عارفين مع مين ؟

ونقول باستنكار :

— مش معقول .
— معقول ونص كمان .

ولاول مرة نشعر بموقفنا **الضعيف** أمام المأمور ، ونقول برجاء :

— لو تسمح سيادتك تتناقش معاهم .
— مع مين بالضبط ؟
— مع **فخرى لبيب** .

ويسأل :

— مش واخد بالى منه ..
— لما تشوفه سيادتك راح تعرفه .
— قبل ما اشوفه .. هو راجل ؟.

ونضحك :

— راجل ونص .
— على ضمانتكم ؟
— وبرقبتنا كمان .

وينادى على السجان :

— قول لضابط عنبر (١) المأمور عاوز **فخرى لبيب** . وبعد أن ينصرف السجان ، يقول :

— أنا واثق أن ولا كلمة راح تطلع عنا احنا الثلاثة .

وأضحك قائلا :

— الاربعة بقى .

— أنا مش راح أتكلم معاه .. تكلموا انتم . ونحاول اقناعه بأن يثق **بفخرى لبيب** كما يثق بنا . وعندما نهم بالكلام :

— لكن .. ده محل ثقة .. و ..

يقاطعنا :

— مالكنشى .. أنا بأتعامل معكم انتم .
— ماشى .
— وأنتم المسئولون أمامى .
— وهو كذلك .

ويصل السجان ومعه **فخرى لبيب** ، يقول له المأمور وهو يهم بالانصراف من مكتبه :

— اقعد شوية مع زملائك .

ويتركنا مع فخرى لبيب أكثر من ساعة ، ننقل اليه خلالها كل ماحدث اليوم فى مقابلة الصباح مع **وكيل المصلحة والمأمور** و « **الافنـدى** » ثم المقابلة الثانية مع المأمور . ويترك لنا **فخرى لبيب** حرية التصرف على أن يتولى هو من جانبه تنفيذ ما نصل اليه مع المأمور . واكدنا عليه ألا ينقل

الى أى زميل من **المعتقلين** مهما كان وضعه ومهما كانت ثقته فيه حرف واحد مما جرى اليوم . وأكدنا عليه فى الوقت ذاته أن يراقب بدقة تصرف وحركة كل **الزملاء المعتقلين** حيث جاء فى حديث المـــأمور اشارة واضحة الى وجود **عناصر مريبة** .

ويعود المأمور الى مكتبه .. يقول :

ــ هيه .. عملتوا ايه ؟
ــ كله تمام .
ــ كله تمام .

ويوجه كلامه الى فخرى لبيب :

ــ أنا شفتك كثير .. لكن ما اتعاملتش معاك .

ويرد عليه فخرى :

ــ راح تعرفنى لمـــا نتعامل .
ويضحك المـــأمور قائلا :

ــ لا مؤاخذة .. المسجونين اتعاملت معاهم واثبتوا انهم رجالة .

ويقول فخرى :

ــ زملاءنا برضه واحنا نفتخر بيهم .
ــ لا .. فيكم ناس وحشين .
ــ راح نعرفهم .. وأنا مسئول .
ــ مش دلوقت .. لمـــا اعرفك .
ــ ولغاية ما تعرفنى ؟

يشير المـــأمور الينا ، ويقول :

ــ دول المسئولين أمامى .

ويستطرد ضاحكا :

ــ قد المسئولية ؟
ــ قدها وقدود .
ــ لمـــا نشوف .

ويقول وليم طانيوس :

ــ اذن نبـــدأ ..

ويضحك المـــأمور ..

ــ أيوه يامسئول الادارة .. طلباتك ؟
ــ مش كثيرة .
ــ نبدأ بالملح .

ويعلق المــأمور :

ــ ثم بالاهم .
ــ ثم بالمهم .
ــ ولغاية كده كويس .. والا ايه ؟
ــ كويس قوى .

يبتسم المأمور ، ويقول :

ــ كلمة الملح دى جديدة .

ويضحك وليم :

ــ علشان يبقوا ثلاث طلبات بدل اتنين .

ويقهقه المــأمور :

ــ جبطى .

واعلق :

ــ وصعيــــدى .

ويعلق فخرى لبيب :

ــ ومدير كمان .

ويقول المأمور بود :

ــ طلباتك يا سيادة المدير الجبطى ، الصعيدى .

ويقول وليم :

ــ نكتفى اليوم بمطالب المعتقلين .
ــ حلوه دى . اتفضل .

ونتداول انا ووليم وفخرى حديثا سريعا ، ماهو الملح ، وما الاهم ، وما المهم :

ــ السجاير والشاى .
ــ بند واحد ؟ أيهما الملح .
ــ الاثنــــان .
ــ بلاش طمع .
ــ اذن السجاير .
ــ غــــيره .
ــ حلاوة طحينية .
ــ ماشى .. غيره .
ــ كام كتـــــاب .
ــ مش وقتــــه .
ــ يبقى الشاى .
ــ ماشى .
ــ كفاية كده النهارده .

ويضحك المأمور قائلا :

ـ لا يا شيخ .. اطلب كمان !

ويجرى نقاش بيننا وبين المأمور حول طريقة تدبير **السجاير والشاى والحلاوة الطحينية** . ونحن المسجونون لا نملك غير كميات ضئيلة جدا من السجاير والشاى هى كل رصيدنا حتى تأتى الينا **نقود** وليس عندنا حلاوة طحينية . **المعتقلون عندهم نقود كثيرة** ولكنهم ممنوعون من التعامل مع الكانتين ، ما العمل ؟

ـ عندنا اقتراح .
ـ اتفضـــــل :
ـ المسجونون عندهم كمية سجاير وشاى . نوزعها .

ويضحك المأمور :

ـ اشتراكية فقر .. انتو حيلتكم حاجة .
ـ تكفى النهارده .
ـ وبكره . وبعده . وبعده ؟
ـ فعلا .. مشكلة .

ونقف فترة عاجزين عن ايجاد حل لهذه المشكلة ، فجأة أقول :

ـ عندى حل
ـ جذرى .. والا مؤقت ؟
ـ مؤقت طبعا .. بعدين الجذرى ده ..
ـ قـــــول
ـ تشترى كمية كبيرة من السجاير والحلاوة والشاى .
ـ يا ابنى وانتو حيلتكم فلوس .
ـ المعتقلون عندهم .
ـ ماقلنا المعتقلون ممنوعون .
ـ ممنوعون أيوه .. لكن من اليوم بس .
ـ وبعـــــدين ؟
ـ نشترى بكره ونكتب فى الدفاتر ..

ويقاطعنى المأمور :

ـ اننا اشتريناها من كام يوم .. مش كده ؟

اصمت قليلا . ويرقب وليم وفخرى ليبب رد فعـــل المأمور الذى نرى على وجهه انفعالات مختلفة . وفجأة يقول :

ـ تزوير فى أوراق رسمية !

ونصمت نحن الثلاثة ، لكن تعبيرات وجوهنا تقول كل ما بداخلنا . حقا انه **تزوير** فى أوراق رسمية .لكنه تزوير ليس هدفه **السرقة أو النصب،**

هدفه **انسانى** ، الغاية لا تبرر الوسيلة ، فكيف نوافق على هذه الوسيلة؟ ظروف استثنائية ! وتصرف استثنائى ! ممكن . لكن المسألة لا تخصنا نحن . هل تصل **ثقة** المأمور بنا الى هذا الحد ؟ هل يتحمل المسئولية ؟ ما الذى يضطره الى ذلك ؟ .

وفجأة يقول المأمور بصوت ودود :

— ماشى يا أولادى .. بكره الصبح نشترى .

ولا يعطينا الرجل أى فرصة لشكره فينصرف بسرعة قائلا :

— هات لهم السجاير اللى عندكم يا وليم .

ويختفى عن أنظارنا سريعا حيث يركب عربته ثم ينادى على السجان ويعطيه أمرا بأن يذهب مع وليم الى عنبر (١) كى يحضر السجاير ويعطيها لفخرى لبيب .

وعاد وليم ومعه كل رصيدنا من السجاير .

— خد يا فخرى ٣٠٠ سجارة .
— كل واحد ياخد سيجارة .
— خليها على يومين .
— فعلا .. مين عارف .

وعدنا الى **الزنزانة** ، وكانت الشمس ترسل أشعتها الاخيرة وبعد أقل من ساعة قام **فخرى لبيب** خلالها بتوزيع السجاير على الزملاء **فى الزنازين** ومع السجان الذى تلقى أمرا بذلك من **المأمور** . سمعنا أصوات الزملاء من عنبر (١) ترتفع لاول مرة منذ أكثر من ١٢ ساعة تغنى وتبعث الينا التحيات .

ويهب **وليم طانيوس** واقفا ويقول بغضب :

— غبى . غبى .
— ايه يا وليم ؟
— قالهم السجاير من عند المسجونين .

وتساءل أحد الزملاء :

— وفيهـــا ايه ؟

ويرد وليم بغضب :

— فيها مصيبـــة .

وتتوالى تعليقات الزملاء ..
— يا ســـاتر .
— مصيبة ايه ؟

ـــ نريد توضيحا

وأقول لوليم :

ـــ صبرك يا وليم ماشافهومش وهمه بيسرقوا شافوهم وهمه بيتقاسموا.

ويقول مجدى بهدوء :

ـــ معلهش يا وليم .. همه مش بالدرجة دى من الذكاء .
ـــ همه مين ؟
ـــ اللى انت خايف منهم .
ـــ مهما كان .. ده تصرف غبى .
ـــ كله يتصلح .

وتتوقف أصوات التحيات الآتية الينا من **عنبر (٢)** واقول لوليم :

ـــ طولة البال تهد الجبال .
ـــ يظهر انه تدارك خطأه .

ويسحب وليم البطانية على جسمه الطويل الممدد على « برشين » يكمل أحدهما الآخر ، فلو نام على « برش » واحد لاتجد قدماه سوى **الاسفلت** لترقدا عليه . بينما يحاول الزملاء أن يعرفوا العلاقة بين غضب وليم وبين التحيات التى وصلتنا من المعتقلين الذين أخذوا السجاير .وحتى اليوم لا يعرف معظم الزملاء سر هذه العلاقة . كانت سرا لا يمكن أن نبيح به لهم ليس لعدم ثقتنا بهم ، ولكن احتراما لكلمة ارتبطنا بها مع المأمور .

ومرت الايام الباقية من **أكتوبر عام ١٩٥٩** والاسبوع الاول من نوفمبر ونحن المسجونون نعيش حياتنا التقليدية فى السجن ، بينما كان المعتقلون يعاملون هذه المعاملة الشاذة . **وفى مساء ٧ نوفمبر ١٩٥٩** علمنا من أحد السجانة خبر وصول **اللواء اسماعيل همت ومعه فرقة ((التعذيب))** الى بلدة « المحاريق » ! **وكان يوم ٨ نوفمبر ١٩٥٩** يوما داميا ، أحكى لك عنه فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

٣ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـــالة رقم (٥١)

حـــبيبتى :

كانت ساعات القلق والمعاناة التى مرت بنا خلال ما يزيد عن سبع سنوات عشناها فى **السجون** المختلفة ، وعشـــتيها أنت معنـــا من خلال رسائلى السابقة اليك يا حبيبتى ، يقل حجمها عن تلك الســـاعات التى عشناها فى مساء **يوم ٧ نوفمبر ١٩٥٩** . بعد حوار سريع بين الزملاء بعد أن سمعنا خبر وصول همت الى بلدة « المحاريق » ومعه فرقة التعذيب وكانت الساعة حوالى التاسعة مساء ، وضح لنا كل شىء . **عملية تعذيب وحشية** ستبدأ فى صباح الغد لزملائنا **المعتقلين** فى عنبر (٢)، وهناك احتمال أن يشملنا هذا التعذيب ، لكنه احتمال ضعيف فما حدث فى الايام الماضية يشير الى ذلك . الاحتما ل الاكبر أن تكون مهمة همت قاصرة على المعتقلين . كان مجرد احتمال استبعادنا من التعـــذيب المنتظر غدا على يد السفاح همت أقسى من كل تعذيب يمكن ان يتصوره انسان . كيف ستكون حالتنا غدا ونحن نسمع ، ولا نرى ، ما يجرى لزملائنا من تنكيل وتعذيب واهانة وهم على بعد خطوات منا . ما الذى يمكن أن نفعله من أجل زملائنا ؟ وهل نملك شيئا نفعله غير الاحتجاج ؟ وهل يمكن أن يفيد أى احتجاج من أى نوع ؟ من المؤكد أن اضراره سوف تكون كبيرة علينا وعليهم . **أيهما أقسى على النفس ، التعذيب البدنى أم العذاب النفسى ؟** العذاب النفسى يفوق التعذيب البدنى مئات الاضعاف . ويصرخ احد الزملاء :

ـــ لازم نتضامن معاهم .
ـــ وهل يجدى ؟
ـــ بل اضراره معروفة سلفا .
ـــ أفضل من عذابنا هذا .
ـــ ليست قضية ذاتية .
ـــ زهقنا بقى من الموضوعية .
ـــ موقف انتحارى ؟
ـــ وهل نجلس هكذا ؟
ـــ ربما كانت قمة البطولة .
ـــ البطولة أن نفعل شيئا .
ـــ والمغامرة ليست بطولة .
ـــ والاحتجاج مغامرة ؟
ـــ اذا لم يحدث فى وقته .
ـــ نسكت اذن ؟
ـــ بل ننتظر .
ـــ حتى متى ؟

ـ قد لا نفعل شيئا .
ـ وقد نفعل .
ـ هذا ما قلته .
ـ لم تحدد شـــكل .
ـ اخشى ان نستسلم .
ـ ويجب أن نخشى عبث الاطفال ايضا .
ـ نتفق فى المضمون .
ـ ونختلف على الشكل .
ـ وهذه هى القضية .

انها قضية كل انسان فى كل زمان وفى اى مكان . **الشكل والمضمون . قضية الانسان فى كل العصور . قضية وجوده وسر حياته .**

لا اذكر ان عينى او عينا اى زميل غفلتا لحظة واحدة طول الليل ، ما اتذكره جيـــدا هو صـــوت **الســـجان** فى الصباح يقول وهو يضرب كفا على كف :

ـ ايه اللى جرى فى الدنيا ؟
ـ خـــير .
ـ خير ايه .. همه دول حيلتهم الا الشر .
ـ بيعملوا فيهم ايه ؟
ـ اللى شفته . اللواء همت ومعاه المأمور وشوية ضباط قاعدين تحت مظلة . وطابورين من الجنود واقفين ماســـكين **المدافع الرشاشة** ، وعساكر راكبه خيل وفى أيديها **كرابيج** .

كان من المستحيل أن نرى شيئا مما يـــدور خارج **الزنزانة** وعلى بعد خطوات منـــا . كانت زنزانتنا لا تطل نوافذها على حوش السجن حيث تدور « المعركة » .

وكان السجان الصديق هو العين التى نرى بها ما يجرى ، أصوات أقدام كثيرة تجرى فى الحوش ، **وطلقات رصاص** ، وصرخات الســـجانة تعـــوى :

ـ **اجرى . اجرى . اجرى .**

ويسرع السجان ليرى من باب العنبر . تمضى دقائق ونسمع أصوات تصرخ :

ـ **اركع . اركع . اركع .**

طلقات رصاص . أصوات أقدام الخيـــل تختلط بأصوات صراخ يعـــلو :

ـ اسمك يا كلب ..

— اسمك يا (..)

قلوبنا تسقط الى أقدامنا مع كل صوت مكتوم يصل الينا من بعيد . ورعشة تجرى فى كل أجسامنا مع كل طلقة رصاص نسمعها .

ويأتى السجان ينقل ما رآه فى الدقائق السابقة ، خمسة يخرجون من باب العنبر عراة كما ولدتهم أمهاتهم ، يحملون أمتعتهم فى يد ، وملابسهم التى خلعوها على باب الزنزانة فى اليد الاخرى . أمامهم عسكرى وخلفهم عسكرى كل منهما يحمل مدفعا رشاشا . وما أن يصلوا الى بوابة السجن الخارجية حتى تدوى الصرخات :

— اجرى .. اجرى .

ويجرون وسط طابورين من الجنود يحملون **الشوم ، والكرابيج ، والبنادق** . وينهالون عليهم ضربا عشوائيا ، العين ، الراس ، الكتف ، أى جزء فى الجسم ، وصرخات الجنود تعوى ، والخيل يجرى ، ونار مشتعلة وقودها **أمتعة المعتقلين** يلقون بها فى النار . وعند نهاية سور السجن ، قرب بوابته ، جلس **السفاح** والى جانبه مأمور السجن والضباط ، وأمام **محكمة التفتيش** يأخذون « طريحة » أخرى . ضرب بالعصى ، ودبشك البنادق ، والسياط ويصرخ السفاح :

— اسمك ايه يا ولد ؟

— ...

ويتكرر المشهد نفسه عند عودتهم . لتبدأ الدفعة الثانية ، ثم الثالثة ... **رحلة العذاب** ، ذهابا وايابا . **أربعون مرة ذهابا ، وأربعون أخرى ايابا** ، فقد كان عددهم **٢٠٠ معتقل** .

وقبل أن تغرب شمس يوم لم تطلع ، نسمع باب عنبرنا يفتح وصوت يصرخ عاليا :

— **انتباه** .

وننتظر فى تحفز ، ماذا نفعل **لو جاء السفاح الينا** ؟ سيكون تحديا لمشاعرنا وسوف نعلن استنكارنا مهما كانت النتيجة . لقد تعذبت نفوسنا وتمزقت قلوبنا ، وتعذيب أجسامنا أهون بكثير ، واتفقنا بسرعة .

أقدام كثيرة تدخل العنبر . ونرى همت يمرق كالسهم لا يلتفت يمينا أو يسارا ، ويهرول وراءه **المأمور والضباط وفرقة التعذيب** ، يصلون الى آخر العنبر ويعودون بالسرعة نفسها . وعند باب العنبر نسمع صوت المأمور يقول :

— أنا عملت معاهم اللازم يا أفندم .

ونسمع صوت باب العنبر وهو يقفل . وتمضى دقائق نسمع بعدها « بروجى » اللواء يصرخ ، ليعلن انصراف **السفاح** .

— **ربنا ينتقم من الظالم** .

جسد صوت السجان وهو ينطق بهذه الكلمات كل معاناة الفلاح المصرى عبر آلاف السنين من حكامه الظالمين الذين توارثوه .

— الحمد لله .. ربنا نجاكم .

وينفذ الى أعماقنا صوت **ابن البلد** . **ابن بولاق والسيدة زينب وباب الشعرية والدرب الاحمر** وغيرها من الاحياء الشعبية ، صوت ودود انسانى .

— كانوا رجالة حقيقى .
— انت شفتهم ؟
— كنت واقف فى الحوش .
— اشتركت فى المعمعة ؟
— حظى كويس .. كنت فى الراحة .. الحمد لله .

ويكمل قائلا : كانوا رجالة . كان فيهم بطل حقيقى . **فخرى لبيب** . أعرفه . بعد ما وصل للواء همت صرخ فى وشه قال له « انت قاتل » وراح تدفع الثمن . صرخ همت ونزلت العساكر عليه **بالشوم والكرابيج** لغاية ما وقع على الارض . همت قرب ناحيته وضربه بجزمته . وأمر بجلده ، ثلاث سجانة نزلوا عليه بالكرابيج . أكثر من **سبعين** جلده لغاية يا ولداه ماوقع على الارض وبجزمته قلب رأس المسكين وقال بحقد « لسه عايش يا ابن الثور » . وبعدين شالوه زملاؤه وراحوا بيه على العنبر والضرب شغال عليهم .

ويختم الرجل حديثه بدعوته لنا . دعوة صدرت من أعماقه :

— الله ما يرويكم يوم زى ده .
— ايه اللى حصل لما جه همت هنا :
— ولا حاجة .. مشى لغاية آخر العنبر ورجع .
— سمعنا المأمور بيقوله عملنا اللازم .
— المأمور طلع جدع . قال له كده علشان يغور بقى .

ويزحف الظلام ولاول مرة منذ ٢٤ ساعة نحس بلحظة هدوء ، وترتفع أصوات الزملاء فى عنبر (٢) يغنون وينشدون ، **بلادى . بلادى . بلادى . لك حبى وفؤادى** . وتعلوا أصواتنا تحيى بطولة الزملاء .

ويسود الصمت . قاسينا كثيرا من الالام ، لكن أقساها هى تلك تلك التى لم نعانيها بعد . « حريق » الصباح الذى أشعله همت تخمد

السنة لهيبه تدريجيا ، ويقذف الهواء الهواء بدخانه الينا يضيف الى سواد الليل سواد السفاحين . وتدريجيا تغمض عيناى فالجسم مهدود رغم انى لم امش خطوة واحدة طول اليوم . وتقفز الى ذاكرتى كلمات ناظم حكمت :

أحلم انى خارج سجنى فى دنيا مشرقة حلوة .
لم أر نفسى فى الحلم سجينا أبدا .
لم أسقط فى الحلم من الجبل الى الهوة أبدا .

ولاول مرة منذ اكثر من سبع سنوات ، اكتشف اننى حقا « لم أر نفسى فى الحلم سجينا أبدا » . أيضا لم أر نفسى سجينا بعد الخمس سنوات التالية . والغريب اننى حلمت بالسجن بعد خروجى منه عدة مرات !

ويطلع الصباح ونستيقظ على صوت « بروجى » **اللواء** . جاء **السفاح** مرة اخرى . **ما الذى دبره فى ذلك اليوم ؟**

لقاؤنا فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٤ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـــالة رقم (٥٢)

حبيبتى

لم تكن شمس يوم ٩ **نوفمبر ١٩٥٩** قد أشرقت بعد حين استيقظنا على صوت « **بروجى » اللواء** ، ما كدت أفتح عينى حتى همس وليم طانيوس فى أذنى :

ـــ المعتقلين كلهممجتمعين فى الحوش .

قلت والنوم مازال يغالبنى :

ـــ ويظهر همت وصل .
ـــ سأطلب مقابلة المأمور .
ـــ تفتكر ممكن يقابلك دلوقت .. على العموم حاول .

ونادى وليم السجان :

ـــ ما فتحتش الزنزانة ليه ؟
ـــ ماعنديش أوامر .
ـــ خلينى أقابل ضابط العنبر .
ـــ لسه ماجاشى .
ـــ ايه اللى بيحصل فى الحوش ؟
ـــ كل المعتقلين قاعدين على الارض ، وحواليهم عدد كبير من السجانة شايلين شوم وبنادق ، وهمت والمأمور واقفين قدامهم .
ـــ ماعندكشى فكرة ناويين على ايه ؟
ـــ يظهر انهم راح يطلعوا للعمل فى « الجبل » .

وتظل الزنزانة مغلقة علينا ، ولا نعرف ماذا يجرى فى الحوش مع زملائنا **المعتقلين** ، حتى الساعة العاشرة صباحا حين يأتى ضابط العنبر ويأمر بفتح الزنزانة للذهاب الى دورة المياه وللفسحة فى « طابور » الصباح . ونسمع من بعض السجانة ما حدث صباح اليوم :

كانت رياح ذلك اليوم خفيفة لكنها مثلجة ، **والمعتقلون** يجلســـون القرفصاء ، أجسادهم **شبه عارية** لا يسترها سوى بعض الخرق البيضاء وظلوا جالسين هكذا أكثر من نصف ساعة ، يحيط بهم السجانة يحملون الشوم والبنادق ، ويقف أمامهم **مأمور السجن وضباطه** . ثم نفخ بروجى اللواء وجاء همت ومعه **فرقة التعذيب** . ثم صدرت الاوامر بالنهوض والتقدم نحو بوابة السجن . وساروا فى أربع مجموعات متراصة تحرسهم المدافع الرشاشة من الجانبين وتنهال عليهم الشتائم وضربات الشوم والخيزران ،

وعند بوابة السجن ، وعندما بدأ المعتقلون يخرجون طلب همت من مأمور السجن ان يوقع على ((**كشف البوابة**)) ، وصمت المأمور لحظة ثم نادى على الضابط **عبد العال سلومة** وكيل السجن — وكان قد نقل الى المحاريق منذ ايام — وامره ان يوقع على الكشف .. وكانت المفاجأة :

قال الضابط بصوت مسموع :

— متأسف يا افندم .. انها ليست مسئوليتى .

كان هذا الموقف من الضابط **عبد العال سلومة** بالذات ، مفاجأة لكل الزملاء خصوصا أولئك الذين تعاملوا معه فى **سجن القناطر الخيرية** . كان دائما يقوم بحملات لتفتيشهم وهدفه أن يعثر على ((مطبوعات)) تصلح لعمل قضية ضدهم ، وكان لا يخفى عداؤه لهم ويعلن صلته بالمباحث العامة . وكان حضوره فى أوائل نوفمبر الماضى ، قبل أيام من مجىء همت ، مؤشرا لما حدث أمس ، فهل كان يعرف ما يدبره همت ضد المعتقلين واستيقظ ضميره فجأة واتخذ هذا الموقف ؟ ولماذا تعمد أن يعلن عدم مسئوليته بصوت عال ليسمعه كل المعتقلين ؟ هل كان يريد أن ينبههم الى ما يدبر ضدهم ؟ ولماذا ؟ أم أن الامر كله كان تناقضا بين المباحث العامة وبين همت ((ضابط الجيش)) ثم السجون ؟ ولكن لحساب من يعمل همت ؟ ربما لحساب المخابرات العامة ؟ ومرت لحظات بعد أن وقف عبد العال سلومة هذا الموقف ، قال بعدها الجنرال همت بصوت مكسور :

— خلصنا يا حضرة المأمور .. دول مسئوليتك ..

ووقع المأمور على كشف البوابة .. بعد أن أكد مسئوليته كتابة فى الكشف .. ثم بكلمات قالها بصوت عال :

— أيوه .. دول مسئوليتى .

يخرج موكب ((**المعتقلين**)) من بوابة السجن . **الجنرال همت** ومعه مأمور السجن ، وفرقة التعذيب فى عربات الجيب فى المقدمة .. ثم طوابير «المعتقلين» يحرسهم جنود «الجنرال» همت **بمدافع رشاشة** .. وفى الخلف فرقة السجن تحمل المدافع والبنادق . وأخيرا وصل الموكب الى الموقع ، على بعد أربعة كيلو مترات من السجن .. كان المكان اشبه بوادى صغير يقع بين تلين من الكثبان الرملية ، وبسرعة صعد همت على الكثبان الرملية وبنفس السرعة **احاطت** فرقته الزملاء من كل جانب **بالمدافع الرشاشة** ، وتمر دقائق معدودة ينادى بعدها همت على المأمور كى ينسحب هو وضباطه وجنوده . ويصرخ **الزميل سيد عبد الله** بأعلى صوته :

— يا سيادة المأمور .. نحن أمانة فى عنقك وستتحمل المسئولية .

ويصدر المأمور أوامره لضباطه وجنوده بالالتفاف حول المعتقلين والبقاء معهم . لقد تصرف فى اطار مسئوليته . ويعود همت ينادى على

المأمور كى ينسحب هو وجنوده . ويتجاهل المأمور نداء همت ثم يقول بصوت أعلى من صوت همت :

— اسمع انت وهو .. انا عندى أوامر **بضرب النار** عند أى تمرد .. فاهمين .. مش عاوز أى تمرد . دلوقتى الفئوس والغلقان راح تتوزع عليكم .. مطلوب انكم تنقلوا التلال الرملية دى .. أى تقصير فى العمل راح أضرب بالنار فورا .

لم يكن تهديد المأمور للمعتقلين ، فى الوقت نفسه الذى كان يتجاهل فيه أوامر رئيسه همت ، مجرد تصرف فى اطار مسئوليته فقط ، انما كانت هناك الى جانب هذا دوافع **انسانية** جعلته يتخذ هذا الموقف . هذه حقيقة لا تقلل من قيمتها أوامره بعد ذلك للعساكر لضرب الزملاء بالشوم والعصى ، فقد كان ذلك فى المحصلة النهائية انقاذا لهم من **مجزره** كان « الجنرال » همت قد دبرها لهم .

وبدأ الضباط والسجانة يقسمون الزملاء الى **« مصالب »** أى فرق عمل ويوزعون عليهم الفئوس والغلقان وادوات العمل الاخرى ، وهم لا يكفون لحظة واحدة عن الشتائم والضرب .

ويبدو أن همت بعد فشل مؤامرته ضد المعتقلين لم يجد سوى أوامره يصدرها للعساكر فيصرخ بأعلى صوت :

— العساكر تشد حيلها شوية فى الضرب .. الاولاد اللى هناك دول ماشيين على مهلهم . بيتفسحوا والا ايه ؟ ولاد الـ .. ضرب الكرابيج أحسن .. عاوز أسمع صراخهم .. أضربوهم زى **الكلاب** .

ويقول أحد محدثينا من السجانة .

— ورغم الضرب الشديد .. لم نسمع من أى واحد منهم صرخة واحدة .

ويقول سجان آخر :

— ولما نفخ البروجى فى النفير .. ومشى اللواء .. توقف الضرب وبصقنا عليه جميعا .. **المعتقلين والسجانة** .

وكانت الساعة قد قاربت الرابعة بعد الظهر ، حينما عاد الزملاء الى السجن .

بعد أن غادر همت المحاريق الى القاهرة ظل الزملاء يخرجوون الى العمل كل يوم ، وتدريجيا بدأت المسألة تتحول الى طابور يومى يبدأ فى الصباح حتى موقع العمل ، وهناك كانوا يقومون بنقل التراب من مكان الى آخر .. تنفيذا للتعليمات . ومنذ اليوم الثالث لذلك اليوم المشهود ، ٨ **نوفمبر ١٩٥٩** ، بدأنا نحن المسجونين نخرج للعمل فى المرافق العامة للسجن . الفرن ، والمخبز ، والمطبخ وبدأنا نلتقى بعدد من الزملاء المعتقلين ونسمع منهم قصصا طريفة .

الزميل **عبد الملك خليل** كانت مهمته أن يقبع فوق قمة تل عال فاذا لمح عربة متجهة نحو زملائه يصيح :

— بلوهام .. بلوهام ..

فينهض الجميع الى الفلقان ليحملوا الرمال .

وكانت « بلوهام » هذه من الكلمات الساخـرة ،التى تفتقت عنها روح عبد الملك خليل وهو رجل خفيف الظل . وله كلمات ساخرة كثيرة ، مثل : أى حاجة زى أى حاجة . « الحنجورى » ومعناها الكلام النظرى الذى لا معنى له . والاربعـة عشر كلمـة التى يحفظهـا المثقفون عن ظهر قلب .

ويحكى **محمود السعدنى** حكايته مع الشاويش متى وقد أصبحا صديقين بعد عشرة طويلة . ذات يوم لاحظ السعدنى أن الشاويش متى حزينا مهموما فحاول أن يعرف سبب حزنه :

— مالك يا شويش متى ؟
— اصل الوادابنى اخذ الاعدادية .

— طيب ودى حاجة تزعل يا حضرة الصول دا ابنك يبقى عبقرى .
— أصل اللى مضايقنى يا سعدنى ان الواد عاوز يكمل تعليمه والحال زى ما انت عارف يدوبك على القد .

— يا راجل عبقرى زى ابنك لازم يكمل تعليمه واهو التعليم بالمجـان ، وربنا يساعدك لحد ما يأخذ التوجيهية .

— طيب وبعد الثانوية يا سعدنى .. يروح فين ؟.
— يروح الجامعة يا حضرة الصول .

— جامعة ايه بس .. وأنا باستلف على ماهيتى علشان أمشى حالى .. تقوللى يروح الجامعة .

— طبعا لازم يروح الجامعة ولد عبقرى زى ده ما تحرموش من انـه يكمل تعليمه ويروح كلية الطب واللا الهندسة واللا الحقوق واللا الاداب ويبقى مثقف .

— مثقف .. يا فرحتى .. طب وبعد كده ؟

— ييجى معانا هنا يا حضرة الصول..أهم كل اللى انت شايفهم دولجم هنا علشان بقم مثقفين .

ولم يتحمل الشـاويش متى مجرد تصور ان يأتى ابنه العزيز الى «هنا» ليعامل معاملة « **الكلاب** » وقام ليضربه ، وجرى السعدنى وجرى وراءه.وتجمعت جوقة السعدنى — **أحمد البدينى المحامى والكاتب شوقى**

عبد الحكيم والعامل نصر عبد الرحيم ــ تحمى الســـعدنى من غضب الشاويش متى وتم الصلح بينهما.وعـــاد السعدنى والشاويش متى الى جلساتهما اليومية .

وتمر الايام .. والشهور

وتشهد الساعات الاولى لعام **١٩٦١** ضحكات صافية تخرج من أعماق أكثر الناس حبا للحياة خلال احتفالنا برأس السنة الجديدة .

أحكى لك قصته فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى

٨ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســــالة رقم (٥٣)

حبيبتى

لا أذكر اننى قبل دخولى **السجن** قد احتفلت بعيد **رأس الســنة** الجديدة سوى مرة واحدة ، هى ليلة **أول يناير ١٩٥٢** ، ففى تلك الليلــة فاجأتنى زوجتى السابقة «ميمى» برغبتها فى حضور حفلة تقيمها الجالية الايطالية بفندق « الكونتننتال » . كنت وقتئذ اعتبر أن حضور مثل هذه الحفلات مضيعة للوقت فضلا عن أنه تقليد « بورجوازى » يرفضــــه « المناضلون » ! ومع ذلك فقد ذهبت «مجاملة» لها ، وحتى لا أسبب لها حرجا أمام زملائها فى العمل اذا لم أذهب معها . وكانت هذه أول مرةأدخل فيها فندق « الكونتننتال » أيضا ! ومع أننى قضيت الليلة حتى الصباح أرقص مع «ميمى» ومع غيرها من الحسناوات **الايطاليات والمصريات ،** الا اننى لم احس لحظة بالاستمتاع ، ربما بسبب وخزات «ضمير مناضل» وربما لاننى مهما يكن الامر «شرقى» يرى فى مثل هذه الحفــلات خروجا على التقاليد ، وربما لعدم رضائى غير المعلن لمراقصة «ميمى» زوجتى لاشخاص غرباء ، وربما لشعورى بالذنب لارتكابى **« جريمة » فى حق الجماهير !** وعدت الى منزلى مع شروق شمس أول يوم فى العام الجديد مهموما حزينا وحرصت على أن أكتم «السر» عن زملائى حتى لا تتغير نظرتهم الى . قد تأخذك الدهشة يا جبيبتى حين أقول لك اننى بعد تلك المرة ، احتفلت فى **السجن** بليالى رؤوس اثنى عشر عاما جديدا ، وسوف تسألينى وعلى وجهك ابتسامة ماكرة ، **كيف أصبح الاحتفال عندكم برأس السنة الجديدة تقليدا «ثوريا» بعد أن كان «بورجوازيا» يا فرســان الاربعينات ؟**

حسنا .. اليك الاجابة يا ابنة الستينات :

رفضنــا يوما ومازال البعض حتى اليــوم يرفض كل ما يأتى من « البورجوازية » . وكان الاحتفال برأس السنة الجديدة من بين مارفضناه فى **الاربعينات والخمسينات** ،وكان من المفروض أن نقبلمضمونه الانسانى ونرفض بعض اشكاله التى تفرغه من مضمونه . ومضمونه يتمثل فىوداع البشرية لعام حافل بالاحداث .. واستقبال عام جديد صفحاته ما زالت بيضاء .. تحمل كل واحدة منها علامة استفهام كبيرة .. حول نوعالسطور التى ستملأها . وهل تكون تعبيرا عن طموح الانسان فى الحرية والاخاء والمساواة ، أم تكون سجنا جديدا لابطال الدفاع عن الحرية ؟

وكانت ليلة رأس سنة **١٩٦١** هى الليلة التاسعة التى نحتفل فيهــا بمولد عام جديد ، سبقها مناقشات مع **المــأمور** .

— كل سنة وأنت طيب .

ويضحك المـأمور قائلا :

— وانتم بالصحة والسلامة .. طلباتكم ؟
— ليس لنا طلبات .
— طيب طلبات زملائكم ؟
— أن تسمح لهم بساعة فرفشة .
— بسيطة .. نطلب اللواء همت بتلغراف ..
— اذا كان كده .. بلاش
— وهمه عاوزين أمر بالفرفشه ؟
— عاوزين لزوم الفرفشة .
— سجاير وشاى وحلاوة طحينية ؟
— وحاجة تانية كمان .
— ايه ؟ رقاصة ؟
— لا . لا الموجود يسد .

ويضحك قائلا :

— يسد النفس طبعا .
— ويفتحها أحيانا ..
— ويفتحوا نفسهم ازاى ؟
— يتجمعوا مع بعض شوية كده .
— امتى ؟ وفين ؟
— فى صالة العنبر .. بالليل .
— كفايه .. للساعة اتناشر .

وحوالى الساعة العاشرة مساء **يوم ٣١ ديسمبر ١٩٦١ ذهب المأمور** ومعه زميلان من المسجونين الى عنبر المعتقلين . صاح السجان من داخل العنبر حين رأى المأمور :

— انتبـــــاه .

وضحك المأمور وقال :

— دلوقت يفتكروا انها « **كبســـــة** » .

فتح السجان باب أول زنزانة .. وصاح المأمور بصوت غليظ وهو ينظر الينا وعلى وجهه ابتسامة ماكرة :

— كله يطلع بره ..

وفتحت زنزانة والثانية ، والثالثة ، والرابعة ...

— يالله يا معتقل انت وهو ... كله يطلع بره ..

وخرج الزملاء من **زنازينهم** وهم يتساءلون فى دهشة :

ـــ ايه الحكاية ؟

ويرون مع المأمور زملاء لهم من المسجونين :

ـــ ايه الموضوع ؟

ويعلو صـــوت المأمور :

ـــ اقعدوا هنا .. على الارض .

وتزداد دهشتهم .. ويسألوننا :

ـــ فيـــه ايـــه ؟
ـــ وجايين معـــاه ليه ؟
ـــ وايه اللي انتو شايلينه ده ؟
ـــ سجاير !
ـــ شـــاى !
ـــ حلاوة طحينيه !
ـــ حلم والا علم ! ؟

ويرتفع صوت المأمور :

ـــ كل سنة وانتم طيبين .
ـــ وانت بالصحة والسلامة .
ـــ راح اقعـــد معاكم شوية ..

ويسرع السجان ليأتى بكرسى ليجلس عليه المأمور ، بينما يذهب بعض الزملاء لاحضار بطاطين من الزنازين ليجلسوا عليها . ويتسلم مسئول الحياة العامة السجاير والشاى .

ـــ سيجاره بحالهـــا ؟
ـــ وشـاى ؟

ويقول مسئول الحياة العامة :

ـــ والحلاوة الطحينية .. تفطروا بيها بكره .

ويبدأ الاحتفال حين يرتفع صوت الزملاء :

بلادى . بلادى . بلادى .   لك حبى وفؤادى .

بعدها يقول **الدكتور فايق فريد** كلمة شكر فيها المأمور الذى ينصرف بعد ذلك . كانت تلك هى اول مرة اقابل فيها الدكتور فائقنائب دائرتى (روض الفرج) والتى يدخل فى نطاقها شارع ابن الرشيد الذى كنت أعيش فيه . رشح نفسه عام ١٩٥٧ **ونجح بأغلبية ساحقة** وحين اعتقلوه لم يفكروا حتى فى رفع **الحصانة البرلمانية** عنه ! .

سألنى عن مجدى فهمى
ـــ هل تعـــرفه ؟

ـــ عرفته من والدته .
ـــ **ازاى ؟**
ـــ كانت والدته نشيطة جدا أثناء المعركة الانتخابية . اليها يرجع الفضل فى كسب أصوات معظم سيدات الحى ، ومعها بقية عائلة **مجدى** .. خصوصا أخوه مصطفى وزوجته بدريه .

ويستمر الاحتفال حتى بعد الثانية عشر بقليل . ويهنىء الزملاء بعضهم بعضا بالسنة الجديدة ، ويعودون الى زنازينهم ، ونعود نحن الى عنبر (٢) لاجد الزملاء يواصلون احتفالهم برأس السنة الجديدة ونسمع أصوات الزملاء المعتقلين فى عنبر (١) يواصلون احتفالاتهم أيضـــا فى زنازينهم . وفجأة توقف الزملاء المعتقلين عن الاغانى والاناشيد وسمعنا أصـــوات مكتومة ..

ـــ ايه الحكاية ؟

وننادى على السجان ونسأله :

ـــ **دفعه جديدة من المعتقلين** وصلت دلوقت .
ـــ وبيضربوهم والا ايه ؟
ـــ المأمور وبعض السجانه نازلين فى المعتقلين ضرب .

ونتساءل فى دهشة :

ـــ ده المأمور كان لسه بيقول لهم كل سنة وانتو طيبين .
ـــ ايه اللى خلاه يضربهم وكان لسه قاعد معاهم ؟
ـــ يمكن يكون خايف ؟
ـــ من مين ؟
ـــ بيتكلم كثير عن عناصر ســـيئة ..
ـــ ويمكن خايف من الضابط **عبد العال سلومة** .
ـــ ويمكن حفلة استقبال للزملاء الجدد .
ـــ تفتكروا المأمور له صلة بالمباحث ..
ـــ المؤكد ان الضابط **عبد العال سلومة ضابط مباحث** .
ـــ ولكن ما أظنش المأمور ضابط مباحث ؟
ـــ وده اللى يخليه يخاف من سلومة .

وبعد أقل من ساعة يعود الزملاء فى عنبر (٢) الى الغناء ونسمع أصواتهم عالية ، وضحكاتهم أعلى .

ـــ كانت علقـــة بسيطة .
ـــ علشان ما ينسوش ..
ـــ ولا يتعزلوا عن الواقع ..

وعرفنا فى صباح اليوم التالى أن **الدفعة الجديدة من المعتقلين** ممن قضوا السنة الماضية فى **السجن الحربى** نظرا لان معظمهم من المجندين والضباط ومعهم أيضا عشرون من أبناء **قطاع غزة** ، منهم الشـــــاعر

الفلسطينى **معين بسيسو وعبد القادر يسن** ومدير التعليم فى قطـــاع غزه . وعرفنا أن هناك معتقلين جدد ألقى القبض عليهم ، وانهم ومعهم الزملاء الذين تمت محاكمتهم وصدق على أحكامهم يقيمـــون الآن فى معتقل **أوردى أبو زعبل** . وأن ما تم فى **الواحات** على يد همت وفرقته تم أيضا فى **أوردى أبو زعبل** . وانهم يخرجون للعمل فى الجبل ويتعرضون للتعذيب الوحشى كل يوم اثناء خروجهم للعمل ، أو اثناء تواجدهم فى العنابر مساء . وبالاضافة الى ذلك يجمعـــون كل يوم فى الصـــباح للقيام بطابور **رياضى** لـــدة نصف ساعة حيث يطلب منهم أن يهتفـــوا هتافات معينة . وسمعنا عن الموقف البطولى **للدكتور اسماعيل صبرى** . حين طلب منه **حسن منير** قائد المعتقل أن يغنى أغنية « جمـــال يا مثال الوطنية » .. وقال له :

— غنى يا ولد .

كان الزميل **اسماعيل صبرى** يقف فى الصف الاول ، خرج منه وتقدم خطوات الى الامام ، وقال بصوت عال :

— نحن نرفض أن نغنى تحت ظل الرشاشات والاسلحة والعصى ، نرفض أن نغنى بالامر . أى أغنية وطنية مكانها الخارج ، حيث **الحـــرية** . نحن كوطنيين نتشرف بغناء أغانى وطننا الحبيب ولكننا نرفض أن نغنيها تحت ظل **الارهاب** .

وتنهال على **اسماعيل صبرى** ضربات الشوم والعصى ، حتى يسقط على الارض ورأسه يسيل منه الدماء .. والضرب لا يتوقف .. ولا تخرج صرخة واحدة من فم اسماعيل .

ونعرف خبر استشهاد **الدكتور فريد حداد** ، الطبيب الباطنى المشهور الذى يحبه كل فقراء شبرا الذين كان يعالجهم بالمجان .

حين ألقى القبض عليه وذهبوا به الى **أبى زعبل** ضمن مجموعة من الزملاء .. جردوه من ملابسه والقوا به أمام **حسن منير** قائد المعتقل .. سأله الضابط يونس مرعى :

— اسمك ايه يا ولد ؟
— الدكتـــور فريد حداد .
— دكتور يا ابن (..) اضربه يا عسكرى

وانهال عليه العسكرى ضربا بالشوم والعصى حتى حطموا راس البطل وجسده .. ذهب وهو يردد كلمات **ناظم حكمت** :

وسأذهب لا استشعر لوعة .

الا لوعة أغنيـــة لم تكمل .

بعض السفاحين هم الذين ذهبوا بلوعتهم .. **اسماعيل همت** انتقمت منــه السماء فى حادث سيارة ، **وعبــد اللطيف رشــدى** الذى قتل **شــهدى عطية الشــافعى** قتلته رصاصة مســجون خرج من الليمان لينتقم منــه بعد كل العذاب الذى لقيه على يــد ذلك الضــابط الســفاح .

وفى المساء بينما كنا نبكى فى صمت شهداءنا فى ذلك اليــوم — **فريد حداد ، ومحمد عثمان ، ورشدى خليل ، وعلى متــولى الديب** — كان رمزى يوسف الذى يقوم بالاستماع يوميا الى الاذاعات العالميــة ينقل الينا اهم التعليقات السياسية عن : الخلاف بين قادة **حزب البعث** وبين **الرئيس جمال عبد الناصر** ، والاتفاق المصرى الســوفيتى ببنــاء المرحلة الثانيــة للســد العالى ، وتحليق فالنتينــا رائدة الفضــاء السوفيتية بمركبتها فى الفضاء ، وبينمــا كان الزميل المســئول عن نشرة الاخبار اليومية يقوم بكتابتها كى تذاع على الزملاء فى موعــدها اليومى المعتــاد ، وقبل أن نبدأ فى مناقشة ما وصلنا من أخبار ، نسمع صوت مفتاح يوضــع فى باب الزنزانة ، والمأمور يقف على بابهــا ومعه سجان وهو يصيح :

— عاوز دكتور .. حد فيكم دكتور ؟.
— ايوه .. الدكتور شريف حتاته .. وصلاح حافظ ..

ويذهب المأمور مهرولا الى الزنزانة المجاورة .. ويصيح :

— شريف .. صلاح .. تعالوا حالا ..
— خير فيــه ايه ؟
— فيــه أطباء تانيين ..
— أيوه .. **حمزه البسيونى . مختار السيد ، شكرى عازر ، رزق عبد المسيح . عبد المنعم عبيد .**

ويقول المأمور :

— تعالوا معــايا .. وروح انت يا سجان انده الدكاترة دول وحصلنى على البيت ..

وتذهب مجموعة الاطباء من المسجونين والمعتقلين مع مأمور السجن الى مسكنه الذى يقع بجوار السور الخلفى للسجن .

ويقول لهم المأمور فى حزن يمزق القلوب :

— ولادى راح يموتوا .. انقذوا لى ولو واحد بس ، ولد واحد ..
— اطمئن .. المسألة مش خطيرة للدرجة دى ..
— صحيح يا أولادى .. صحيح .. انتا معاكم ويساعدكم ..

أطفال المأمور تتراوح أعمــارهم ما بين ٥ سنوات و ٣ سنوات . كانوا يلعبون فى حجرة نوم والديهما اللذين كانا مشغولين عنهم حيث كانوا

فى حديقة « الفيلا » . وتصادف أن ذهبت الام الى غرفة النوم لتحضر كتابا لزوجها كان يقـرأ فيه ، فوجدت الاطفال ملقين على الارض فى حالة **اغماء** ، وعلبة حبوب الضغط ، التى يستعملها المأمور ملقاة على الارض ، بعض حباتها ملقاة الى جوارهما ، ومعظم ما كان فى العلبة من حبوب كانت فى جوف الاطفال . **وصرخت الام** .. وجاء الاب على صراخها .. ثم هرول مسرعا الى السجن يطلب نجدة الاطباء المسجونين والمعتقلين الذين هبوا سريعا لانقاذ اطفاله بعد أن عملوا لهم غسيل معدة بالوسائل البدائية ، وسهروا الى جوارهم حتى الصباح .

— الحمد لله .. الاولاد كويسين قوى ..
— اشكركم يا أولادى .. ربنا أنقذهم على أيديكم .
— خللى المدام تحضر لهم فواكه وشوية خضار طازة ..

وتسأل الام :

— خضار زى ايه ؟
— عصير طماطم .. خضار مسلوق ..

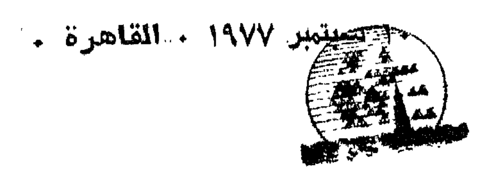
وتقول الام بحسرة

— مفيش حاجة من دى ابدا ..
— ممكن الفواكه تسد .. ان كان فيه .
— فيـه برتقال ..
— كويس قوى .. ولون كمان .

وبينما كان الزملاء الاطباء يجلسون على « كراسى » فى حجرة الصالون .. يدخنون **السجاير** ويشربون **القهوة** ، كان الحوار يجرى بينهم وبين المأمور عن ندرة الخضار الطازج فى بلدة « **المحاريق** » بسبب صعوبة المواصلات مع المناطق المجاورة التى يزرع بها خضروات وفواكه . وكيف أن الواحات الداخلة التى تبعـد حوالى **٢٠٠ كيلو متر** عن الواحات الخارجة غنيـة بالفواكه والخضـار ، ولـكن لا توجد وسائل نقل حديثة الا عربة واحدة تأتى كل يومين محملة بالخضر والفواكه التى « يلهفها » موظفو المحافظة ولا يتركون شـيئا للاهالى . ويقتـرح الزملاء عمل مزرعة كبيرة يديرها ويشرف عليها نزلاء السجن من مسجونين ومعتقلين الذين يزيد عددهم عن ٤٠٠ .

وتبدأ قصة المزرعة .. أحكيها لك فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

سبتمبر ١٩٧٧ .. القاهرة .



الرســـــالة رقم (٥٤)

حبيبتى

كان أحد المشروعات « **الضخمة** » التى كتبت عنها الصحف كثيرا هو زراعة الواحات الخارجة وأطلقوا عليها اسم ((**الوادى الجـــديد**)) . ومن القاهرة الى الواحات ذهب عدد كبير من الخبراء والمهندسين لدراسة هذا المشروع . قالوا كلاما كثيرا وكتبوا تقريرات أكثر ، واضافت الصحف الى ما قالوه وما كتبوه . صفحات كاملة تبشر ((**بالخير الوفير**)) . كان ذلك منذ عام مضى ويزيد عليه بضعة أشهر منذ جئنا الى سجن **المحاريق** . وفجأة توقفت الصحف عن الكتابة حول هذا الموضوع ، ثم سمعنا أخبار **فشل** المشروع ، وقالوا ان السبب هو قلة **المياه الجوفية** .

كان من الطبيعى أن يضع الزملاء المهندسون كل هذا فى اعتبارهم وهم يخططون لاستصلاح وزراعة **١٠٠ فدان** من الارض فى المنطقة التى تقع بين السجن وبيوت الضباط ، وبها بئر واحد للمياه . سأل المأمور زملاءنا المهندسين وهم يعرضون عليه المشروع :

— هل تنجحوا فيما فشلت فيه الحكومة .

وقال الزملاء بثقـــة :

— النجاح مضمون ١٠٠٪ ..
— ليس عندى ما اقدمه لكم ..
— لا نحتاج سوى لعدد من الفئوس والغلقان .

ويضحك المأمور قائلا ..

— وآهى الحمد لله متوفرة . بتستعملوها فى الجبل .
— هذه المرة سنستعملها فيما هو مفيد .
— هل لديكم خبـــرة ؟.
— **عبد المنعم شتلة وحسين طلعت** مهندسان زراعيان .
— والافندية المثقفين يعرفوا يزرعوا ؟.
— هم راس مالنا ، وبيننا عدد من الفلاحين .
— والبذور ؟
— عندنا شوية من أيام جناح .. ونشترى كمان .
— مفيش ميزانية للمشروع ده .
— لا نحتاج لمليم واحد من الحكومة .

ويضحك المأمور ..

ـــ وهيه يعنى راح تديكو حاجة ؟

بعد أن وضع الفنيون الخطة ، رفع السياسيون شعار « **طبق خضار طازج** » لكل زنزانة يوميا . ولم يكن الزملاء فى حاجة الى تحميسهم أو توعيتهم .. فكلهم سياسيون ، وكلهم يلمسون الواقع ، حاضره .. ضعف وهزال وصفرة على الوجوه وأمراض منتشرة ، حصيلته حتى اليوم : سقوط **على متولى** العامل بشبرا الخيمة بعد أن أصيب بدوسنتاريا قاتلة ، والمهندس **رشدى خليل** مات فى زنزانة مظلمة بعد أن أصيب بحمى قاتلة . ومستقبل هذا الواقع هو المزيد من أمراض تنتشر بين الزملاء لتفتك بعدد منهم . لهذا كان حماس كل الزملاء العمل فى المزرعة دفاعا عن ذاتهم وصمودا فى وجه الموت البطىء الذى بدأ يؤتى ثماره .

وبدأ الزملاء يعملون فى المزرعة بحماس وكلمات ناظم حكمت تملأ قلوبهم :

ويكبر الاصرار فى قلوبنا يردد
لابد أن نعيش .

كانت المزرعة مقسمة الى ثلاثة أقسام ، قسم **للمسجونين** ، وآخر **للمعتقلين** ، والثالث **للاخوان المسلمين** . وكان التنافس بين المزارع الثلاثة على أشده ، وقبل أن تنتهى عملية استصلاح الارض شهدت مزرعة المعتقلين مأساه هزليه . ففى فترة الظهيرة بينما كانوا يستظلون بظلال بعض شجر الخروع المجاور لبيوت الضباط من وطأة الشمس القاسية وكانت الاشجار محملة بثمار الخروع ، قال **ظريف عبد الله** المحامى وهو يلتهم ثمرة من تلك الثمار لمن حوله :

ـــ لذيذ .. طعمه زى اللوز .

وتساءل الزملاء ..

ـــ حقيقى لذيذ ؟.
ـــ مفيش منه ضرر ؟

وافتى الدكتور **مختار السيد** :

ـــ اكل الخروع صحى .

وراحت كل صيحات عم **نوح فلاح** « البحيرة » وتحذيراته مع الرياح :

ـــ يا زملاء .. الخروع « لا تأكله الحمير » !

ويزداد عدد الزملاء الذين يأكلون الخروع .

ويصرخ عم نوح :

— **يا ناس يا مثقفين .. راح تموتوا ..**

ولا فائدة . **هل يفهم الفلاح أكثر من الطبيب ومن المحامى ؟** . وبعد ما لا يزيد عن ساعة كانت كل ثمار شجر الخروع قد غابت فى بطون الزملاء . **هـل استبد بهم الجوع الى الحد الذى يلغى عقولهم ؟**

لم نكن نحن المسجونين نعرف شيئا مما حدث عند المعتقلين فى ظهيرة ذلك اليوم . وفى المساء بعد أن أغلقت علينا الزنازين سمعنا « خبط » على الابواب يأتى من عنبر (٢) :

— ماذا حدث ؟
— كبسة جديدة ؟
— وايه المناسبة ؟

ويقول السجان :

— المأمور ومعاه عدد من الضباط والسجانه دخلوا العنبر ..
— بيضربوهم ؟
— ماشفتش مع السجانة عصى .

ونسمع صوتا ينادى :

— يا سجان افتح على **الدكتور شريف حتاته** وخليه ييجى يكلم المأمور فى عنبر (٢) .
— لازم حد عيان ؟

ويقول **وليم طانيوس** « مسئول الادارة » بغضب :

— حاجة غريبة .. علشان واحد عيان يعملوا كل « الدوشة » دى ؟
— اصبر يا وليم لما تشوف ايه الموضوع ..
— حيكون ايه يعنى .. زملا هايفين ..
— ضرورى تكون حاجة تستحق .

ويخبرنا السجان الذى حضر لاصطحاب الدكتور شريف حتاته الى عنبر (٢) عن حالات تسمم كثيرة بين الزملاء .

— تسمم ؟ .. أكلوا ايه ؟
— حبوب زيت الخروع .

ونسمع الفصل الاول من القصة التى حكيت لك عنها يا حبيبتى فى هذه الرسالة . وكان التهام الزملاء المعتقلين **لحبوب زيت الخروع !** ثم نسمع من الدكتور شريف حتاته بعد عودته من عنبر (٢) مع « وش » الفجر الفصل الثانى من القصة :

بعد ساعة من اغلاق العنبر والزنازين ، بدأ عدد من الزملاء يحسون **بآلام حادة** فى أمعائهم . وعدد أصيب باسهال شديد ثم قىء . كان من

الواضح أن أعدادا كبيرة من الزملاء قد أصيبوا **بالتسمم** . وبدأ الذين لم يسقطوا بعد يدقون الابواب يستنجدون بالسجانة كي يفتحوا أبواب الزنازين . ومع كل لحظة تمر كان يسقط أكثر من زميل فاقد الوعى وقد انهكه الاسهال والقيء . وعندما وصل الخبر الى **المأمور** حضر بسرعة ومعه قوة السجن ، وفتح العنبر والزنازين التى تحولت بسرعة الى **مستشفى ميدان** ، وبدأ الزملاء الاطباء — وكان منهم عدد كبير لم يأكل حب الخروع — ومنهم الطلبة فى السنوات النهائية فى كلية الطب ، باجراء بعض الاسعافات ، وذهبت عربة السجن الى بلدة المحاريق لتحضر بعض الادوية .

وحتى الساعة الرابعة من صباح اليوم التالى كان الموقف خطيرا . حوالى نصف عدد المعتقلين يواصل **القيء والاسهال** ويصل ببعضهم الى مرحلة **خطيرة** فى حين كان هناك عدد آخر لم يخرجوا للعمل فى المزرعة وهؤلاء كانوا يقومون بخدمة المرضى .

وامتلا العنبر بالحركة والصراخ والتأوهات تماما كما يحدث فى مستشفى ميدان حرب . وقرر الاطباء نقل **٧٠ زميلا** على الفور الى مستشفى الخارجة فقد كان نبضهم ضعيفا ودخلوا فى مرحلة الخطر ، بينما اجرى للاخرين عملية غسيل للمعدة فضلا عن بعض المضادات للتسمم .

وظل السجن كله حتى ظهر اليوم التالى فى حالة حركة دائمة ، لانقاذ الذين كانوا على حافة الموت وظلوا فى غيبوبة وأمكن انقاذ حياتهم .

كان تأثر **المأمور** ((. . .)) بما حدث كبيرا ، وقام بتنفيذ كل ما نصح به الاطباء . قام بشراء كميات كبيرة من الطعام لهم وأصدر أوامره بعدم خروجهم الى العمل فى المزرعة حتى يتم شفاءهم تماما . وبعد أن تم شفاء المرضى من المعتقلين خرجوا جميعا للعمل فى المزرعة وهم أكثر حماسا .

واستمر العمل فى استصلاح **أرض ١٠٠ فدان** ما يقرب من ستة أشهر ، بعدها بذرنا الحبوب وأنبتت ثمارا يانعة . طماطم مرملة وخيار شديد الاخضرار ، وقته حلاوتها ملحوظة ، وفول أخضر ، وفجل رجرجير ، ومن اصناف الفواكه ، بطيخ ، احسن من ((الشيليان)) وشمام ((فشر)) الاسماعيلى . كانت المزرعة حتى آخر يوم لنا فى السجن تغذى احتياجاتنا **نحن والعساكر والضباط** ، وكنا نعد أقفاصا من الخضر والفاكهة كي يرسلها المأمور باسم نزلاء السجن وموظفيه المحافظ وموظفى المحافظة . وزيارات عديدة جاءت وفود من موظفى مصلحة السجون ومن المهندسين الزراعيين فى الواحات لزيارة المزرعة التى اشتركنا بانتاجها فى معرض زراعى أقيم بالواحات وحصلنا على الجائزة الاولى .

ولاكثر من ثلاث سنوات كان نصيب الفرد من نزلاء السجن وموظفيه لا يقل عن نصف كيلو يوميا من الخضار الطازج والفاكهة ، وعن ثلث كيلو من الخضار المطبوخ من البازلاء ، والسبانخ ، والملوخية والرجلة والفول الاخضر والفاصوليا الخضراء . كما قام الفنيون بتجفيف الفول الاخضر لعمل فول مدمس وودعنا الى الابد « السوس المفول » وأصبح العدس في خبر كان وكنا أحيانا نأكله « تحريشة » !

كان الزميل **محمود المستكاوى** هو قائد المزرعة على الرغم من أنه مهندس معمارى وليس مهندسا زراعيا . فهو بشهادة المهندسين الزراعيين **عبد المنعم شتلة وحسين طلعت** أفضل من يتولى قيادة المزرعة لما يملكه من قدرة على التعامل الانسانى مع الزملاء ، ومثابرة ودأب على العمل ، وكان الزميل لمعى يوسف نائبه ، وكان الزميل المحامى حسين عبد ربه يشرف على جمع الزملاء وتوزيع العمل عليهم فى المزرعة بكفاءة كبيرة .

ذات يوم اقترح الزميل **لمعى يوسف** عمل حمام سباحة ! تصورى يا حبيبتى .. حمام سباحة فى قلب الصحراء !

— هل هذا معقول ؟
— لا يوجد مستحيل .
— اذن نبدأ .

وبعد أيام بدأ عدد من الزملاء الذين تطوعوا لبناء **حمام السباحة** العمل بحماس . وقبل أن نضرب أول فأس فى الارض سمعنا من الزميل **محمود المستكاوى** محاضرة قيمة عن المشروع :

— هذه العين الجوفية أعلى من مستوى الارض المزروعة بثلاث أمتار ، والمياه التى نستخدمها فى رى الارض تنزل اليها من هذا العلو .
— حسنا ..
— ونحن نضطر الى تصريف المياه فى الصحراء أحيانا .
— جميل .
— هذه المياه علينا أن نستفيد منها فى أمرين . الاول رى الارض ، والثانى فى الاستحمام فيها .
— مدهش .

ويتقدمنا الزميل **فوزى حبشى** الى قطعة أرض تجاور الارض الزراعية مباشرة ، ويقوم برسم مربع ١٠٠ متر فى ٥٠ متر . ويقول :

— نحفر هذا المربع بحيث يكون قاعة فى نفس مستوى الارض الزراعية . ثم نعمل مجرى من العين حتى هذه الحفرة لتجرى فيها المياه بشكل دائم . نروى بها الارض حين يحتاج الامر ، ونستحم فيها فى غير أوقات الرى .

— عظيم .
— يبقى بعد ذلك شىء مهم وأساسى ، تبليط قاع الحمام وحيطانه .
— وده يتعمل ازاى
— فرقة متطوعين يأتون بحجارة بيضاء من هذا الجبل .

ويشير الى جبل يبعد عن المزرعة بأكثر من كيلومتر .

ويقول ضـــاحكا ..

— فيـــه متطوعين ؟

وأقول ضـــاحكا :

— كل السواحلية متطوعين .
— اشمعنى ؟
— همه الســـباحين .
— واللى عاوز يتعلم السباحة .
— يتطـــوع ..

وعنـــد فتح باب التطوع .. يتقدم أكثر من ١٠٠ زميل لبناء حمام السباحة فى غير أوقات العمل الرسمية ، **أى عمل اضافى** ، **والطريف أن** كل الزملاء بلا استثناء أرسلوا الى **أهاليهم** بعد يوم واحد من بدء العمل فى حمام السباحة يطلبون « **مايوهات** » !

— راح يقولوا علينا مجانين .
— أو راح يسبحوا فى السراب .
— أو فى الــكثبان الرملية .
— نحكى لهم على المشروع .

وبعـــد ثـــلاثة شهور من العمل المتواصل تم بناء **حمام للسباحـــة** لا يختلف كثيرا عن أى حمام سباحة فى **نادى الجزيرة** ! أو **النادى الأهلى** ! مياهه جارية باستمرار ، وله أربع سلالم ، وله « منط » أيضا . كان ينقصه شىء واحد فقط :

— ايه هـــوه ؟
— ما يبقى بعد توفر الخضرة والماء .
— دا الواحد يقعد هنا على طول .
— واذا طلع مش وجه حسن ؟
— نطفش فى الصـــحرا .

وذات يوم — بعد انتهاء العمل فى حمام السباحة — أعلن الزميل **حسين عبد ربه** عن حفلة تقام غدا صباحا لمناسبة افتتاح الحمام . عشرة زمـــلاء — كنت أنا من بينهم — يرتدون **المايـــوهات** ويقفون على حـــافة الحمام فى وضع الاستعداد **للسباحة** ، وعلى الحافة المقابلة وضعتمنضدة عليها كميات من الطماطم ، والخص ، والبطيخ والشمام ، والى جوارها

يقف الزميل محمود المستكاوى وبعض الزملاء . وحول الحمام تجمع الزملاء والسجانة وبعض الضباط ليشهدوا مسابقة السباحة . ينفخ الزميل **لمعى يوسف** فى الصفارة ويقذف العشرة زملاء أنفسهم فى مياه الحمام ، يتسابقون .

أجد نفسى فى المقدمة . يرفع المستكاوى يدى :

ــ اسكندرية تكسب .

ويصيح بعض الزملاء :

ــ ده تحيز .

ويضحك المستكاوى :

ــ أنا يا خويا مش اسكندرانى .

ــ لكن حلقى .

ويعلق محمود ضاحكا :

ــ فى السياسة ممكن .. لكن السباحة لا .

ومنذ ذلك اليوم حتى يوم مغادرتنا سجن « **المحاريق** » كان معظم الزملاء يذهبون الى المزرعة يحمل كل منهم « **الفلق والفأس** » فى **يد** ، وفى اليد الاخرى **يحمل** « **المايوه** » وحول رقبته فوطة . أكثر من **٥٠ زميلا** من الذين كانوا لا يعرفون السباحة تعلموها هناك .. فى قلب الصحراء !

وذات يوم .. عند عودتنا من المزرعة ، سمعت المهندسين **فوزى حبشى ومحمود المستكاوى** يتحدثان عن مشروع جديد . **بناء مسرح** . وبعد أيام بدأ العمل لبناء مسرح على الطراز الرومانى .

أحكى لك قصته يا حبيبتى فى الرسالة المقبلة .

١١ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٥٥)

حبيبتى :

فى صباح ١٢ يناير ١٩٦٢ صـــدر فى سجن « المحاريق » العدد الاول من مجلة الحائط « المسرح » . على الصفحة الاولى كتبت هيئة التحرير افتتاحية العدد الاول « لماذا تصدر المسرح؟ » .

وكتب الزميل **حسن فؤاد** « رئيس التحرير » كلمة يســتحث فيها الزملاء لبناء المسرح بسرعة حتى يمكن تقديم أول عرض مسرحى عليه فى يوم المسرح العالمى الذى يوافق ٢٧ **مارس** ١٩٦٢ . وداخل برواز نشر على نفس الصفحة خبر عن عرض مسرحية « العتمة » للزميل **شــوقى عبد الحكيم** واخراج **الفنان داود عزيز** . وعلى الصفحة الثانية نشرت المجلة رسما لمشروع المسرح الرومانى من تصميم الزميل المهنـــدس **فوزى حبشى** الذى كتب كلمة يشرح فيها المشروع وطريقة تنفيذه واحتياجاته الملحة ، أهمها : صنع ٥٠٠ **الف طوبة** لبناء كواليس المسرح . وحفر مساحة من الارض ٢٠٠×٥٠ متر وبعمق ٢ متر فى المتوسط . وقال انه بامكان ١٥٠ زميلا أن ينجزوا هذا المشروع الكبير فى الموعد المحدد اذا ســار العمل فى البناء بمعدل ٨ ساعات فى اليوم . وعلى الصفحة نفســها نشر خبر يقول أن « مسئول الحياة العامة » قرر أن يخصص علبتين سجاير بلمونت « لارج » واحدة لزملاء « **الزنزانة** » الذين يسجلون أعلى رقم فى عدد الطوب الذى يصنعونه ، والثانية لزملاء . « **الزنزانة** » الذين يسجلون أعلى رقم فى عدد « **القلقان** » التى يحفرونها فى أرض المسرح . وعلى الصـــفحة نفســها نشرت ملحوظة تقول أن العمـــل فى بنـــاء المسرح تطوعى ، وبالتـــالى يجب ألا يـــكون على حســـاب الاعمـــال الاخرى التى يقوم بها الزملاء فى المزرعة والمرافق العامة .

كانت المشكلة الاساسية أمام الزملاء المهندسين هى مشكلة الطوب وقاموا بعدد من التجارب ولكنها لم تؤد الى النتيجـــة التى يطلبونهـــا وهى صلابة الطوب ، وجاء الحل على يد **الفلاحين** ، الزميل **محمود شطا** عامل النســـيج والقـــائد النقابى عاد الى أصـــوله الفلاحيـــة فقـــدم الحل . تراب الصحراء + طين الصلصال الموجودة بكثرة + تبن = عجينة متماسكة اذا جفت فى الشمس تكتسب صلابة . وبالفعل أجريت تجربة ونجحت نجاحا كبيرا . كانت صلابة الطووبة لا تقـــل عن صلابة الطوبة المحروقة .

وبدأ العمل ، خمس فرق فى كل « **زنزانة** » ١٠ زملاء يكون المجموع ٥٠ زميـــلا عليهم أن يقـــوموا بعمل الطوب على أن يكون لـــكل فرقة

« المعجنة » الخاصة بها ــ خلطة التراب والطين والتبن ــ ومع كل زميل قالب الطوب « الخشبى » يضع فيه من « المعجنة » ثم يضعها تحت أشعة الشمس لتجف . وعلى كل **« زنزانــة » أن تنظـم العمـل** « كفريق عمل » لتقديم أكبر قدر من الانتاج . وخمسة **« زنازين » أخرى** بها **٥٠ زميلا** يقومون بحفر أرض المسرح ويلقــون بالتــراب قريبا من « المعاجن » .

وفى صباح اليوم التالى صدر **العدد الثانى** من مجلة « المسرح » من صفحة واحدة . نشر فيها كلمة على عامودين تعلن بدء العمــل فى بناء المسرح وتدعو الزملاء الى التنافس ، ليس فقط من أجل الحصول على علبة السجاير البلمونت ، ولكن ايضا حبا فى المسرح ، وفى بقيــة الصفحة نشرت تحت عنوان « قائمة **الشرف اليوم** » أرقام « الزنازين » وأسماء الزملاء فى كل «زنزانة» .. وتركت خانة « عدد الطوب » و «عدد الغلقان » خالية حتى غروب شمس اليوم لتملأ .

وفى اليوم الاول سجلت **« الزنزانة »** التى يسكنها **محمد شطا** وزملاؤه الرقم القياسى فى عدد الطوب الذى أنتجته . وكان الفرق بينهمــا وبين **« الزنزانة »** الثانية أكثر من ٢٠٠ طوبة وبين **« الزنزانة »** الاخيرة أكثر من ٥٠٠ طوبة ، ويقول محمد شطا ضاحكا وهو يتسلم الجائزة :

ــ أيادى خشنة مش ناعمة .
ــ بكره تخشن يا أبو عنتر .

كان العمل يجرى بنشاط من أجل انجاز مشروع بناء المسرح .

وكانت الصدفة وحدها هى التى حكمت أن يبــدأ عرض مسرحية « العتمة » **لشوقى عبد الحكيم** فى صالة عنبر (٢) فى نفس اليــوم الذى بدأ فيه بنــاء المسرح الكبير . صعوبات كثيرة كانت أمام مخرج المسرحية **داود عزيز** ، « الكواليس » كانت زنزانة فى نهاية العنبر ، يرى الجمهور الممثلون يدخلون اليهــا ويخرجون منها . والاضــاءة لا يمكن التحكم فيها . ولابد من أن يقف هــذا عند زرار لمبــة ، وآخر عند زرار غيره ، وثالث .. وهكذا .. وبين الحين والحين تسمع صوت **المخرج ..**

ــ اطفى .. (١)
ــ ولع (٢)
ــ ولع (٣) و (٤) .
ــ اطفى (١) و (٤) .

كان المخرج اكثر اهتماما بالشكل فهو فنان تشكيلى ، وكان المؤلف يشــد شعره فهو يريد أن يصــل المضمون الى المتفــرجين الجالسين على « البلاط » يتحملون لسعات برد ينــاير تارة ، وعدم فهمهم ما يرونه من لوحات فنية فى نظر المخرج تارة أخرى ، ولا معنى لها فى نظرهم ونظر

المؤلف . الطريف فى هـــذه المسرحيـــة أنها أثارت مناقشة واسعة بين انصارها وهم المؤلف والمخرج وأنا — ربما لتعاطفى مع المؤلف ورغبة فى تشجيعه فقد كانت هذه هى **أول أعماله** المسرحية — وبين كل الزملاء . لقد استمرت هذه المناقشة أكثر من ستة شهور كاملة ولم يكسب أى من الفريقين المتصارعين نقطة واحدة من الفريق الاخر .

فهل كان ذلك احد العوامل التى كانت تحفز الزملاء للعمل بأقصى جهدهم من اجل بناء المسرح فى أقصر وقت ممكن ؟ من المؤكـــد أنهـــا كانت كذلك فالعروض المسرحية التى شاهدها الزملاء يوم الاحتفال بيوم **المسرح العالمى عام ١٩٦٢** ثم فى خلال السنوات التالية حتى خرجنا من السجن فى **عام ١٩٦٤** ، اثارت مناقشات غنية بين الزملاء وعلى صفحات مجلة « المسرح » وكشفت عن مواهب عظيمة ، الزميل **على الشريف** الذى قام بدور عظيم فى فيلم الارض . والزميل **احمد حجازى** الذى قام بأدوار مختلفة فى عدد من الافلام . **ومحمد همام** صاحب الصوت الدافىء الذى يشدك الى أعماق الريف ويجو لبك فى أنحاء النوبة ، وشجع **شوقى عبد الحكيم** كى يستمر فى كتابة المسرحيات بعد مسرحية « العتمة » فكتب مسرحيات حسن ونعيمة وشفيقة ومتولى ، والشبابيك ، وكتب روايـــة « احزان نوح » واضاف **فريد فرج** الى مسرحياته مسرحية **«حلاق بغداد»** التى كتبها فى السجن ، وكتب **صلاح حافظ** مسرحية « الخبر » **وطوسن كيرلس** كتب ثلاثة مسرحيات زجلية . وكتب **لويس بقطـر** مسرحيـــة « الاستنكار » . وكان **رمزى يوسف** اكتشافا جديدا ، قدم فى ســجن « جناح » شخصية كاريكاتيرية **« الباشمهندس »** وهذا الباشمهندس تاجر صغير تتجمع فيه كل تناقضات البورجوازية الصغيرة ، وقام **رؤوف نظمى** بتطويرها الى مسرحية من فصل واحد قدمها على المسرح الرومانى بسجن « المحاريق » ، كما قدم **حسن فؤاد** « بيت الدميـــة » لابسن ، وفصلا من « ماكبث » .

ومنـــذ تم بناء المسرح كنا نقـــدم عليـــه مسرحيات فى المناسبات المختلفة ، فى الاعياد ، وفى أعياد الثورة ، وأعياد ميـــلاد بعض الزملاء احيانا . وكان مأمور السجن وضباطه وجنوده **يحضرون تلك الحفلات** ، يصحب بعضهم عائلاتهم معهم . وكثيرا ما حضر **محافظ الوادى** وكثير من الموظفين هم وعائلاتهم . وكان مشهد بعض الاطفال الذين كانوا يحضرون مع أبائهم من موظفى « الخارجة » وهم يجلسون مع الزملاء أحيانا ، ويقومون بالقاء بعض الكلمات على خشبة المسرح أحيـــانا ، من المشاهد الانسانية التى تركت آثارها فى قلوب الزملاء . مجموعة من هؤلاء الاطفـــال كانوا يسمون **صلاح حافظ** « بابا صلاح » الذى قدم لهم من خلال « الاراجوز » ما كان يشد انتباههم طول الوقت ، وكثيرا ما كانوا يطلبون الاعادة .

ولم يكن المسرح مخصصا لعـــرض المسرحيات واقامة الحفـــلات فقط وانما كان كذلك قاعة للمحاضرات والمناظرات . الزميل **عادل حسين** قدم بعد **اجراءات يوليو ١٩٦١** عددا من المحاضرات الاقتصادية القيمة

كان يدلل بها على صحة وجهة نظر « حدتو » وقام **الدكتور فوزى منصور** بتقديم عدد مماثل من المحاضرات فى نفس الموضوع يؤكد من خلالها صحة الخط السياسى « للحزب المصرى » . وكان ذلك تقليـــدا جديدا فى الحوار بين « حدتو » و « الحزب المصرى » . وقدم **أحمـــد طـه** سلسلة من محاضرات عن الحركة النقابية فى مصر ، وكذلك **محمد على عامر** الذى قدم لنا خبرته فى الحركة العمالية المصرية . كمـا قـدم **محسن الاعسر** تجربة الكفاح المسلح فى **القنـال عام ١٩٥١** والمقاومة الشعبية خلال العدوان الثلاثى . وقـدم الزميل **محمـود شندى** أشعارا كثيرة نشرها بعد خروجه من السجن .

لقد شهدت الفترة من أواخر عام ١٩٦١ حتى أبريل **١٩٦٤** فى سجن **المحاريق** نشـاطا فنيـا وثقافيـا وسياسيا وفكريا واسعا .. ربما لم تشهده أى بقعة فى مصر طوال تاريخها الحديث . غير أن الحوار الفنى والثقافى كانت حصيلته هائلة ، بينما لم تكن حصيلة الحوار السياسى أكثر من صفر . وأسوق اليك يا حبيبتى بعض الامثلة :

فى العمل الفنى ، كان **وليم اسحق وداود عزيز ومجـدى نجيب ومحمد المهـداوى وسعيد عبد الوهاب وسعيد عارف** وهم فى « تنظيم » واحد يتعاونون مع **حسن فؤاد وصبحى الشارونى وأحمد بيكار وزهدى** وهم فى «تنظيم» آخر ، بروح خالية من العقد التنظيمية ، فأقاموا معارض للفن التشكيلى معا ، ونظموا محاضرات قيمة رفعت من مستوى ثقافتنا فى التصوير والنحت والفن التشكيلى .

وفى العمل الثقافى ، قام عدد من أبرز المثقفين المصريين من التنظيمات المختلفة بتقديم أعمال ثقافيـة من خـلال أحدث الكتب التى كانت تصلنا ومن خـلال المناظرات والمحـاضرات التى قدموها ، كنت تـرى عددا من هذا التنظيم ، يتفق فى الرأى حول موضوع ثقافى مع آخرين من التنظيم الاخر .

وفى المجال التعليمى : تتلمذ عدد كبير من الزملاء من مختلف التنظيمات على يد **الدكتور عبد العظيم أنيس** ، وفى اللغات على يد الدكتور شريف حتاته **وحليم طوسن ومحمد الجندى** وهكذا ..

وكنت ترى زميلا يقوم برسم لوحة ، أو يشكل قطعة خزف ، أو ينحت تمثالا .. يلجأ الى حسن فؤاد مع أنه ليس فى تنظيمه ، أو الى داود عزيز أو وليم اسحق مع أنهما لاينتميان الى تنظيمه .

وفى كتابة المسرحيات .. كنت ترى المواهب الجـديدة تلجأ الى الفريد فرج ، أو صلاح حافظ بصرف النظر عن الانتماء التنظيمى . لم يكن غريبا اذن أن تكون حصيلة الحوار الفنى والثقافى غنية .. رفع مستوى الزملاء الثقافى والفنى ، وكشف عن مواهب جديدة واصلت تقديم أعمالها الفنية بعد خروجها من السجن ، مثل **محمود شندى ومجدى نجيب** ،

وعلى الشريف واحمد حجازى ، ومحمد حمام ، وشوقى عبـد الحكيم ، **وصنع الله ابراهيم ، وخليل قاسم ومحسن الخياط ومحمد صدقى** وغيرهم ممن لا تعى ذاكرتي أسماءهم . كلهم بدأوا واستمروا وسط ذلك الجـو **الديمقراطى الحقيقى** ، وكلهم واصلوا تقديم أعمال فنية وثقافية بعـد خروجهم من السجن حتى اليوم .

لماذا لم تكن حصيلة الحوار السياسى فى مثل حصيلة الحوار الثقافى والفنى ؟ لماذا كانت حصيلة الحوار **الثقافى غنية** ، ولماذا كانت **حصيلة الحوار السياسى صفرا ؟**

فى كلمة .. كان الحـوار الثقافى والفنى يدور بين الزملاء على اختلاف انتماءاتهم التنظيمية فى جو من ((**الحرية**)) النسبية ، بينما كان الحوار السياسى يدور فى جو من ((**الالتزام**)) المطلق .. كل لسـياسة تنظيمه ، كانت الحرية النسبية تعطى لكل زميل فى هذا التنظيم أو ذاك أن يتفق مع زميله الاخر ، بصرف النظر عن انتمائه التنظيمى . بينما كان الالتزام المطلق كل لسياسة تنظيمه تعطل كل فرص **اللقاء السياسى** ، بل وتزيد من **شقة الخلاف** . وكان مشهدا مألوفا أن ترى **مئـات الزملاء** يذهبون الى المسرح لسماع محاضرة ثقافية بينما كنت ترى أعدادا قليلة تستمع للمجلات الناطقة المختلفة ، ((**الطريق**)) مجلة الحزب المصرى ، ((**راالهواء**)) مجلة حدتو **والافق** مجلة ((الافق)) وهو تنظيم داخل المصرى. كل مجلة تنطق بلسان تنظيمها وبالطبع لاتدور أى مناقشات بعد نشر موادها، هذا فضلا عما تنشره كل مجلةمن **اتهامات** للتنظيمات الاخرىفتزداد الخلافات السياسية اتساعا ويكرس **الانقسام بينها** .

كم من الجرائم ارتكبت باسم ((الالتزام)) فى الحركة الثورية فى مصر ؟

واعطنى يا ابنة **الستينيات** حق ((**الاجتهاد**)) ، فأقول أن مبدأ ((**الالتزام**)) بعد لينين انتهك فى التطبيق انتهاكات خطيرة فى كثير من **الاحزاب الشيوعية**، حيث استخدم لتدعيم **سلطة فرد أو مجموعة من الافراد** فى قيادة الحزب . والغريب أن **الاحزاب الثورية والوطنية فى بلدان العالم الثالث** ، خاصة فى البلدان التى الغت الاحزاب واقامت بدلا منها ((تحالف قوى الشعب)) **أو** ((حزب الجبهـــة)) وغير ذلك من المسميات لم تأخذ من الاحـزاب الشيوعية سوى مبدأ ((الالتزام)) فقد وجدت فيه السبيل الى تدعيم **سلطة الزعيم فى الحزب والدولة** .

ونظرة واحدة الى ((الاتحاد الاشتراكى العربى)) فى مصـر والتنظيمات المماثلة له فى بلدان **العالم الثالث** عموما تؤكد ذلك . وحين وضع **الالتزام سدا** امام الاجتهاد فى **الاحزاب الشيوعية** حدث ما حدث لعدد من المفكرين كان آخرهم **جارودى** .

وأعود الى سجن ((المحاريق)) حيث بدأ النشاط الثقافى والسياسى والفكرى والذى استمر أكثر من ثلاث سنوات ، بعد وصول برقية الى المأمور من القاهرة .

أحكى لك عنها فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

القاهرة ١٢ سبتمبر . القاهرة .

الرســــالة رقم (٥٦)

حبيبتى

ذات يوم من **أيام يونيو عام ١٩٦١** ، كانت الساعة قــد تجاوزت الثانية عشرة ظهرا ولم تفتح **الزنازين** على الزملاء المعتقلين ، وكانت تفتح عادة فى الساعة الثامنة صباحا ، وبعد نصف ساعة فقط يكون الزملاء قد انتظموا فى صفوف كى يذهبوا الى العمل فى المزرعة . المسجونون فقط هم الذين فتحت عليهم الزنازين كى يذهبوا للعمل . بعد أن انتظموا فى الصفوف كالمعتاد وقفوا ينتظرون زملاءهم **المعتقلين** ليسيروا معــا الى المزرعة كما كان يحدث منذ شهور . وبعد ساعة انتظار جاءت الاخبار تقول أن الزملاء المعتقلين لن يخرجوا للعمل اليوم . لماذا ؟

ــ وصلت برقية مساء أمس الى المامور .
ــ حفلة تعذيب أخرى لهم ؟
ــ ليس فى الجو ما يشير الى ذلك .
ــ قرار اتهام جديد لعدد من الزملاء ؟
ــ وهل يستدعى هذا عدم خروجهم للعمل ؟
ــ دفعة جديدة من المعتقلين ؟
ــ ولماذا لا نحاول معرفة الخبر من عند المأمور ؟

ونسمع صوت أحد الضباط يقول لنا :

ــ روحوا انتو للمزرعة .. المعتقلين مش رايحين اليوم .
ــ لمـــاذا ؟
ــ أخبـــار سارة سيقولها المأمور لهم .
ــ حقيقى أخبار ساره ؟

ويبتسم الضابط ويقول :

ــ كل الدلائل تشير الى ذلك .
ــ هات ما عنـــدك .
ــ ليس عندى أوامر .

ويقسم الرجل بأنه لا يعرف سوى أن **المأمور سعيد ومبسوط** منذ وصلته **برقية عاجلة** مساء أمس وأن الاوامر التى صدرت له هى أن لايخرج المعتقلين للعمل لانه « عاوز » يقول لهم أخبار سارة .

ويصيح أحد الزملاء ..

ــ يبقى لازم افراج .
ــ على العموم خير ..

ويتحرك طابور المسجونين الى المزرعة ، وأنتظر مع عدد من الزملاء كى نستطلع الامر .

قبل أن نصل الى باب مكتب المأمور نراه خارجا منه ويقول لنا مبتسما :

ــ ايه .. طلباتكم ؟
ــ سيادتك عارفها .
ــ أخبار كويسة لزملاءكم .
ــ ممكن نعرفها ؟
ــ سأعلنها لهم حالا .

ويصيح على أحد الضباط ..

ــ افتح على المعتقلين وخليهم يستنوا هنا فى الحوش ، ثم يلتفت الينا ، ويقول :

ــ وانتو بقى تعرفوا الاخبار مع زملاءكم ..
ــ طب نعرف ولو حاجة بسيطة ..

ويقول مبتسما :

ــ لا .. كلكم راح تعرفوها مرة واحدة .
ــ يبقى لازم افراج عن المعتقلين ..
ــ حاجة زى كده .

واقول ضاحكا :

ــ وفيه حاجة زى الافراج ؟
ــ فيه مقدمات .
ــ يبقى عرفنا ايه هيه الاخبار .
ــ برضه مش بالضبط ..

ويسير متجها الى حيث يقف المعتقلون فى انتظاره وفى انتظار مايحمله من اخبار سارة . قال بصوت متهدج به نبرة انسانية كانت تلازمه منذ ليلة الازمة التى مرت بأولاده :

ــ وصلتنى أمس برقية من القاهرة بتحسين معاملتكم .

وتخرج بعض التنهدات الصامتة من بعض صفوف المعتقلين .

ــ خير .

ويواصل المأمور :

— من اليوم يمكنكم أن تلبسوا **أحذيتكم** وأن ترسلوا **خطابات** الى أهاليكم وتتسلموا منهم خطابات . كذلك سمح لكم بالتعامل مع **الكنتين** وشراء ما تحتاجون له . كذلك لم يعد **العمل اجباريا** .

ويختتم كلمته :

أنا سعيد بهذه الاوامر .. وأرجو أن تفهموا أن بعض ما حدث منى فى الشهور الماضية لم يكن بارداتى .. كنت انفذ التعليمات ولكن بمرونة وتصرف .. أرجو أن يكون هذا مقدمة للافراج عنكم .

ثم اعطى **المأمور** أمرا الى أحد الضباط كى يفتح المخزن ويسلم المعتقلين **أحذيتهم وملابسهم** التى أخذت منهم عندما جاء همت فى العام الماضى . ثم نادى على الزميل **فخرى لبيب** ، وطلب منه أن يصحبه الى مكتبه هو والدكتور **شريف حتاتة والزميل وليم طابيوس** .

ذهب الزملاء مع المأمور الى مكتبه ربما كى يعرفوا اخبارا جديدة وربما كى يعطيهم بعض التنبيهات ، بمناسبة الظروف الجديدة . وذهبت أنا مع المعتقلين أتأملهم وهم يتسلمون أحذيتهم وملابسهم .

تذكرت فجأة شخصية ((**الطواف**)) فى مسرحية عيلة الدوغرى **لنعمان عاشور** عندما تحققت امنية عمره حين اشترى له «مصطفى» حذاء وهو الذى ربى كل أبناء ((الدوغرى)) حتى كبروا واتوظفوا وظل هو حافيا . ثم كيف ألقى بالحذاء بعيدا حين اكتشف أن رجله لم تعد تتحمله ! وتذكرت أمنية المهرج فى مأساة الملك لير الذى كانت احلامه تتوقف عند حذاء يضع فيه قدمه ويرد عنه غائلة البرد والثلج .

وشهدت الزملاء الذين اكتوت أقدامهم العارية بحرارة رمال الصحراء فى عز الصيف ولسعاتها الباردة كالثلج فى الشتاء القارص .

بعض الزملاء **يحتضنون أحذيتهم** كما تحتضن الام وليدها فى حنان وتقبله . والبعض **يمسحون** أحذيتهم بملابسهم ثم يجلسون على الارض ويلبسونها بصعوبة . وآخرون **يجرون** بعد ان لبسوا أحذيتهم .. يشوطون الاحجار الصغيرة فى طريقهم .. ثم يتوقفون **ويصفقون** بأيديهم **مهللين** . كانوا جميعا كالاطفال الصغار فى يوم العيد فرحون بأحذيتهم الجديدة .

وتذهب عيناى بعيدا لترى ملايين الفلاحين فى قرى مصر وكفورها ونجوعها .. حفاة عراة .. **متى تجول «كاميرا» المدينة لتلتقط صورهم وهم يأكلون ويلبسون ؟ متى أيتها المدينة الظالمة .. متى ؟**

وأعود مرة أخرى الى سجن المحاريق ، وأتأمل صورا انسانية :

الدكتور **محمود القويسنى** يقبل صورة فى يده وتجرى الدموع فى عينيه :

ـــ شوف يا درش .. ولاد عفاريت .
ـــ «أمانى» ؟ حلوه قوى يا محمود
ـــ نفسى أشوفها عروسة .

والدكتور **شكرى عازر** يجرى نحوى ويقول :

ـــ شوف خطيبتى حلوه ازاى ؟
ـــ أحلى منك يا شكرى .
ـــ باحبها قوى يا درش .

والزميل **سيد عبد الله** رأيته وسط جمع من الزملاء وفى يده علبة سجاير بلمونت كبيرة يوزعها عليهم :

ـــ كل اتنين سيجارة .

وبعد أن يوزع العلبة كلها .. ينتحى جانبا وفى يده صوره .

ـــ خطيبتك يا سيد ؟

ويضحك ضحكته الودودة المحببة الى النفس :

ـــ أمى .. واحشانى قوى ..
ـــ ابعت لها تخطب لك .

ويقهقه بنفس صافية .. وهى دائما صافية فى كل الظروف :

ـــ وهيه عاوزه توصية .. بعتت لى تقول انها خطبت لى بنت حلوة .
ـــ تعرفهـــا ؟
ـــ أبدا أول مرة اسمع عنها .
ـــ وراح تتجوزها .

وتخرج منه تنهيدة عميقة :

ـــ نفسى أحب يا درش .

ما يقرب من ثلاث ساعات .. وانا واقف فى مكانى لا اتحرك ، أتأمل عشرات **الصور الانسانية** التى يعجز القلم عن وصفها . وتدريجيا تخف الحركة .. ويسود الهدوء .. ويذهب المعتقلون الى **زنازينهم** .. يجلسون على **الابراش** لا يتكلمون فكل منهم يعيش فى عالمه الخاص .

كان الزملاء قد عادوا بعد لقاء طويل مع المأمور الذى أخبرهم عن استشهاد **شهدى عطية الشافعى** فى أبى زعبل . **هذا هو الثمن اذن ؟**

عرفت **شهدى عطية الشافعى** رائدا من رواد الفكر الماركسى ،يناضل بقلمه وفكره دفاعا عن العمال والفلاحين وضد الاستعمار والاقطاع والملك. سمعت محاضراته فى دار الابحاث العلمية وتعلمت منه ثم تتلمذت على يديه.

ليالى كثيرة قضيتها معه يقرأ بالانجليزية مؤلفات كبار المفكرين واستمع اليه ثم نناقش ما قرأه وما سمعته . كان أول مفتش مصرى للغة الانجليزية . وكانت لغتى الانجليزية لا تساعدنى على ما أريد معرفته ولا أجده بالعربية وكان رحمه الله يسأل عنى بالحاح اذا حالت ظروفى يوما دون لقاءه فى مواعيد الدروس ، وكانت ثلاث مرات فى الاسبوع . منذ ذلك التاريخ — ١٩٤٦ — لم نفترق حتى اختلفنا فى أوائل عام ١٩٤٩ ، لكن رغم اختلافنا لم تتوقف الدروس حتى حكم عليه بالاشغال الشاقة سبع سنوات عام ١٩٥٠ ، ولم نلتق بعد ذلك سوى مرتين . الاولى عندما دخلت ليمان طره عام ١٩٥٤ ، والثانية عندما التقيت به فى سجن المحاريق عام ١٩٥٩ .. بعدها بشهور اخذوه الى المحاكمة ليحكموا عليه مرة أخرى بعشر سنوات اشغال شاقة ، رغم الدفاع السياسى الذى ألقاه وأعلن فيه تأييده الكامل للحكم الوطنى ولسياسة **الرئيس جمال عبد الناصر** ، ثم اخـــذوه الى **أوردى أبو زعبل** كى يغتالوه هناك .

حقا كان **الضابط عبد اللطيف رشدى** هو الذى انهال على شهدى بالضرب حتى تركه جثة هامدة .. لكن هل كان هو **القاتل** الحقيقى ؟

قالوا .. انه حين قتل **الضابط عبد اللطيف رشدى** ، **شهدى عطية كان الرئيس عبد الناصر فى زيارة ليوغوسلافيا** ووصلت أنباء استشهاد شهدى اليه هناك ، وأثارت ضجة فى الرأى العام العالمى لما لشهدى من سمعة واسعة ككاتب مصرى تقدمى .

ومن بلغراد أرسل **عبـــد الناصر** برقية يأمر فيها بالتحقيق فى مقتل **شهدى** .. وكان ذلك يعنى وقف التعذيب البدنى الذى كان يمارس على المعتقلين .

لكن السؤال يفرض نفسه : قبل شهدى ، قتل فريد حداد ورشدى خليل وعلى الديب بالاسلوب نفسه، وخلال مايقرب من عام مارس خلاله السفاحون أبشع أنواع التعذيب ، على المعتقلين .. **فلماذا لم يأمر عبد الناصر بالتحقيق فى مقتل كل هؤلاء الزملاء ؟ وهل لم تصل أخبار ذلك التعذيب الوحشى له قبل ذلك ؟ .**

ألمح فى عينيك **يا ابنة الستينات** نظرات قلقة أعرف أن سببها هذا السؤال الذى طرحته . لا تقلقى **يا حبيبتى** فما أعرفه عن نفسى وأزعم أنه صحيح ، هو أننى رغم كل ما لقيته على يد عبد الناصر ، حين قبض على القاضى الذى أوشك أن يصدر أمرا ببراءتى ، وعين قاضيا جديدا أصدر حكما على **بسبع سنوات** أضاف اليهم عبد الناصر **ثلاثة أخرى** عندالتصديق على الحكم ، ثم **سنتين اعتقال** بعد انتهاء فترة العقوبة ، فان موقفى طوال **الاثنى عشر** عاما داخل السجن والمعتقل ، ثم بعد خروجى من السجن وحتى اليوم ، كنت وما زلت وسأظل ما بقى من عمرى مدافعا عن كل **ايجابيات** الزعيم الوطنى جمال عبد الناصر . وما تحملته داخل **السجن** من اتهامات لى **((بالعمالة والخيانة))** لاننى كنت أدافع عن **انجازات** عبد الناصر

الوطنية والاجتماعية على يد الذين احتضنهم عبد الناصر بعد خروجهم من السجن . وما تحملته بعد خروجي من السجن حيث ألقى بي بعيدا عن المسرح .

ولست أبغي من وراء هذه الكلمات يا حبيبتي سوى أمرا واحدا هو أن أرى **عينيك** كعهدي بهما دائما ، تنفذ نظراتهما **الصادقة** الى أعماقي تبعث فيها **الامان والهدوء** ، فأعرف أنك تصدقين كل كلمة أقولها لك .

اما وقد راح القلق من عينيك يا حبيبتي .. اعيد طرح السؤال ، واراني غير قادر على الاجابة عليه . لكني أرفض رغم ذلك تلك الاجابة السطحية التي تلقي كل شيء على **المباحث العامة وأجهزة الامن** وكأنها كانت في واد، **والسلطة السياسية** في واد آخر . في الوقت نفسه أرفض كل المحاولات التي تصور عبد الناصر **بصورة ناصعة** البياض لاتشوبها نقطة سوداء واحدة . فعبد الناصر زعيم وطني بارز ، ولكنه مثل كل الزعماء ، الذين عرفهم التاريخ ، له ايجابيانه التي تشكل مساحة كبيرة من الصورة ، وله أيضا **سلبياته** التي ربما تكفي واحدة منها لتدمير كل ايجابياته .

وحتما ستجدين الاجابة **يا ابنة الستينات** وانت تؤرخين **للحركة الثورية،** فرغم انك من جيل عبد الناصر الذي شهد كل ايجابياته وبهرته ، لكنه لم يعرف من سلبياته شيئا في حياته ثم عرف بعضها بصورة مغرضة بعد رحيله ، فانك ، **وانت الصادقة** مع نفسك ، قادرة على الوصول الى **الحقيقة** لجيلك وللاجيال المقبلة .

وحين نعود سويا يا حبيبتي الى سجن **((المحاريق))** سنجد حقا أن **التعذيب** قد توقف ، وأن حياتنا هناك — المسجونين والمعتقلين — كانت أشبه بالحياة في معسكر للكشافة . ولكن كان هناك تعذيب **أشد قسوة** يمارسونه على الزملاء ..

أكتب لك بعض صوره في الرسالة المقبلة يا حبيبتي ..

١٥ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـــالة رقم (٥٧)

حـــــبيبتى :

أبدا رسالتى هذه اليك يا حبيبتى بكلمات عن صورة حياتنا فى سجن **«المحاريق»** خلال الشهور الاربعة الاخيرة من عام ١٩٦٠ **حتى يوليـــو عام ١٩٦١** .

كانت صورة حياتنا كمسجونين ومعتقلين أشبه بصورة الحيـــاة فى معسكر للكشافة . الزنازين مفتوحة طول النهار والليل ، وأبواب العنابر أيضا لا تغلق ويستطيع من يشاء أن يتجول فى حوش السجن . ويستطيع من يشاء أن يشترى ما يريد من طعام وسجاير وملابس من كانتين السجن . وزيارات الاهالى لا تنقطع ــ **طبعا للمقتدرين** ــ والخير الوفير يأتى معها . العمل فى المزرعة أصبح **نزهة** فالارض لم تعد تحتاج الى مجهود كبير ، وفى قلبها **حمام سباحة** لمن يريد أن يسبح . وأعمال الرسم والنحت والخزف وصب الجبس تجدينها فى كل ركن من أركان السجن ، فى مكاتب المأمور والضباط ، وعلى بوابة السجن ، وفى العنابر والزنازين والمعارض الدائمة . والمسرح يموج بالعمل الثقافى ، مسرحيات ، وحفلات ، ومحــــاضرات ، ومناظرات ، وفى كل يوم يذيع **عبد الستار الطويلة ثلاث نشرات اخبارية وأحيانا أكثر** عن وكالة «واس» . وكانت **«واس»** وكالة انباء محايدة ــ **أى** ليست تابعة لاى تنظيم من التنظيمات ــ تذيع كل ما يصل اليها من أخبار محلية ــ مصدرها التنظيمات المختلفة ــ أو الاخبار والتعليقات العالمية التى يلتقطها كل تنظيم من الترانزستور الخاص به . أما أخبار القاهرة فقد كنا نسمعها من راديو السجن الذى كان فى مكتب المأمور بواسطة سماعات فى العنابر ، وطبعا كنا نسمع أيضا الاغانى والخطب السياسية وجلسات مجلس الامة والمؤتمرات .. الخ .

وكانت هناك أيضا ثلاث صحف ناطقة يومية تعبر عن سياسة التنظيمات الثلاث المختلفة .

- جريدة **«الطريق»** كانت لسان حال «الحزب الشيوعى المصرى» .
- جريدة **«الافق»** كانت لسان حال تنظيم «الافق» وكان داخل تنظيم «الحزب الشيوعى المصرى» ويقول انه هو الحزب الحقيقى .
- جريدة **«الهواء»** كانت لسان « الحزب الشيوعى المصرى » حدتو .

تريدين مزيدا من الايضاح يا حبيبتى ؟

حسنا .. فمثل هذا الايضاح سوف يساعدك يا ابنة الستينات على فهم بعض ما قد يكون قد غمض عليك فى بعض رسائلى السابقة وأنا اتحدث عن «الاغلبية» و «الاقلية» و«حدتو» و«المستقلين» .

واعود بك يا حبيبتى الى عام **١٩٥٧** . حتى ذلك الحين كانت هناك ثلاث تنظيمات اساسية : **«الحركة الديموقراطية للتحـــرر الوطنى »** و **« الديموقراطية الشعبية »** و **«الحزب الشيوعى المصرى »** . وعندما بدات مناقشات **الوحـــدة** بين هذه التنظيمات الثـلاث غيرت « الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى » اسمها واصبح **«الحزب الشيوعى الموحد»** وغيرت « الديمقراطية الشـــعبية » اسمها واصبح **« حزب العمال والفلاحين الشيوعى المصرى »** .

وبعد مؤتمر **باندونج** ، وبعد **العدوان الثلاثى** على بلادنا ، كان موقف التنظيمات الثلاث من **ثورة ٢٣ يوليو موقفا واحدا تقريبا** ، تأييد الحكم الوطنى بزعامة الرئيس جمال عبد الناصر .

ومع ان هذا الموقف السياسى **الواحد** كان هو الدافع الاساسى لاقامة **الوحدة** حيث لم يعد هناك مبرر لانقسام الحركة الثورية ، الا أن الطابع الاساسى لمناقشات الوحدة كان هو الطابع **التنظيمى** . كان كل تنظيم حريص على ان تكون له **الاغلبية** فى اللجنة المركزية للتنظيم الجديد . **لكن كيف ؟** اتفقوا على أن يكون التمثيل فى القيادة الجديدة بنسبة عدد أعضاء كل تنظيم ! «برضه» كيف ؟ والتنظيمات سرية ؟ أخبار كثيرة جاءتنا «نحن المسجونين القدامى» وكنا مبعدين تماما عما يجرى ، **تقول أن هنـــاك « تزوير »** فى القوائم ، وأن هناك « أسماء غير حقيقية » و.و. وصدقينى اننى لم اعرف الحقيقة ولا أعرفها حتى اليوم ، **بل ولم اســع يوما الى** معرفتها فقد كان رايى أن الوحدة اذا لم تتم على أساس **سياسى** فمصيرها الانهيار لا محالة .

وبعد شهور تمت **الوحدة** بين **«الحزب الشيوعى »** و **« الحـــزب الشيوعى المصرى الموحد »** وسمى التنظيم الجديد باسم **« الحـــزب الشيوعى المصرى المتحد »** ولم يهتم هذا التنظيم الجديد بالسياسة والفكر قدر اهتمامه بتكوين لجنته المركزية . لقد وافق **«الحزب الشيوعى المصرى»** سابقا على ان يكون «اقلية» فى قيادة التنظيم الجديد « الحزب الشيوعى المصرى المتحـــد » ولـــكن بشرط ! وكان شرطا غريبـــا على مبـــادىء التنظيم .. **اذا لم** تتخـــذ قـــرارات اللجنـــة المـــركزية **بالاجمـــاع** ، فان قـــرار « الاغلبيـــــة » لا يـــكون الا **بثلثى الاصـــوات !** وجـــاءت الاخبار الينا فى سجن « جناح » تقول ان هذه الوحـــدة الثنائية ستجبر التنظيم الثالث على الوحدة ! وفى **٨ يناير عام ١٩٥٨** تمت الوحدة بـــين **« الحزب الشيوعى المصرى المتحد »** وبين **«حزب العمال والفـــلاحين المصرى »** وصار اسم التنظيم الجديد هو **«الحزب الشيوعى المصرى »** .

وايضا لم يكن اهتمامه **بالسياسة** مثل اهتمامه **بالتنظيم** ، فكان تمثيل التنظيمات الثلاث السابقة حسب **النسبة العددية** لاعضاء كل تنظيم ، فحصل العمال والفلاحين سابقا على العدد الاكبر ، يليه «حدتو» سابقا، يليه « الحزب المصرى » سابقا . ولما تعذران يكون للحزب الجديد **سكرتيرا سياسيا عاما** كما يحدث فى كل الاحزاب السياسية ، اتفق على ان يكون **الثلاث زعماء** للتنظيمات السابقة لجنة أطلقوا عليها اسم **«اللجنة الدائمة »** تقوم بعمل السكرتير العام . أما بالنسبة لقرارات اللجنةالمركزية فهى **اذا** لم تتم بالاجماع فيشترط للاغلبية **أن** تحصل على ثلثى **الاصوات !**

وبعد شهور من تلك الوحدة الثلاثية **خرجت « حدتو»** من التنظيم الجديد واحتفظت باسم « الحزب الشيوعى المصرى » «حدتو» بين قوسين تمييزا لها عن «الحزب الشيوعى المصرى» الذى بقى فيه « الحزب المصرى القديم » و «العمال والفلاحين القديم » ، وكانت له الاغلبية فى اللجنة المركزية ، وكان للجنة المركزية **سكرتير عام واحد .** وظل الوضع هكذا فى سجن «المحاريق» حتى ظهر تنظيم «الافق» داخل الحزب الشيوعى المصرى **يعلن انه هو** « الحزب الشيوعى المصرى » **الحقيقى . وبالتالى** صدرت ثلاث صحف ناطقة تعبر عن سياسة التنظيمات الثلاث .

فماذا كانت سياسة كل تنظيم من تلك التنظيمات ؟

حين خرجت **«حدتو»** من التنظيم الواحد لم تكن هناك **خلافات** سياسية أساسية ، وايضا حين دخلوا جميعا **المعتقل** . وبعد حوالى شهر كان رأى «حدتو» هو أن السلطة السياسية هى **للبورجوازية الوطنية ،** وكان رأى «الحزب الشيوعى المصرى» الرسمى هو أن السلطة السياسية هى **للبورجوازية الكبيرة الاحتكارية** ، وكان رأى الاقلية « الحزب المصرى القديم » ، هو أن السلطة السياسية للبورجوازية الوطنية ! **وبعد اجراءات يوليو ١٩٦١** كان رأى «حدتو» أن فى قمة السلطة **«مجموعة اشتراكية»** بدأت بناء الاشتراكية منذ **قرارات يوليو ١٩٦١** . وكان رأى « الحزب الشيوعى المصرى » الرسمى — الاغلبية وهى العمال والفلاحين سابقا — أن السلطة هى سلطة **رأسمالية الدولة الاحتكارية ،** وانها **الشريك الاصغر** للاستعمار . وكان رأى — **الاقلية — وهى الحزب المصرى القديم —** أن السلطة تمثل **البورجوازية الكبيرة الوطنية** ، وينبغى التحالف معها . وكانت «الافق» تنظيما داخل الحزب الشيوعى المصرى — ترى أن السلطة تمثل البورجوازية الوطنية — **الكبيرة والمتوسطة .**

كانت تلك هى آراء التنظيمات الثلاث حتى يوليو ١٩٦١ ، وكانت الصحف الناطقة المختلفة تعبر عن آرائها .

وكان هناك رأى رابع هو رأى **المسجونين القدامى** — من الحزب الشيوعى المصرى القديم — يقول بأن الثورة منذ قيامهاتعبر عن مصالح **البورجوازية الوطنية** وان كان ممثلوها فى السلطة ليسوا هم الممثلين

التقليديين لها . والذين بداوا **يتناقضون** معها منذ قيام المؤسسة الاقتصادية عام ١٩٥٤ ، وكان تأميم **بنك مصر** ضربة لمصالح البورجوازية الاحتكارية ثم كانت اجراءات يوليو ١٩٦١ ضربة لمصالح البورجوازية الكبيرة لمصلحة **البورجوازية المتوسطة** .

ولم يكن للمسجونين القدامى الذين كسبوا الى جانب رايهم عـــددا لا بأس به من الزملاء فى التنظيمات المختلفة الذين وفدوا الى سجن جناح **عام ١٩٥٦** ومن المستقلين **عام ١٩٥٩** ، مجلة ناطقة تعبر عن رأيهم فقد كانوا اعضاء فى ((**الحزب الشيوعى المصرى**)) يخضعــــون لسياستـــه الرسمية .

والى جانب هذه التنظيمات كان يوجد عدد من ((**المستقلين**)) عن هذه التنظيمات كلها ، وكان عددهم يتزايد باســـتمرار حيث كان ينضم اليهم الزملاء الذين فقدوا الامل فى تنظيماتهم السابقة .

هذه الكلمات السابقة التى أردت بها ان اعطيك يا ابنة الستينات **صورة قريبة من الحقيقة عن وضع الحركة الثورية حتى يوليـــو ١٩٦١** مختلفة عن تلك التى فى ذهنك ، فهى كلمات لم يقلها أحد من قبل لدوافع **ذاتية** .

غير اننى اردت بهذه الكلمات ، أن تكون مقدمة لمـــا اريد أن اقوله لك فى رسالتى هذه ، عن صور **التعذيب النفسى** التى بدأت **المباحث العامة** تمارسها على الزملاء منذ وقف التعذيب الجسدى فى ظل الحريات المطلقة للتنظيمات داخل السجن !

قبل اجراءات يوليو عام ١٩٦١ ، كان الموقف الذى اخذته السلطة السياسة ازاء **مقاطعة الباخرة المصرية كليوباترة** موقفا وطنيا حازما ، ثم كان **تأميم بنك مصر** وبعض الاجراءات الوطنية الداخلية والعربيـــة والخارجية مع الانفراجة الديموقراطية فى السجن تجعل **المؤيدين** للحكم **الوطنى** يهللون ويبشرون **بافراج قريب** ، وتزيد المعارضين للحكم الوطنى اصرارا وعنادا !

وذات يوم من اواخر **نوفمبر ١٩٦٠** استدعت الادارة حـــوالى ٨٠ **زميلا** وابلغتهم ان عليهم ان يرتبوا انفسهم للرحيل فى الغد الى **الفيـــوم** تمهيـــدا **للافراج عنهم** ، هلل المؤيدون وكبروا .. **بدأ** تصفية المعتقل .. وهذا يؤكد سلامة موقفهم السياسى .

ووضع المعارضون اياديهم على قلوبهم . . الافراج يعنى **أن** سياستهم خاطئة .

وبين هؤلاء وهؤلاء كان عدد كبير من الزملاء — من بينهم المسجونون القدامى — ينظرون بعين الشك الى ما يجرى رغم انهم مؤيدين للحـــكم الوطنى !

كان العدد الاكبر من الدفعة التى سافرت الى **الفيوم** للافراج عنها من المستقلين . وكان من الطبيعى أن يزداد عدد المستقلين من التنظيمات المختلفة .

وعشنا بعد ذلك شهرين كانت من أقسى الشهور التى مرت بنـــــا ، خصوصا الزملاء البسطاء الانقياء .

أخبار **متناقضة** تصل عن الزملاء فى الفيوم :

— لقد **أفرج** عنهم بعد أسبوع من وصولهم الفيوم .
— لا .. انهم ما زالوا فى **المباحث العامة** .
— بل ما زالوا فى **الفيوم** .
— **ويعذبون** هناك كما عذبوا فى الواحات وأبو زعبل من قبل .
— نقلوا الى معتقل **القلعة** وتجرى معهم عمليات **غسل مخ** .
— أبدا .. انها محاضرات وطنية ليس الا ، بعدها سيخرجون .
— بل ليكتبوا اقرارات بعـــدم الاشتغال بالسياسة واستنكارا لافكارهم ومعتقداهم .
— لقد أضربوا عن الطعام جميعا .. **وأجبروهم على فك الاضراب** .
— الزميل **عبد القادر مفتاح** مات وهم يرغمونه على فــك اضرابه عن الطعام .

وتستدرج مجلات التنظيمات المختلفة الى الفخ . «الطريق» تؤكد أن الزملاء يعذبون فى **الفيوم** وأنه لم ولن يتم الافراج . و«الهواء» تقول العكس، فقد بلغها من أوثق المصادر» أنه قد تم الافراج فعلا ، و«الافق» لا تؤكد أخبار الافراج ولا تكذبها وتحذر من الانسياق وراء مؤامرة **التصفية،** وتطلب التريث والتعقل . حتى الاهالى الذين جاءوا لزيارة ذويهم خلال تلك الفترة ، حملوا معهم موجات من الاشاعات والاخبار **المتناقضة** ، لكنهم كانوا يؤكدون ان **المباحث العامة** هى مصدر تلك الاخبار .

وانعكس ذلك كله فى **طرقات العنبر** وحوش السجن . معظم ليالى تلك الفترة كان **المسجونون** فقط هم الذين ينامون ، أما **المعتقلون** فكانوا لا ينامون الليل ، بعضهم كان يجلس الى جوار سور السجن الخارجى يسرح مع **أحلام الافراج** ، والبعض يجلسون مجموعات فى بعض أركان طرقة العنبر تحكى وتتسامر .. حول **الافراج** . والبعض يرقد فوق الابراش يكتب حكايات للاهل يبشرهم بالافراج القريب .

وفى ليلة **رأس سنة ١٩٦٢** تقيم **«حدتو»** احتفالا كبيرا فى المسرح ، تقدم فيه عددا من المسرحيات ، وتلقى فيه قصائد شعر ، وخطب ساخنة تؤكد **الافراج** . وتصدر قيادة «الحزب المصرى» قرارا **بمقاطعة** هـــذا الاحتفال .. لكن عددا من الاعضاء يتسرب من باب العنبر ليسمع من بعيد ما ينعش آماله فى الافراج .

وتمضي أيام من يناير ١٩٦٢ يعود بعدها الى سجن المحاريق **٤٥زميلا** بعد أن تركوا فى الفيوم **٣٥ زميلا** استسلموا تماما لكل ما طلب منهم مقابل الافراج .وكانت القصة هى .. انه بعد أسبوع واحد من وصول الزملاء الى الفيوم عوملوا خلاله معاملة خاصة .. سراير نظيفة وابواب العنبر مفتوحة طول النهار .. والتغذية جيدة .. زيارة الاهل فى أى وقت ودون حساب حتى ولو كانت كل يوم .. والتعامل مع الكانتين **دون أى قيود ..** والصحف والمجلات والكتب مسموح بها .

وبعد هذا الاسبوع بدأ **((الشغل))** .. ذهب الى هناك **حسن المصيلحى** ومعه عدد من **ضباط المباحث** ، وأخذوا يستدعون كل زميل على حدة .

— يمكنك أن تخرج الى اهلك فورا .
— ورقة صغيرة تكتبها تعترف انك كنت مخطئا وتخرج فورا .
— زوجتك وأولادك ما ذنبهم ؟. اخرج .
— يا أخى أنت غاوى معتقل ..

ويفاجأ بعض الزملاء **بزيارات مفاجئة** .. من الاب ، او الزوجة ، او الخطيبة ، أو الابن ، او الام .. وكانت زيارات منتقاة بعناية من المباحث العـــامة .

— **أولادك** راح **يموتو** من الجوع ..
— يا ابنى **أنا كبرت** وعايزك جنبى .
— لامتى راح استنى **مخطوبة** كده من غير جواز ؟

ويستسلم البعض .. وهؤلاء يستمرون أياما اخرى مكرمين معززين ثم يخرجون .

والآخرون كانوا **أبطالا** .. منهم **الدكتور فوزى منصور** الذى يهب فى وجه **المصيلحى** قائلا :

— هراء هذا الذى تقوله لا يستحق منى الا الاحتقار .

ويقول الدكتور **فايق فريد :**

— كيف تفكر فى أن تقول هذا الكلام لنائب من نواب الشعب ..

ويقول **نبيــل زكى :**

— الموت فى الواحات خير من الحرية الملوثة التى تعرضها ..

ويقول **رؤوف حلمى** الطالب بآداب القاهرة :

— لن يقبل أى مناضل شريف عروضكم المخزية .

لقد رفضوا الثمن الفادح لحرية ملوثة ، فعــزلوهم فى عنبر خاص وسحبوا منهم كل الامتيازات واســـــتخدموا معهم كل أساليب **الترهيب**

والترغيب ، وعادوا الى **((المحاريق))** بعد أن صمدوا فى وجه أقسى محاولات التعذيب النفسى .

لقد كان واضحا كل الوضوح ان **مؤامرة** لتصفية المعتقلين معنويا قد بدأت ، وكان حصيلة الجولة الاولى من المؤامرة ٣٥ معتقلا ، ومع ذلك لم تضع قيادات التنظيمات المختلفة أى خطة لمواجهة هذه المؤامرة .على العكس ازدادت حدة الصراعات وتبادل الاتهامات فيما بينها وأصبحت ظروف المعتقلين النفسية والمعنوية أكثر ملائمة لتنفيذ المؤامرة . وعبثا راحت كل المحاولات العاقلة التى بذلها عدد من الزملاء من مختلف التنظيمات كى توقف المجلات الناطقة حملة **المهاترات** المتزايدة وتبادل الاتهامات . وكلما زاد الصراع حدة ، كلما زادت **الامتيازات** فى السجن وكلما أرخت الادارة يدها .

أذكر أنه منذ عودة الزملاء من **الفيوم** زاد عدد **زيارات الاهالى** بشكل ملحوظ . كانت **المباحث العامة** تعطى كل التسهيلات لعدد من الاهالى كى **يقوموا** بزيارة ذويهم .. بشرط واحد .. ان يكتبوا ورقة صغيرة . هذه زوجة لاحد الزملاء تأتى لزيارة زوجها ومعها طفلها .

ــ علشان خاطر الطفل ده اكتب الورقة .

ــ مش ممكن .

وتصرخ فى وجهــه :

ــ مش لاقيه أوكله ..

ــ أصبرى شويه معلهش .

ــ أصبر لامتى .. لغاية ما انحرف علشان أوكل العيال .

وزوجة أخرى تهدد زوجها **بالطلاق** ، وأخرى تعطى زوجها مهلة ان لم يخرج خلالها فسوف تطلب الطلاق من المحكمة . وأمهات جئن الى أبنائهن يطالبونهم أن «يسمعوا» الكلام من أجلهن ..و..و.. وفقد ثلاثة من الزملاء عقولهم .. وراحوا يطوفون فى طرقات العنابر وحوش السجن يهلوسون .

ــ أنا عملت ايه الا الخير للناس . مراتى قالت انها راح « ... » .

ــ طيب ولادى الغلابة ذنبهم ايه ؟

ــ حكومة وطنية ولا خاينة ؟ .. مش فاهم ، يسقط مين ويحيى مين ؟ .
يحيا الوفد .. آه النحاس باشا .. الله يرحمك يا سعد باشا .
تسقط الفاصوليا والعدس ! يحيا السمك فى الماء .

وحين طلبنا من المأمور نقل هؤلاء الزملاء الى **المستشفى** قال انه أرسل للمباحث العامة يطلب الافراج عنهم . وبعد أيام جاء رد المباحث العامة ليس فقط برفض الافراج عنهم ، وانما **بعدم** نقلهم الى المستشفى . وكان مغزى الرفض واضحا .. أن يظل الزملاء الثلاثة بين المعتقلين **شبحا لقدر لا مفر منه** .

وبدأت المؤامرة مرحلة جديدة شعارها ((اما الموت فى الصحراء)) واما ((الجنون)) .. ((واما الافراج بعد كتابة ما يملى عليك)) .. حمله من المصيلحى وأركان حربه عندما حضر الى الواحات ، لكن أمثلة من البطولة كانت قد سبقت المصيلحى ، فى حضورهم الى معتقل الواحات . عاد أكثر من عشرة زملاء كانوا قد أنهوا مدة الحكم عليهم بالسجن .. عادوا معتقلين بعد أن رفضوا عرض المباحث العامة .. الافراج بشرط أن تكتب ورقـــــة !

كان من بينهم ماجد حافظ ، ورفعت السعيد ، ومنير المغربى واحمد طه وغيرهم .. كان الزملاء يحتفلون بكل زميل تنتهى مدة حكمه ويعلنون ثقتهم فى أنه لن يقبل عرض المباحث المخرب للنفس نظير الافراج عنه ، وعندما يعود معتقلا يرحبون به ويشيدون ببطولته . كانت تلك النماذج الحية التى سبقت المصيلحى فى حضوره الى الواحات ، أحد العوامل الاساسية التى ساعدت بعض الزملاء المترددين على الصمود فى وجه المصيلحى وزبانيته .

فى مساء اليوم نفسه الذى حضر فيه المصيلحى الى الواحات .. أغلقت العنابر والزنازين على غير العــــادة منذ يونيو الماضى . ثم بدأ المصيلحى يستدعى مجموعات من الزملاء يساومها على الافراج بشروطه. وما سمعه منهم كان محطما لآماله وأحلامه ..

وأحكى لك يا حبيبتى قصة واحد من هؤلاء الزملاء لمــا لها من دلالة:

كان شابا لا يزيد عمره عن ٢١ عاما وكان طالبا بجامعة القاهرة . وكان من أسرة غنية تسكن احدى عمارات القاهرة الفخمة ، يعيش مــع والديه ومع أخته التى تكبره بعامين . وأمام شقتهم كان يسكن واحد من ((المحترمين)) من رجال المخابرات . وامثال هذا الرجل ((المحترم)) لايتركون مثل هذه الفرصة تفوتهم ، بدأ بمغازلة الفتاة الحسناء فلم تستجب له ، عرض عليها كل الخدمات فرفضت ، هددها وتوعدها فتحدته . وذات يوم خرج الاخ من شقته على صوت صراخ أخته . كان الرجل ((المحترم)) يهددها بالاعتقال والتشريد فصرخت فى وجهه ، واشتبك الاخ معه . وكان جزاؤه الاعتقال . قال له المصيلحى :

— هو انت شيوعى ؟
— لا .. بل أكره الشيوعية .
— اكتب كده واخرج .
— لن أكتب شيئا ضد الشيوعية .

ورد عليه المصيلحى مندهشا .

ـــ يا ابنى أنت ضدهم ومش عاوز تكتب وتخرج ليه ؟
ـــ دول ناس أكلت معاهم عيش وملح .
ـــ لكن حاولوا يخلوك زيهم .
ـــ أبدا .. لم يحدث .. وبيعاملونى زى أى واحد منهم .
ـــ طب انت مالكش دعوة **بالسياسة** .
ـــ وعارف ليه اعتقلت .. ؟
ـــ عارف .. لكن مش احنا المسئولين .
ـــ طيب تقدر تخرجنى ..
ـــ أيوه بس بشرط تكتب ورقة .

ويقول الشاب بحسم :

ـــ لن أكتب كلمة واحدة ضد من **أكلت معهم عيش وملح** .

ولم يتحمل المصيلحى أكثر من يوم واحد ، غادر بعده المعتقل وهو يجر أذيال فشله ، وكان يتصور أنه سوف يصفى المعتقل فى أسبوع واحد وبشروطه !

لكن المؤامرة لم تتوقف .. **مجموعات جديدة** من الزملاء كانوا يرحلونها الى **القلعة والى الفيوم** لاجراء عمليات غسيل المخ على أيدى **أساتذة مدربين** على تشويه العقول وتخريب النفوس . يخرج القليل ويعود الكثير .

وفى أواخر يونيو وأوائل يوليو عام ١٩٦١ بدأ الزملاء فى **قيادات «الحزب المصرى»** يناقشون الوضع .. قالوا ان هناك جانبا ايجابيا لزيارة المصيلحى .. هو أن هناك رغبة فى تصفية المعتقل !

ـــ حسنا .. فماذا بعد ؟
ـــ لا يجب أن نبقى مدافعين .
ـــ ولماذا تبقون هكذا ؟
ـــ اذن نبادر بالهجوم .
ـــ كيف ؟
ـــ بالاضراب عن الطعام حتى الافراج عنا .
ـــ وهل تأملون فى تحقيق الافراج ؟
ـــ لا
ـــ مغامرة اذن ؟
ـــ سنحدد موعدا لفك الاضراب .
ـــ وسيتركونكم حتى ينتهى الموعد .
ـــ لن يعرفوه .. فهو سر .
ـــ حتى ولو ظل سرا .. ما الذى سيحققه الاضراب ؟
ـــ وحدة الزملاء وتماسكهم .. وصلابتهم فى وجه المؤامرة .
ـــ وربما العكس . وهو الاغلب .

أعلنوا بكل ارتياح :

ـــ حتى لو **أستكر المئات** .. فستبقى ((**الصفوة**)) ولو لم يتجاوز عددهم أصابع اليد الواحدة .

وبعد أيام .. فى النصف الثانى من **يوليو عام ١٩٦١** يبدأ اضراب الزملاء المعتقلين فى «الحزب المصرى» . ولهذا الاضراب قصة أحكيها لك فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

١٧ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة

الرســــالة رقم (٥٨)

حـــــبيبتى :

فى يوم ٨ يوليو ١٩٦١ أعلن ٢٠٠ زميل معتقل الاضراب عن الطعام. وفوجئت ادارة السجن وحاولت فى البداية اقناعهم بالعدول ولكنها بعد أن أدركت اصرارهم بدأت تتخذ الاجراءات المتبعة فى مثل هذه الحالة . بعد ٢٤ ساعة منذ بدأ الاضراب عزلت المضربين فى عنبر (٣) ، ـــ وكان خاليا بعد نقل الاخوان المسلمين الى ليمان طرة ـــ وكفت عن تقديم الطعام او اى شىء آخر فيما عدا المياه .

اذكر أن رؤوف نظمى رغم مرضه الشديد كان من أول المتطـــوعين لدخول الاضراب .

ـــ ليه يا رؤوف ؟
ـــ كى أكون أنا وزملائى الى جانب الزملاء الآخرين .
ـــ ليسوا قاصرين .
ـــ لا يملكون تجربة فى الاضراب عن الطعام .
ـــ يتعلمون ..
ـــ ربما ينهار بعضهم ..
ـــ وهل تمنعهم .. ؟
ـــ محـــــاولة ..
ـــ احتمال فشلها أكبر .
ـــ ولو ..
ـــ ولكنك مريض .. دع غيرك يقوم بالمهمة .
ـــ لن يحول المرض دون هدفى .
ـــ استشهاد اذن ؟
ـــ ربمــــــا .
ـــ بل هـــو ..

ويضحك **رؤوف نظمى** ضحكته الصافية الودودة والانسانية ، ويقول :

ـــ انت أكثر واحد فاهمنى يا درش ..

وابذل محاولة أخرى لاثنائه عن الدخـــول فى الاضراب فهو مريض بعدد لا بأس به من الامراض فى مقدمتها النزلة الشعبية ، واقول :

ـــ هناك معارك أخرى يمكن أن تستشهد فيها ..

ويقول وابتسامة على وجهه :
— أخشى أن يفوتنى القطار ..

وبعد الدفعة الاولى بيومين أعلن **١٠٠ آخرون** انضمامهم للاضراب . وفى اليوم الرابع دخل **خمسون** آخرون .

وكان المجموع ٤٠٠ معتقلا قد دخلوا الاضراب .

كنت أنا بقرار من **((المسئول المركزى))** المسئول عن الاضراب ، لاننى كما قال .. أملك **خبرة ١٨ اضرابا** عن الطعام فى السجون المختلفة . ومهمة مسئول الاضراب هى التحدث باسم المضربين أمام ادارة السجن ، وأمام النيابة .

كانت **الزنازين** تغلق ابوابها علينا ، على المسجونين والمعتقلين الذين لم يشاركوا فى الاضراب من «حدتو» أو الذين لم يسمح لهم الاطباء بذلك من «الحزب المصرى» طول النهار والليل ، ففى حالات الاضراب عن الطعام تفرض حالة الطوارىء .

وانقضى الاسبوع الاول من الاضراب لم استطع خلاله مقابلة أحد من المضربين غير اننا كنا نرسل لهم الاخبار من خلال شبابيك الزنازين .

كان الزميل **مختار جمعة النوبى** يسكن معى فى نفس الزنزانة ، فى عنبر (٢) والمواجهة للزنزانة التى يسكن فيها **محمود شندى** النوبى فى عنبر (٣) . وخلال ذلك الاسبوع ، فى مساء كل يوم كان **مختار جمعة** يرسل الاخبار من خلال نافذة زنزانتنا «بالنوبية» كى يستقبلها **محمود شندى** ويترجمها الى « العربية » .

وخلال ذلك الاسبوع كنت على اتصال مستمر بالادارة لطلب النيابة للتحقيق فلائحة السجون تنص على حضور النيابة فى موعد لا يزيد عن ٤٨ **ساعة** من بدء الاضراب . وكان المأمور يقول بأن السجن فى **منطقة عسكرية** وهو يتبع **النيابة العسكرية** ولا يملك الا أن يبلغها لكنه لا يعرف متى تحضر .

وفى اليوم العاشر جاء **الحاكم العسكرى** لمنطقة الوادى الجديد والتقى بعدد من المضربين وطلب منهم فك الاضراب مقابل مزيد من المكاسب .. كان مطلبهم الذى وضعوه أمامه **الافراج أو الموت !**

وفى اليوم الثانى عشر جاء **نائب الاحكام العسكرى** ، وهو يمثل النيابة وفتح محضرا بأقوال المضربين ، وظل طول الليل يكتب حتى ملأ أكثر من **١٢٠ صفحة.** كان نائب الاحكام العسكرى هذا متحمسا ، كتب كل ما قيل له ، بل وكان يضيف من عنده كلاما قانونيا يفيد المعتقلين وقضيتهم ، كما اضاف كلاما سياسيا هاما بعد أن استأذن المعتقلين فى كتابته . وتعهد

بعد اقفال المحضر أن يرسله الى القاهرة مع «**مخصوص**» أى بواسطة مندوب خاص . **وجاء مساء يوم ٢٣ يوليو ١٩٦١** ، أى فى اليوم السادس عشر للاضراب عن الطعام ، وتصادف أن عرفنا بخبر قدوم **رئيس النيابة العامة** من القاهرة ، بعد أن سمعنا من الترانزستور فى خطاب الرئيس عبد الناصر ، اعلان قرارات يوليو ١٩٦١ .

كان الزميل **رمزى يوسف** الذى يستمع الى الخطاب من السماعة يسجل اسماء الشركات والبنوك التى أممت والدهشة بادية على وجهه . وبعد الخطاب قرأها علينا وسأل أحد الزملاء الزميل « **هرارى** » **وهو من الزملاء** المنظرين لسياسة « **الحزب المصرى** » .

— ايه رايك يا زميل هرارى .

وقال الرجل وكان يستمع **بذهول** الى أسماء الشركات والبنوك التى أممت فقال على الفور :

— ضربة حاسمة للبورجوازية الكبيرة .
— فقــط ؟
— وقطاعات هامة من البورجوازية المتوسطة .

ونضحك :

— يعنى مش تدعيم للاحتكارية يا زميل هرارى ؟

ويبتسم هرارى :

— ده كلام يعاد فيه النظر .

وبالمناسبة .. لم يكن رأى **هرارى** له أهميته فقط لان الرجل يملك ثروة نظرية ، وانما لأنه كان أحد المحـامين القلائل للشركات المصرية الكبرى ، وكان بحكم عمله يعرف الكثير عن الاقتصاد المصرى الذى أخذ يحدثنا عنه بتفصيل لم نكن نعرفه ، وما كان يمكن أن نعرفه الا من «**محامى الاحتكارات المصرية** » **!** . وبالطبع لم نندهش أبدا حين شطب هرارى على كل ماقاله لحظة سماعه قرارات يوليو ، فقد كلفوه — قيادة « الحزب المصرى» — **أن يلقى خمس محاضرات متتالية تتلخص فى أن هذه القرارات** تدعيم **لرأسمالية الدولة الاحتكارية !** كما يقول « الحزب المصرى » ! .

كانت حالة المضربين عن الطعام قد ســاءت كثيرا ، ووصلت حالة **رؤوف نظمى وعبد الله كامل** الى وضع الخطر ، واستدعتنى الادارة لمقابلة رئيس النيابة العامة الذى قدم من القاهرة ، وكان معه نائب الاحـكام العسكرى الذى قال لى بمجرد أن رآنى :

— الاضراب حتى النهاية .

ولم أرد عليه .

وصاح بحماس جعلنى استريب فيه :

— الاضراب لازم يستمر .
— لما نشوف .

ويصرخ بصوت اكثر حماسا :

— لما نشوف ايه .. الاضراب حتى الافراج .. أو الموت .

وتركته وذهبت لمقابلة الزميل «المسئول المركزى» حيث اخبرته بما سمعناه منذ لحظات فى خطاب **الرئيس جمال عبد الناصر** ..سألنى والانهاك باديا على صوته الخافت:

— ايه رايك ؟
— رايى السياسى تعرفه جيدا .
— بالنسبة للاضراب ؟
— **الا**ستمرار فيه بعد صدور هذه القرارات خطأ .

واذهب معه الى **«الزنزانة»** التى ينام فيها الزملاء **الذين** يشكلون **«القيادة»** المحلية للمعتقل ، ويخبرهم عن قرارات يوليو ويعلن أنه لا يملك أن يتخذ موقفا يتعارض مع السياسة الرسمية للحزب . وتوافق الاغلبية من الزملاء على رايه . ويقول احد الزملاء من الاقلية ، والذى يتفق رايه معى ، بلهجة استفزازية :

— الموقف التنظيمى الوحيد هو الاستمرار فى الاضراب .. حتى الافراج أو الموت .

ويســـود صمت متوتر .. اقطعه فى هدوء :

— ممكن التصرف دون الاشارة الى موقف الحزب .

ويعلق الزميل بلهجة تحس فيها التشفى **لموقف** « **الاغلبية** » .

— أفتكر مش مهمتك انك تطلعهم من «الورطة» !

واتجاهل كلامه واقول للزملاء :

— يمكن فك الاضراب بدون كلام سياسى خالص .

كنت أفكر فى شىء واحد .. هو أن لا يؤخـــذ على المعتقلين موقف الاستمرار فى الاضراب بينما كل الصحف والاذاعات العالمية تكتب عن مغزى ودلالة تلك **القرارات التقدمية** . فى نفس الوقت كان يحدونى الامل فى أن **تغير** قيادة الحزب موقفها عند دراسة تلك القرارات .

حاول **نائب الاحكام العسكرى** ان يعرف ماذا نوينا عليه قبل أن أبدأ حديثى مع رئيس النيابة ، لكن لم أعطه فرصة الكلام معى .

فتح رئيس النيابة المحضر .. قلت :

ـــ بعض المطالب يريدها المعتقلون .
ـــ أى مطلب يمكن تحقيقه سأنفذه .

ثم يبتسم قائلا :

ـــ طبعا ماعدا الافراج .. ليس من سلطة النيابة .
ـــ طبعا دى مسألة معروفة . لكن النيابة تملك أن تعد على الاقل .
ـــ وبماذا يمكن أن أعد به ؟
ـــ أن تتصل برئاسة الجمهورية كى ترسل لنا مندوبا نناقشه .
ـــ أعد بذلك .

ويقفل رئيس النيابة المحضر ، ويوقع عليه الزميل «المسئول المركزى» ثم يوقع رئيس النيابة ، بينما يضرب **نائب الاحكام العسكرى** كفا على كف، ولكنه لا يستطيع التعليق امام النيابة .

وذات يوم فى **أواخر عام ١٩٦٧** فوجئت به يدخل مكتبى فى ((**أخبار اليوم**)) وهو يرتدى بدلة مدنى ، لم أعرفه فى البداية ، كان نحيلا وضعيفا، ذقنه غير حليقة ، وملابسه متسخة ، وحين عرفنى بنفسه صحت من الدهشـــــــة :

ـــ مش معقول ؟

قال وعلى وجهه ابتسامة **حزينة** :

ـــ معقول ونص .

وبدأ يقص على حكايته .

فى اغسطس **عام ١٩٦١** ، بعد فك الاضراب بحوالى شهر ، استدعته **المخابرات العامة** للتحقيق معه فى محضر الاضراب الذى كتبه . قالوا له انك خرجت عن مهام وظيفتك حين سجلت فى المحضر كلاما سياسيا فى ١٢٠ صفحة به **مساس بالحكم** . وقالوا له انه ظهر من التحريات التى اكدها تعاطفك الواضح مع المعتقلين فى طريقة كتابة المحضر ، انك **((شيوعى))** ونقلوه الى سيوة كضابط جيش عادى لا علاقة له بالقضاء العسكرى ، **واثناء قضاء عطلته السنوية فى القاهرة عام ١٩٦٢ ، قبضوا عليه** ومعه طالبين واتهموه ، بقلب نظام الحكم والانضمام الى **تنظيم شيوعى** ، وحكم عليه هو وزملائه بالسجن ثلاث سنوات لكل منهم .

قلت له ضـــــاحكا :

ـــ لم نرك فى الواحات .
ـــ قضيت العقوبة فى سجن مصر .

قلت بأســـف واضح .

— ظلمنـــــاك .
— وانت بالذات .
— أعترف .. وماذا تعمل الآن ؟
— ابحث عن وظيفة .
— هل استطيع مساعدتك ؟
— من اجل هذا جئت لك .

حسب الرجل انني قد اصبحت **((مهما)) !**

ســــــألته :

— وكيف يمكن ان اساعدك؟
— توصى على واحد من المسئولين .

انا اوصى عليه ! **ومن انا ؟** يظن المسكين انني قد اصبحت **((مهما))** أستطيع أن أرفع سماعة التليفون واطلب احد المسئولين وأقول له .. وظف هذا الرجل !

قلت له وانا اضحك :

— هل تظن انني ((مهم)) ؟

قال بدهشــــــة ..

— تتولون مناصب هامة فى الدولة والاتحاد الاشتراكى والصحف .
— وهميعيش فيه الكثيرون .
— الكل يؤكد انها حقيقة ..
— أبدا ، ابدا .
— ماذا اذن ؟
— **ديكور يا عزيزى !.**

وبدا على الرجل للحظة انه لا يصدقنى . ولكن يبدوا أن نبرات صوتى وتعبيرات وجهى كانت تنطق بصدقى . قال الرجل برجاء :

— حاول .. ارجوك ..

قلت :

— ربما أجد من ارجوه ليكلم واحد من المسئولين .

ولم أره بعد ذلك مرة ثانية . يبدو ان الرجل اقتنع بأننى لست **((مهما)) واننى غير قادر على عمل أى شىء له .**

وبعد اقل من شهرين منذ صدرت قرارات يوليه ، وفى سبتمبر ١٩٦١ **وقع الانفصال السورى** . وازداد لهيب الصراع بين الزملاء .

— مؤامرة رجعية استعمارية .
— بل لقد تحررت سوريا .
— الرجعية العربية وراء الانفصال .
— أيده الحزب الشيوعي السوري .
— والتقى مع الرجعية والاستعمار .

وحين اجتمع **محافظ الوادي** الجديد بجميع المعتقلين والمسجونين ، والقى ممثلو التنظيمات كلمتاهم ادانت ((**حدتو**)) الانفصال ، وأوضحت أن القوى التي تتعارض مصالحها مع الاشتراكية هي التي وراء الانفصال . وتحدث مندوب ((**الحزب المصري**)) عن موقف الشيوعيين عندما قامت الوحدة ، فهم لم يكونوا ضدها وانما كان لهم مآخذ على التطبيق ، ولم يقل أن الانفصال قد حقق ((**حرية سوريا**)) ! وطالب مندوب ((**الأفق**)) بعد أن ادان المؤامرة الاستعمارية ، باطلاق الحريات الديموقراطية لكل الشعب ، واقامة الاحزاب الوطنية وفي مقدمتها الحزب الشيوعي ، فهي الضمان الوحيد لصيانة وتدعيم اجراءات يوليو التقدمية .

وبعد الاجتماع انهالت الاسئلة على الزملاء في ((**الحزب المصري**)) . لماذا لم تعلن قيادتكم رأيها في الانفصال ؟ لماذا لم تقفوا بوضوح مع الحزب **الشيوعي السوري** ؟ ولماذا ؟ ولماذا ؟ . وتخرج الصحف الثلاث صباح كل يوم تتبادل الشتائم والاتهامات ، وتزداد حيرة الزملاء البسطاء . ويفرك **المصيلحي** يده من فرط سعادته ، ويبعث بقوائم جديدة بأسماء المعتقلين المطلوبين للسفر الى ((**القلعة**)) لاجراء عمليات **غسيل المخ** ، وتتساقط هناك **أعداد أخرى** ، ويعود الذين مازالت دماغهم « ناشفه » الى الواحات .

وفي أوائل **ديسمبر عام ١٩٦١** وصلنا خبر مثير ، **سكرتير الحزب الشيوعي المصري** وكان هو الوحيد الذي لم يقبض عليه من أعضاء القيادة ، قدم دفاعا سياسيا أمام **محكمة الدجوي** يعلن فيه **تأييده** لكل الاجراءات التقدمية التي حققتها ثورة ٢٣ يوليو ، ويدين الانفصال السوري كمؤامرة رجعية استعمارية ، ويطالب بالديمقراطية والحريات السياسية واقامة الجبهة الوطنية .

وعندما حضر الى الواحات بعد الحكم عليه بالاشغال الشاقة ، جرى بيننا حوار أحكي لك عنه يا حبيبتي في رسالتي المقبلة .

١٧ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـــالة رقم (٥٩)

حبيبتى

كان نمطا طريفا من الصداقة بينى وبين **الشهيد ابراهيم عامر** . فى احدى المرات الكثيرة التى التقينا فيها ــ **بجوار سور سجن المحاريق** ــ لمناقشة بعض القضايا الفكرية .. سألنى :

ــ ايه رايك ؟ عندى احساس بانك تجلس معى مضطرا ؟

سألته :

ــ فى كل جلساتنا ؟

سكت قليلا .. وقال :

ــ لا .. بعضها .

قلت ضاحكا ..

ــ معك حق .

سأل بدهشـــــة :

ــ وما الذى يضطرك ؟

ــ لانى **أحبك** .. وفى نفس الوقت **أخاف** منك .

قال على الفور :

ــ فهمت .

ــ وطبعا تستمر جلساتنا ؟

قال بحماس :

ــ بل واقترح زيادتها

ــ موافق .

لم اكن اعرف الزميل **الشهيد ابراهيم عامر** قبل ان التقى به فى سجن **المحاريق عام ١٩٥٩** . بعض الذين عرفوه الصقوا به تلك الاتهـــامات التقليدية « مراجع ، مرتد ، تروتسكى .. الخ » . وحين التقيت به لم يكن اسمى قد وضع بعد فى قائمة المتهمين بتلك الاتهامات ، ولهـــذا كنت اخاف منه ! لكن رغبتى فى التزود بالمعرفة كانت تشدنى للجـــلوس معه ساعات طويلة استمع منه خلالها الى قراءاته العديدة والمتنوعة والتى لم أقرأها . ورغم اننى فى كل مرة كنت اضع التحصينات اللازمة حـــول

عقلي حتى لا يتأثر بكلام ((**المرتدين والمراجعين**)) المدانين من ((**الامية**)) فقـــد كان بعض هذا الكلام يخترق تلك التحصـــينات ويلتقطه عقلي ويختزنه !

وجاءت لحظة وجدت فيها عقلي يخرج بعض ما اختزنه خـــلال اكثر من ثلاث سنوات .. بعض المفكرين الكبار الذين **اجبروهم** على أن يقدموا ((**نقدا ذاتيا**)) ! والبعض الذين رفضوا ((**نقد**)) أفكارهم ففصلوا من احزابهم ! وآخرون قدموا استقالاتهم وانضموا الى المعسكر المعادى ! اذا لم يكن كل هذا صحيح تماما ، ففيه **جـــزء من الحقيقـــة** تضخم منه الدعايات الاستعمارية والرجعية ، فى حربها ضد بعض الاحزاب الشيوعية. هذه الاحزاب ، بدلا من أن تراجع ممارستها الخاطئة لمبدأ « النقد والنقد الذاتى » تـــكتفى بادانة كل من يحاول مناقشـــة تلك الممارسات ونتائجها المدمرة .

خلال اقل من ١٥ يوما تجسدت امامى حقيقة الممارسة الخاطئـــة لمبدأ ((**النقد والنقـــد الذاتى**)) على يد عدد من قيادات الاحزاب الشيوعية حتى اصبح اسلوبا ((**عصريا**)) من اساليب **محاكم التفتيش** ضد كل من يحمل فكرا يهدد فكرها وبالتالى يهدد ((**سلطتها**)) !

كانت ملامح هذه الحقيقة تشكلها لقاءاتى الثلاثة مع الزميل سكرتير ((**الحزب الشيوعى المصرى**)) عند حضوره الى سجن « المحاريق » بعد محاكمته وصدور الحكم عليه فى **أوائل عام ١٩٦٢** .

خلال لقاءنا الاول اتضح اتفاقنا الكامل على الجوانب الاساسية للسياسة التى يجب أن يتبناها التنظيم ــ خاصة بعد اجراءات يوليو ١٩٦١ ــ والتى أعلنها **أمام المحكمة** عند محاكمته ، وأصدر بهـــا تقريرا . واتفقنا كذلك على ضرورة أن تقوم ((**القيادة**)) بعمل تقييم لمواقف التنظيم **منذ** تمت الوحدة فى **٨ يناير ١٩٥٨** ، سياسيا وتنظيميا بغرض استخلاص دروس يمكن أن تكون أساسا لمناقشة موضوعية مع زملاء ((**حدتو**)) . وعندما عرضت عليه فكرة مناقشة هذا التقييم فى **المؤتمر الاول** «للحزب» الذى حل موعده كما جاء بلائحة التنظيم ، وافق بحماس شديد . وفى ختام ذلك اللقاء الاول أبديت له بعض مخاوفى من أن يحدث **ضغط** عليه من جانب زملائه حين يصورون له أن تغيير خطهم السياسى الحالى يعنى هزيمتهم وهزيمة ((**تيار تاريخى**)) لصالح ((**تيار تاريخى آخر**)) أى يعنى هزيمة تيار « العمال والفلاحين » وانتصار تيار « المصرى القـــديم » ، قال بغضب انه يرفض هذا التفكير « **الحلقى** » المدمر ! وانه قـــد آن الاوان لتصفية كل الافـــكار ((**الشللية والحلقية**)) التى اضرت بالحركة الثـــورية وجعلتهـــا عاجزة عن الحـــركة . وحين ســـألته : **مـــاذا سيكون موقفك لو مارسوا عليك الضغوط كى تغير موقفك السياسى ؟ قال بحسم :**

— تأكد يا زميل بأنني لن أرضخ لأى **ضغوط** لاجبارى على تغيير موقفى الذى اعلنته فى المحكمة باقتناع كامل . وانا على ثقة بأن موقفهم سيكون هو موقفى .

— واذا اصروا على موقفهم ؟

— فى هذه الحالة سوف يكون موقفى مع « الاقلية » .

كنت أعتبر ان هذه المقابلة يمكن ان تكون بداية **مرحلة** جديدة فى مسار الحركة الثورية ، فان اقتنعت « الاغلبية » **بخط سياسى جديد** « للاقلية » ومعها سكرتير الحزب الذى تولى هذا المنصب بحكم موقعه فى « الاغلبية » السابقة ، ويمكن ان يحتفظ به فى « الاغلبية » الجديدة فان ذلك يعتبر نصرا هائلا للحركة الشورية المصرية . وان أصرت « الاغلبية » الحالية على موقفها وأصبح « سكرتير الحزب » فى « الاقلية » يتفق فى الرأى مع تيار تاريخى غير تياره التاريخى التقليدى ، فان هذا الموقف سوف يكون ضربة هائلة للتفكير **« الحلقى »** وبالتالى بداية **مرحلة انصهار « التيارات التاريخية »** فى تيار واحد يواكب مسار الحركة الثورية ومتطلباتها المتغيرة الجديدة . لم يعلق **مجدى فهمى** على حديثى .. وللمرة الاولى خلال رحلتنا الطويلة المشتركة لم اطلب منه تعليقا ، ورحت فى نوم هادىء عميق مع **حلم عمرى .. « انصهار التيارات التاريخية المختلفة فى تيار واحد » !**

وتجدد الامل فى تحقيق « حلم عمرى » خلال المقابلة الثانية مع الزميل « السكرتير » . فقد اتفقنا على أنه لا بديل « لانصهار التيارات التاريخية المختلفة » غير مزيد من تحلل الحركة الثورية وتفتتها . وأن التمسك بموقفه ، وهو الذى يحظى بثقة وتأييد عدد كبير من زملائه « التاريخيين » ومن « المصرى القديم » ومن التيارات الاخرى سوف يكون البداية الحقيقية **للوحدة بين التنظيمات** . تلك الوحدة التى حالت اسطورة **ادعاء** كل تنظيم بأنه **« التيار الثورى الوحيد »** دون تحقيقها منذ بدات محاولاتها الاولى فى الاربعينات بين « الحركة المصرية للتحرر الوطنى » و « الشرارة » فى تنظيم « الحركة الديمقراطية للتحرر الوطنى » التى افرخت بعد شهور « التكتل الثورى » و « العمالية **الثورية** » و « نحو حزب شيوعى » و « صوت المعارضة » و « نواة الحزب الشيوعى » و « طليعة الشيوعيين » والى جانب هذه التنظيمات كان « الحزب الشيوعى المصرى » ، تنظيما صغيرا أيضا معظم قيادته واعضاؤه من « حدتو » ، وفضلا عن كل تلك التنظيمات ، كان يوجد **تنظيم** كبير لم يشترك فى وحدة الاربعينيات هو « الديموقراطية الشعبية » الذى اصبح « حزب العمال والفلاحين » وحصل على أغلبية مقاعد اللجنة المركزية فى **وحدة ٨ يناير ١٩٥٨** بينه وبين « الحزب الشيوعى المصرى » وبين « الحركة الديموقراطية للتحرر الوطنى » بعد أن عادت اليها معظم التنظيمات التى انشقت عنها وحصول عدد من قادتها على مقاعد فى قيادة « حدتو » ثم فى قيادة حزب وحدة ٨ يناير ١٩٥٨ .

وفى لقاء ثالث بينى وبين الزميل السكرتير فوجئت به يقول لى أنه أعاد دراسة موقفه السياسى الذى أعلنه فى **المحكمة** فاكتشف أنه وقع تحت تأثير سياسة ((**حدتو**)) وانزلق دون أن يدرى الى **الفكر اليمينى !** وقال أنه يرجونى أن أراجع موقفى السياسى ولكن بعد أن أتحرر من التفكير « الحلقى » ! والالتزام « بالتيار التاريخى » !

لم أعلق على كلام الزميل بكلمة واحدة وانصرفت .. وأنا على ثقة من أننا لن نلتقى مرة أخرى فى **حـــوار آخر** .. ثم التقيت به بعـــد أيام مع عدد كبير من الزملاء الذين جلسوا فى « طرقة » عنبر (٣) فى انتظار البيان الذى سيذيعه و « ينقد » فيه نفسه ، وفجأة ارتفعت بعض الحناجر بهتافات .. تنادى بســـقوط **الحكومة** وعملائهـــا المندسين وحياة الحزب وسكرتيره ، وبدأ الاجتماع بكلمة زميل « قيادى » ندد فيها بالفكر اليمينى البراق الذى استطاع أن يؤثر فى ((**سكرتير الحزب**)) وجعله يقف موقفا سياسيا خاطئا ، لكن زملاؤه استطاعوا « بالمناقشة » أن يساعدوه على اكتشافه أخطائه المدمرة .

وترتفع حناجر بنفس الهتافات . وتتوالى تعليقات عـــدد من الزملاء من التنظيمات الاخرى ، ويبدأ ((**السكرتير**)) فى القاء كلمته . كان وحده فى الخارج بعيدا عن زملائه فوقع **ضحية الفكر اليمينى** . ولما اجتمع بزملائه اتضح له أن رأيه السياسى **خطأ** ويلتقى مع الآراء المعادية **للطبقة العاملة !** وأنـــه الآن يوافق على خط الحـــــزب ((**الطبقى**)) ! ويســـتنكر آراءه السابقة التى تخـــدم مصالح « البورجوازية » وتلتقى مع الفـــكر الرجعى واليمينى !

بعد ذلك الاجتماع « الخطير » التف حولى عدد من الزملاء « يأخذون بخاطرى » ! ويعزوننى فى وفاة ((**حلم عمرى**)) الذى مات قبل أن يولد .

واسمع صوتا ينادى على من بعيد :

ــ خير .
ــ اجتماع « القيادة المحلية » .

ويبدأ الاجتماع بكلمة من رئيس الجلسة يحيى فيهـــا الموقف الشجاع للزميل « السكرتير » ويقدم صيغة قرار بذلك للتصويت . وترتفع أصابع « الاغلبية » بالموافقة . ويسأل رئيس الجلسة : من المعترض ؟ أرفع يدى ، وزميلان آخران . ويسأل رئيس الجلسة : من الممتنع ؟ لا أحـــد يرفع أصبعه . يقول بغضب لزميلين :

ــ يبقى ايه موقفكم يا زملا ؟

يقولان فى صوت واحد :

ــ عدم الاكتراث .

وقبل أن يواصل رئيس الجلسة الاجتماع أرفع يدى فى طلب كلمة .. أقـــــول :

— لاسباب سياسية وتنظيمية تعرفونها جيدا .. أقدم **استقالتى** من « اللجنة القيادية » .

ويفاجأ الجميع بالموقف . ويقول رئيس الجلسة :

— ندرج الاستقالة فى جدول الاعمال .

وأسأل :

لـــماذا ؟

— ربما لا توافق اللجنـــة .
— لن يغير هذا منموقفى .
— تخرج على رأى « الحزب » ؟
— ليس هناك ما يجبـــرنى على البقاء .
— تبقى بقـــرار .
— من قال هــــذا ؟
— مبادىء التنظيم ..
— أهدرتموها بما يكفى .

وحين أهم بالخروج من الغرفة يصر أحد عقلائهم — على أن أبقى لاسمع بعض **القرارات** التنظيمية الهامة . وأوافق بشرط أن يبدأ الاجتماع بها . ويعلن رئيس الجلسة قرارا من « **اللجنة المركزية** » بعمل «**كونفرنس**» لمناقشة الخط السياسى للحـــزب ، ويذيع أسماء الاعضـــاء فى هـــذا «**الكونفرنس**» . كان اسمى **بينهم ومعى ثلاثة آخرين** من الزملاء الذين يتفقون معى ، واكثر من **ثلاثين زميلا** من الرأى الآخر الرسمى . وقبل أن تبدأ المناقشة أهم بالوقوف للانصراف ، ويسأل رئيس الجلسة :

— ما رأيك فى هذا القرار ؟
— حلو .. يفرح « العيال » .

يغضب .. ويحتج ويطلب من زملائـــه النظـــر فى أمرى **لاهانتى** « القيادة » بينما أغادر الغرفة .

ما كدت أجد مكانا الى جوار سور السجن الخارجى أستظل فيه خلال وقفة مع النفس ، حتى وجدت عددا من الزملاء الذين شاهدونى وأنا أخرج من غرفة الاجتماع يجلسون الى جانبى . سألونى عن أســـباب خروجى من الاجتماع قبل أن ينتهى ، فلما لم أقل لهم شيئا احترموا رغبتى فى عدم الكلام .

كنت بحاجة الى أن أنفرد بنفسى ، لكن بعد دقائق أسمع صوت سجان ينادى على :

ـــ المأمور عاوزك فى مكتبه .

وما أن لمحنى المأمور وكان يهم بركوب عربته حتى قال لى :

ـــ انت فين .. اكثر من ساعة وانا منتظرك .
ـــ كنت قاعد جنب السور ..
ـــ طبعا يا عم .. سرحان فى بره .. كلها كام يوم وتخرج .
ـــ أخرج .. والا ارجع معتقل .. ؟

ويقول المأمور بثقة ..

ـــ مفيش اعتقال .. راح تخرج .
ـــ يا ريت .. وهو انا غاوى سجن .
ـــ على العموم انا نازل القاهرة وراح اجيب لك الخبر اليقين من المباحث .

كانت **العشر سنوات اشغال شاقة** التى حكم على بها قد مرت ولم يبق غير **١٥ يوما** على انتهاء مدة العقوبة . وقبل أن أرحل الى القاهرة للافراج عنى كان المأمور قد عاد منها يحمل معه تأكيدا من **المباحث العامة** بأنه سوف يفرج عنى ولن أعتقل ، وينتشر الخبر بين الزملاء وتسود موجة من التفاؤل وتجرى عددا من الرهانات بين الزملاء .. وتنطلق اشاعة تربط بين قرب انتهاء مدة العقوبة وبين **استقالتى** من « القيادة المحلية » !

احكى لك هذا كله فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٢٢ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـالة رقم (٦٠)

حبيبتى

هل تذكرين قصة علبة ((**السلمون**)) التى حدثتك عنها فى احـد رسائلى الاولى السابقة اليك . وكيف كانت **المباحث العامة** تدبر لى قضية أخرى بعد انتهاء **العشر سنوات أشغال شاقة** التى حكم بها على ؟ قبل ذلك اليوم الذى هاجمتنى فيه المباحث العامة فى سجن مصر بحوالى ١٥ يوما ، وكنت ما أزال فى سجن المحاريق اتهمت بأننى دفعت **ثمن الافراج** عنى ! كان الثمن كما قال الزميل (...) وسط عدد من الزملاء هـو استقالتى من « القيادة المحلية » ! وقال أن اتفاقا قد حدث **بينى وبين المباحث العامة بواسطة المأمور** بأن استقيل من « الحزب » نظير الافراج عنى ، لذلك ذهب المأمور بعـد هذه الاسـتقالة يحمل للمباحث العامة خبرها وعاد يحمل تأكيدها بالافراج عنى ! كاد بعض الزملاء ان يضربوه لولا تدخل بعض العقلاء من زملائه وهدد آخرون مثل الدكتور **محمـود القويسنى** ، بأنهم سوف يقدمون استقالاتهم من التنظيم اذا لم تصـدر « القيادة » بيانا يدين هذه الافتراءات القذرة . وحين جاءنى زميـل من « القيادة » فى نفس اليوم يقدم الاعتذار ويطلب منى أن أحضر اجتماعا للقيادة لتأكيد ثقتها بى ، رفضت الاعتذار ، كما رفضت حضور الاجتماع .

ورغم أن « القيادة » أصدرت بيانا فى مجلة ((**الطريق**)) فى صباح اليوم التالى تعلن فيه توجيه « اللوم الشديد » للزميل (...) ، ويؤكد ثقتها بى ، وينبه الى أننى لم أستقيل من « الحزب » وانما من « القيادة المحلية » ويدعونى الى العودة اليها بعد رفض الاستقالة ، ورغم اعتذار كل أعضاء « القيادة » لى وحديثهم « الحلو » عن تاريخى ((**المجيـد**)) ونضالى ((**المشرف**)) وأنهم يعتمدون على فى تنشيط العمل بالخارج اذا أفرج عنى ، فاننى م أقبل حرفا واحدا من كل هذا الكلام . كان احساسى **بالمرارة** أثقل من ملايين اطنان كلامهم ((**الحلو**)) . ليس موقفا ذاتيا بقدر ما هو موقف موضوعى .

لماذا هذا الاصرار على توجيه الاتهامات ((بالبوليسـية والعمالة و . و .)) لكل من يرتفع صوته برأى مخالف ((لاى قيادة)) منـذ الاربعينات وحتى اليوم ؟ مئات من أبناء الشعب الشرفاء أدانتهم «القيادات المختلفة » منـذ بدأت الحركة الثورية فى الاربعينـات ، ولم تتوقف حتى اليوم . **من المسئول عن تدنى الصراع بين التنظيمات المختلفـة ، وداخل كل تنظيم ، الى هذا الحد ؟ علامات استفهام** أمام عناصر بعينها تصـدت لقيادة الحركة الثورية ، ولكن لا أحد منهم يجيب عليها .

واحسب يا ابنـــة الستينات أن قدراتك **الذاتية فضلا** عن ظروفك **الموضوعية** تمنحك فرصة الاجابة على **علامات الاستفهام** هـــذه وأنت تؤرخين **للاربعينيات** .

على اننى مازلت حتى اليوم احس **بمرارة** الخمسة عشر يوما الاخيرة لى فى سجن « **المحاريق** » قبل نزولى لسجن مصر « **للافراج** » عنى ، او « **لاعتقالى** » أو « **للحكم** » على فى قضية أخرى كانت تلفق ضـــدى . واجد نفسى اليوم أعقد مقارنة بين « زملاء » **أعمت ذواتهم قلوبهم** ففقدوا انسانيتهم ، وبين بعض « **الضباط** » الذين نشأت بينى وبينهم عـــلاقة **انسانية** ،كما أوضحت لك فى بعض رسائلى السابقة اليك .كان المأمور(...) هو الذى ذهب الى **المباحث العامة** ليسأل ان كان سيفرج عنى أم لا ، فقالوا له أنه سيفرج عنه . وجاء الرجل يزف الينا الخبر وهو سعيد بالافراج عنى وعن الجميع كما قال . **فما الذى دفعه الى ذلك سوى الجانب الانسانى فى داخله ؟**

ربما لم يتحمس للقيام بهذه المهمة الا بالنسبة لى فقط . فاذا كان تحمسه هذا ليس لسبب «**بوليسى**» ، وليس لانه «**قريبى**» فهل يمكن أن يكون هناك سبب آخر غير **الصداقة** ؟. وما وجه الغرابة فى ذلك ؟ ولكن بعض «**الثوار**» ويا للاسف وقد غلبوا **ذواتهم** ، وفقدوا انسانيتهم لم يعد فى قدرتهم سوى تشويه العلاقات الانسانية .

وعند مقارنة التعامل الانسانى بين البشر خلال الخمسة عشر يوما قبل نزولى من سجن « المحاريق » ، الى سجن « مصر » فى أواخر فبراير **١٩٦٢** ، أجد الزميل (...) وبعض مريديه يقاطعوننى مقاطعة تامة ، ولا يحضرون الاحتفال الذى أقامه لى الزملاء لتوديعى ليلة سفرى الى القاهرة ، ولا يسلمون على صباح يوم مغادرتى سجن المحاريق الى سجن مصر . بينما أجد مأمور السجن يدعونى لتنـــاول الشـــاى معـــه ونتبادل حديثا انسانيا ، وعند مغادرتى بوابة السجن الخارجية يتقدم نحوى ويعانقنى ، وقبل أن تتحرك بى السيارة يصعد اليها ليودعنى مرة أخرى وهو يعانقنى ويؤكد على أن أتصل به بعد خروجى .

غير أن لحظات أخرى انسانية عشتها بين الزملاء من التنظيمـــات المختلفة ضاعفت من ثقتى « بالانسان » . الدكتور **محمـــود القويسنى** رحمه الله جلس معى مرات عديدة تبادلنا خلالهـــا ذكريات انســـانية ومازلت أرى حتى اليوم دموعه الابوية وهو يوصينى بالذهاب الى منزله وزيارة ولديه « أيمن » و « أمانى » . والمرور عليهما كلما وجـــدت فرصة لذلك . **والدكتور شريف حتـــاته وزكى مراد محمد شطا ورفعت السعيد** الذين أصروا على أن يقيموا لى احتفالا خاصا شربت خلاله الشاى والسجاير «زى ماانا عاوز» كما قال **محمد شطا**. ومازلت أذكر كلماتهم الانسانية التى قالوها لى فى ذلك الاحتفال. **ورفعت صالح** المدرس بمدرسة خاصة « **بعشش الترجمان** » أوصانى أن أزور زوجته وأولاده الصـــغار

واشـــــترى لهم بعض الحلوى واقول لهم أنهـــا من « بابا » . **ورمزى يوسف** الذى أوصانى أن اقبل أولاده **يوسف وماجده وفاتن** وان اشرح لهم لمـــاذا هو مسجون ، وان لا يسمعوا كلام « أمهم » التى تضـغط عليه بواسطتهم كى يخرج من السجن بشروط المباحث . وعشرات من الزملاء جلسوا معى يتحدثون عن مشاكل أولادهم وعائلاتهم ويوصننى بأن أعمل ما بوسعى للتخفيف منها حتى يعودوا اليهم . لقد قضيت معهم كل ساعات الليل والنهار طوال **الخمسة عشر يوما** التى سبقت نزولى الى **ســجن مصر** ، عاشوا خلالها على أمل أن يفـــرج عنى وابذل جهدا للتخفيف من معاناة اهاليهم ، أما الليلة الاخيرة قبـــل مغادرتى سجن « المحاريق » فقـــد خصصتها **لعم شعبان حافظ الذى يمثـل بالنسبة لنـــا تاريخـــا كاملا فمنـــذ العشرينات وحيـــاة شعبان حافظ ســلسلة من التضحيات من أجل مصر . فقـــد شارك مع حسن العرابى وســـلامة موسى وعبـــد الله عنان والشيخ صفوان أبو الفتح والشيخ عبد اللطيف نجيب وانطون مارون** ، فى أول تنظيم سياسى يتبنى الاشتراكية العلمية . ومنذ حكم عليه هو وزملاؤه بالسجن فى **أكتوبر ١٩٢٤** ، وهو يخرج من السجن ليعود اليه مرة أخرى ، وهكذا ، ثم كانت المرة الاخيرة التى دخل فيها السجن فى **يناير ١٩٥٩** ، وكان عمره **٧٥ عاما** .

كان تقديرى أن جلستى مع عم **شعبان حافظ** التى بدات مع غروب شمس ذلك اليوم لن تستمر أكثر من ساعة ، اجلس بعدها مع بعض الزملاء الاصدقاء الذين لم اتحدث معهم بعد ، لكن الجلسة معه طالت حتى الفجر ، بعدها اصر على أن **أنام** الى جانبه الساعات الباقية على شروق الشمس .

كان حوارنا متصلا بكل **صوره الانسانية** . ما أن جلست الى جانبه على « **برشه** » الذى غطاه ببطانية وملاءة بيضاء نظيفة . وضع يده على كتفى وسألنى :

ــ كل حاجتك جاهزة ؟
ــ لسه يا عم شــعبان .
ــ وليه يا ابنى ماجهزتش نفسك ؟
ــ قبل ما انام راح اوضب كل حاجة .

نهض واقفا ومد يده الى كى انهض معه . قلت له :

ــ ماحنا قاعدين هنا يا عم شعبان .
ــ أيوه .. بس تعالى معايا .

واخذنى من يدى كما يأخذ الاب **طفله الصغير** وذهب بى الى **الزنزانة** التى اعيش بها . قال وعلى وجهه ابتسامة حب وحنان :

ــ فين ملابسك ؟
ــ أهى

واخذ ((**يلمها**)) بنفسه ويضعها فى كيس حمله فى يد وامسك يدى باليد الاخرى ، وقال :

ــ ياللا بينا . .

وقبل ان نغادر الزنزانة فى طريقنا الى زنزانته مرة أخرى يقول **رمزى يوسف** .

ــ ايه يا عم شعبان . . عاوزين درش شوية ؟
ــ يا أخى ما هو طول عمره معاكو . . راح ينام عندى الليلة .

ويجرى وراءنا **محمود شندى** . . ويصيح . .

ــ مش ممكن يا عم شعبان . . احنا عاملين له حفلة الليلة .

ويرد عليه بحسم :

ــ انا قلت راح ينام عندى . . يعنى راح ينام عندى .

ونصل الى زنزانة عم شعبان . يضع ((**مخلة**)) ملابسى برفق على ((**برشه**)) ، يفتحها ، ويقول :

ــ البدلة مالها مكرمشة كده ؟
ــ بقالها عشر سنوات يا عم شعبان .
ــ وراح تلبسها وهيه مكرمشة كده ؟
ــ أكويها فين .

ويضحك قائلا :

ــ أوريك ازاى ؟

يمسك بنطلون البدلة يطبقه بعناية ، كذا « الجاكت » يطبقهـا بطريقة خاصة ويضعهما على البطانية فوق « **البرش** » ثم يأتى بأكثر من ١٠ بطاطين التى تخص **زملاءه** فى ((**الزنزانة**)) ويضعها فوق البدلة . ثم يقول ضاحكا :

ــ تبقى منها « مرتبة » ومنها تكوى البدلة .

ثم يسألنى :

ــ فين حذاءك ؟

وما ان يراه حتى يقول بغضب الاب :

ــ كده برضه . . تنزل مصر بالجزمة الوسخة دى ؟

يضع يده فى ((**مخلته**)) التى يستخدمها ((**مخده**)) ويضع رأسه عليها عندما ينام ويخرج منها قطعة قماش ، وعلبة **ورنيش أسود** . ثم يجلس على حرف البرش ويبدأ فى تنظيف الحذاء .

واصيح محتجا :

— مش معقول يا عم شعبان .. ايه اللى بتعمله ده ؟

ويرد على بحزم الاب :

— بس .. اسكت انت .

واسكت ولكن وانا مذهول . عم شعبان حافظ .. **هـــذا التاريخ يقوم بكل هذه البساطة بتنظيف حذائى ؟ ماذا يدور فى أعماقه ؟** لم تـــكن علاقتى به قوية الى هذا الحد ؟ ولا اذكر اننى جلست معه ســـوى مرات **قليلة جدا** على مدى الثلاث سنوات السابقـــــة منذ أعتقل وجـــاء الى الواحات . كثيرون غيرى من الذين انهوا مدة السجن عليهم وسافروا الى القاهرة لم يفعل معهم **عم شعبان** ما يفعله معى ؟ حتى الزملاء الذين يعيش معهم فى زنزانة واحدة كانوا مذهولين مثلى وربما أكثر . انــــه يعاملهم معاملة الاب لاولاده ولكن ليس على هذه الصورة . وتتوالى تعليقاتهم ، بينما يقوم هو بتنظيف حذائى :

— هو درش ابنك البكرى يا عم شعبان ؟

ويرد عليهم :

— لا .. ده ابنى الوحيد .

— واحنا مش أولادك ؟

ويقول ضاحكا :

— انتم زى أولادى ..

— لكن احنا اولى .. احنا عايشين معاك ليل ونهار .

ويلخص « الرجل » خبرته فيقول :

— **أعظم وأرقى وأقوى علاقة انسانية يمكن أن تبدأ فى الدقيقة الاولى وعند أول لقاء بين انسان وآخر .**

وتدفعنى كلمـــاته الانســـانية بكل قوتها الى احتضـــان عم شعبان حافظ والدموع تجرى من عينى **تحـــكى لابن العشرينيات معـــاناة ابن الاربعينيات !**

ويطلع علينا الفجر بعـــد حديث طويل مع عم شـــعبان ويقول لى بحنان :

— نام بقى الكام ساعة دول .. الرحلة طويلة .

وأمد جسمى على « **البرش** » الى جانب « **برش** » عم شعبان . يضع على جسمى ثلاث بطاطين خوفا على من برد **الصحراء** . وأروح سريعـــــا فى نوم هادىء . ومع شروق الشمس أفتح عينى **لترى صورة انسانية يجســـدها وجه عم شعبان وحافظ** ، ابتسامة حانية تـــكسو

وجهه الابيض المائل الى السمرة وشعر راسه الناصع البياض يكسبه مهابة . يقول :

— ياالله قوم بقى علشان تروح .

وارد ضاحكا :

— أد كده انت متفائل يا عم شعبان ؟
— يا ابنى الواحد لازم يكون متفائل دائما .

وظل الرجل معى لا يتركنى لحظة واحدة . ذهب معى الى المغسل يرقبنى وانا أغسل وجهى . ثم أخذنى الى **زنزانته** ، واعد لى **الشاى** بنفسه . ثم اخرج **البدلة** من تحت البطاطين وقد زالت الكرمشة منها . واحضر لى القميص من على حبل مشدود وسط الزنزانة كان قد « نشر » القميص عليه بعد أن « بخ » عليه قليلا من الماء كى « ينفرد » . وكان فى الكيس « كرافتة » واحدة هى التى دخلت بها السجن منذ عشر سنوات لم « تعجبه » واحضر لى أخرى **« موضة ١٩٥٩ »** كان ابنه قد اهداها له قبل اعتقاله . وامسك بحذائى يضع عليه **« اللمسات الاخيرة »** مرة بالفرشاه ، ومرة بقطعة قماش ومرة ثالثة وأخيرة « بكم » بدلته . وبعد أن ارتديت ملابسى وصرت **« أفنديا »** لاول مرة منذ عشر سنوات ، تملكنى **احساس طفل** يلبس بدلة العيد لاول مرة فى حياته .

— آخر شياكه يا درش .. دى البدلة لسه جديدة .
— لبستها مرتين فقط .. والمرة الثالثة اعتقلونى بها .

ورغم انه كان أقصر منى فقد كان مصرا على أن يضع يده على كتفى ، وأنا فى طريقى الى البوابة الخارجية كى أركب السيارة الى أسيوط ومنها الى القاهرة . كنت أنا وعم شعبان الذى لم يرفع يده عن كتفى حتى افترقنا ، **ككيان واحد** يتحرك وسط عشرات الزملاء الذين احاطوا بى كى **يودعوننى .. ويودعونه** أيضا . لكن وداعهم لى تم بعده لقاء بعد عشرين يوما حيث عدت اليهم معتقلا ، وكان **وداع عم شعبان حافظ هو الوداع الاخير .**

بعد عودتى من القاهرة التى ذهبت اليها **مسجونا** أنهى مدة العقوبة وعدت منها **معتقلا** الى زمن غير معروف ، حكى لى الزميل **رمزى يوسف** تفاصيل اللحظات القاسية التى عاشها **عم شعبان حافظ** بعد أن غادرت سجن « المحاريق » .

حوالى ثلاثة دقائق بعد ان تحركت بى السيارة من أمام سجن « المحاريق » **وعم شعبان حافظ ما يزال يلوح بيديه يودعنى !** التف حوله عدد من الزملاء حين لاحظوا حركة يديه التى لم تتوقف بعد أن غابت السيارة عن الانظار ، **الدموع** تجرى من عينيه ، **انفعالاته** تحيل وجهه الابيض الى كتلة من الدم ، وفجأة يسقط على الارض **مغشيا عليه .**

حمله الزملاء الى زنزانته وحاول الاطباء انقاذ حياته .. لكنه كان يعانى **سكرات الموت . مات بين أبناءه وأحفاده نظيفا ، شريفـــا فى معركة الشرف والبطولة بعـــد نضال ٤٥ عاما متصـــلة . مات انسانا ، وأبا حنونا أعطى حتى أنفاســه الاخيرة الحب ، والامل ، والحنـــان لواحد من أبناءه .**

رنة **حزن** عظيم تخيم علم **السجن** كله. الفنانون **داود عزيزووليماسحق ومجدىنجيبوسعيد عبدالوهاب،والمهداوى** يمسكون بلوحاتهم وفرشاتهم يسجلون بسمة الامل الكبير على وجه **انسان عظيم** . والفنان **حسن فؤاد** ينحت بسرعة تمثالا لوجه بطل مات فى المعركة ، والفنان **صبحى الشارونى** يشكل للأب الحنون وجه من المصيص ، والمـــأمور « ... » يعود من مستشفى الواحات ومعه طبيب كى يحنط الجثة حتى تصل نظيفة الى أهله فى القاهرة . وينتظم كل الزملاء فى صفوف منتظمة ، يدخلون الواحد بعد الاخر . الى حيث يرقد الشهيد يلقون عليه النظرة الاخيرة . ويحمل الجثمان أربعة من السجانة ويسيرون به فى المقـــدمة وخلفهم كـــل الزملاء والسجانة والضباط والمأمور .. ونشيد حزين ترتفع نغماته مع الخطوات الحزينـــة .

وبعد أن تطوف الجنازة عنابر السجن وحوشه ، ينتظم **المـــأمور والضباط والسجانة** فى حرس شرف ويؤدون **التحية العســـكرية** للجثمان وهو فى طريقه الى السيارة التى ستنقله الى القاهرة .

خلال الايام التى قضيتها فى القاهرة فى **سجن مصر وسجن القناطر الخيرية والمباحث ومعتقل القلعة لم يصلنى خبر موت عم شعبان حافظ .** وخلال تلك الايام كنت أتأمل **ثلاثة نماذج** من بنى البشر . واحد حاول أن **يلوث** سمعتى ، وآخر كان طرف فى **مؤامرة** ضدى لمحاكمتى من جـــديد ، **وانسان** ملانى بحبه وحنانه ليلة مغادرتى سجن **المحاريق** . وعند عودتى معتقلا كان أول من سألت عنه هو عم شعبان حـــافظ وتجاهل الزملاء سؤالى . وعندما أقاموا لى حفلا لتحيتى لم أجد من بينهم **شعبان حافظ ..** همست فى أذن **رمزى يوسف أسأله** ، فقال انه مريض ونزيل مستشفى الواحات . وبعد احتفال الزمـــلاء بى طلبنى المـــأمور الى مكتبه . قال بغضب :

— **انت مالكش أهل ؟**

قلت مبتسما :

— طبعـــا ليـــه .
— أمال ماخرجتش ليه ؟
— سيادتك عارف **ثمن الخروج .**
— وايه يعنى ؟ اكتب ورقة واخرج .
— هل تظل على **احترامك** لى ان فعلت هذا ؟
— طبعـــا لا .

ـــ وأنا حريص على احترامك لى اكثر من حرصى على **حرية ملوثة** .

هب واقفا وعانقنى بحب والدموع فى عينيه :

ـــ تشرب قهــوة ؟
ـــ ولى طلب آخر لو سمحت .
ـــ أطلب .
ـــ ازور عم شعبان حافظ فى المستشفى .

سكت ولم يجب وحسبت أنه من المتعذر اجابتى الى طلبى ، وبعد لحظة قال بصوت مخنوق :

ـــ همه زملاءك ماقالوش لك ؟
ـــ قالوا انه عيان فى المستشفى
ـــ طيب .. بكره نشوف .

ومع اننى عرفت الحقيقة من صوت المأمور ، وفى تعبيراته الحزينة وهو يتساءل « همه زملاءك ماقالوش لك » ، الا اننى لم أصدق نفسى . وغفرت **لرمزى يوسف** كذبته حين سألته فى الليلة نفسها بعد عودتى من مكتب المأمور ، وحكى لى تفاصيل موت عم شـــعبان . كان **الزميل سمير عبد البـــاقى** يســـتمع معى الى **رمزى يوسف** ، فقد كان مثلى لا يعرف الخبـــر فهو معتقل حديثا . وقابلته بعد اعتقاله فى معتقل القلعة . فبعد ان رفضت انا **وزميلى مصطفى كمال خليل عـــرض المباحث العـــامة للافراج عنـــا** ، ذهبـــوا بنـــا الى **معتقل القلعـــة** ووضعـــوا كل منا فى زنزانة . وفى مساء اليوم نفسه سمعنا زجلا رقيقا . صاح **مصـــطفى كمـــال** :

ـــ مين اللى بيقول الزجل الحلو ده ؟.
ـــ **أنا سمير عبد الباقى** .

وينادى على مصطفى خليل ويقول :

ـــ يظهر انه زميـــل جديد .

ويصيح سمير ..

ـــ أيوه اعتقلونى من أسبوع .
ـــ شـــد حيلك .
ـــ وانتو معتقلين جدد ؟
ـــ أيوه .. بس بعد عشر سنوات أشغال شاقة .
ـــ ليـــــه ؟
ـــ ما انت عارف يا سمير
ـــ ده انا مضرب عن الطعام .
ـــ ليـــــه ؟
ـــ علشان يفرجوا عنى .. ايه رأيك ؟
ـــ مالوش لزوم .

ـــ وتفتكر راح أروح معاكو الواحات ؟
ـــ طبعا .. أمال حاتروح فين يعنى ؟
ـــ خلاص .. راح أفك الاضراب .

كنا **ثلاثة** حين وصلنا سجن مصر .. **غاب واحد فى الظلام** . وكنا أيضا **ثلاثة** حين غادرنا **معتقل القلعة الى الواحات** .. وجاء معنـــا **سمير عبد الباقى الى النور** . واصبحت الصورة واضحة كل الوضوح .. اعتقال الزملاء فى الخارج لايزال مستمرا .. وكى تخرج عليك أن تكتب .. واذا لم تكتب فمصيرك **الاعتقال بعد السجن** .

بعد أيام كان الزملاء الذين حكم عليهم فى قضيتى نفسها يستعدون للنزول الى القاهرة وهم متأكدون أنهم الى **الواحات** عائدون . وبعد أن عادوا جميعا **معتقلين** كانت هناك أعداد أخرى من الزملاء يســـتعدون للنزول الى القاهرة ((**وآهى فسحة**)) ، غير أن **المبـــاحث العامة** خيبت آمالهم فى ركوب السيارة والقطار ، ومشاهدة شوارع القاهرة فى تنقلاتهم بين **سجن مصر والمباحث العامة والقلعة** ، ثم ركوب القطـــار والسيارة مرة أخرى الى **الواحات** ، فقد أصدرت أوامرها بأن لا لزوم لكل هـــذا ((**التعب**)) و ((مصاريف)) السفر ذهابا وايابا . وعلى المسجون الذى تنتهى **مدة سجنه** أن يخلع الملابس **الزرقاء** ويلبس الملابس **البيضـــاء** ، وعلى ادارة السجن أن تنقله من عنبر **المسجونين** الى عنبر **المعتقلين** ! ومن يريد أن يخرج عليه أن يرسل ((**الثمن**)) عن طريق ((مندوبها)) ـــ وكان ضابطا معروفا للجميع ـــ فى ادارة السجن .

وبعد شهور قليلة تحول كل المسجونين (**من سنة ١٩٥٢ـــ١٩٥٤**) الى **معتقلين** وحل محلهم عدد أكبر من الذين حـــكم عليهم (**١٩٦٠ ـــ ١٩٦٢**) ! وتخف حدة الصراع فقد مله الكثيرون . ويعود النشـــاط الفنى والثقافى . ندوات سياسية وثقافية . وعروض مسرحية جديدة . وتأليف وترجمة .. الخ .

ويمر حوالى ثلاثة أشهر ، ولا أحد فى المعتقل يتحـــدث عن الافراج ، ولا خبر يأتى من الخارج يبشر به . المســـجونون يتحولون الى معتقلين ولا شىء غـــير ذلك . حتى المباحث العـــامة ضـــعف نشـــاطها المعروف . وخلال تلك الفترة لم يخرج سوى زميل واحد هو **اسماعيل عبد الحكم** . صدر **قرار جمهورى** بالعفو عنه لانه كان **يحتضر** وبعد أن تأكدوا من موته المحقق ، ولكنه لم **يمت** .

كانت معركة أسطورية ضد الموت ، استمرت اكثر من شهرين ، أحكى لك تفاصيلها فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى .

٢٣ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـــالة رقم (٦١)

حبيبتى

نسيت أن أحـــكى لك فى رســــالتى السابقة قصة ذلك الاعتـــداء الخطير على ((**القانون**)) الذى اكتشـــفه الضابط « النـــوبتجى » فى **سجن مصر** بعد أن وصلت اليه ((**للافراج**)) عنى بعد أن قضيت عشر سنوات سجن .

بينما كنت أقف فى مكتب **الضابط** ((**النوبتجى**)) فى سجن مصر فى انتظار انهاء الاجراءات الخاصة ((**باستلامى**)) من سجن المحاريق ((**وتسليمى**)) لسجن مصر ، صاح الضابط فجأة :

ـــ انت لابس بدلة ((**ملكى**)) ليه ؟

قلت بدهشة :

ـــ أمال البس ايه ؟

صرخ الضابط :

ـــ تلبس بدلة السجن اللى كنت لابسها .

ويتدخل **ضابط البوليس** الذى تولى حراســـتى أثنـــاء الرحلة من **الواحات الى القاهرة :**

ـــ ده مفرج عنه يا حضرة الضابط بعد قضاء الحكم عليه .

ويمسك الضابط « النوبتجى » **بالاوراق** « الخاصة بى » ويلوح بها بيـــده ويصيح :

ـــ تاريخ الافراج عنه بعد خمسة أيام !

ينظر ضابط الحرس فى الاوراق ويقول :

ـــ فعلا .. لسه خمس أيام .

ويسأل الضابط « النوبتجى » :

ـــ مين بقى المســـئول ؟

ويرد ضابط الحرس :

ـــ اظن المسئولية تقع على ادارة سجن « المحاريق » .

واعلق ساخرا :

ـــ اذا كان ولابد .. أتحمل أنا المسئولية .

ويقول الضابط « النوبتجى » بغضب :

ـــ بتهزر يا مسجون ؟

ـــ كلها خمس أيام ولا أبقاش « مسجون » .

ـــ لكن انت دلوقت مسجون .

ويستطرد :

ـــ ولغاية آخر دقيقة من مدة الحكم عليك .

ـــ معاك حق .. **القانون هو القانون** .

ينصرف ضابط الحرس والجنود بعد أن يوقع الضابط « النوبتجى » على الاوراق **((باستلامى))** . يهمس لى وهو يسلم على :

ـــ معلهشى .. استحمل **بدلة السجن** كمان خمس أيام .

ويسند الضابط « النوبتجى » رأسه على كف يده اليمنى .. **((بوز تفكير))** بينما أظل أنا واقفا ببدلتى **((الملكى))** فى انتظار قراره بخلعها باسم **((القانون))** .

كانت بدلة « صوف انجليزى » ١٠٠ ٪ .. وكان لونها بنى محروق .. اشتريتها من **صلاح هاشم** ـــ زميل الدراسة والمسيرة ـــ **بثلاث جنيهات** دفعتها له مرة واحدة ، فقد كنا فى أول الشهر وكنت لسه « قابض » مرتبى .. وكان هو على « الحديدة » مع انه كان صاحب ورشة شنط « حريمى » . لبستها مرتين فقط قبل القبض على فى **يوليو ١٩٥٢** ولم أكن قد سددت سوى قسط واحد من **أجرة** تفصيلها ، وحين عرف **الترزى** خبر القبض على رفض أن يأخذ بقية الاقساط المستحقة له على . **الفنان حسن فؤاد** لبسها مرة هو أيضا أثناء قيامه بدور فى مسرحية **((بيت الدمية))** لابسن على المسرح الرومانى بالواحات . وبعد عشر سنوات ـــ منذ خلعتها ـــ ألبسها للمرة الاولى رغم انها لازمتنى خلال تنقلاتى فى **السجون والليمانات** المختلفة . وها أنذا أقف فى انتظار **قرار** الضابط « النوبتجى » فى سجن مصر بخلع بدلتى العزيزة باسم **((القانون)) !** اعرف أن مشكلتك ليست هى اتخاذ هذا القرار ، وانما مشكلتك هى أن تحصل من **((المخازن))** على بدلة سجن زرقاء بعد انصراف أمين المخزن لانتهاء مواعيد عمله الرسمية .

يرفع الضابط « النوبتجى » رأسه من على كف يده اليمنى ويقول السجان :

ـــ شوف حد من المسجونين عنده بدلة زيادة على مقاس المسجون ده .

ويقول له السجان الذى كان يقوم بتفتيش « المخلة » التى كان بها ملابسى وأتيت بها من الواحات :

— يا افندم ما هو معاه بدلة زرقة آهى .

ويصرخ الضابط « النوبتجى » :

— لما معاك بدلة زرقة . مدوخنا ليه .
— دى بدلة خاصة .
— يعنى ايه خاصة ؟
— يعنى أهلى فصلوها وبعتوها لى
— وماله ما تلبسها .. مش كنت بتلبسها فى الواحات ؟

واقول ضاحكا :

— بس دى قماشها « **ملكى** » مش « **ميرى** » .

ولاول مرة **يضحك** حضرة الضابط « النوبتجى » ويقول :

— يا اخى فى عرضك البسها وخلصنا .
— وتتحمل أنت المسئولية ؟
— ممكن أتحملها زى بعضه .

واخلع « **بدلتى** » ولا البسها مرة ثانية الا عند مغادرتى **سجن « القناطر الخيرية » كى أذهب الى المباحث العامة** . والطريف أن مشكلة **قانونية** اخرى ظهرت حول البدلة الزرقاء « **الخاصة** » فى مكتب الضابط «النوبتجى» فى سجن « **القناطر الخيرية** » فبينما كان السجان يقوم بتفتيش « مخلتى » اكتشف وجود هذه البدلة بها . فقال للضابط « النوبتجى » :

— يا افندم معاه بدلة سجن .

سألنى الضابط بدهشة :

— واخدها معاك ليه ؟
— دى بتاعتى
— يعنى ايه بتاعتك ؟
— يعنى مش بتاعة السجن .. مفصلها على حسابى الخاص .

وناولته البدلة وقلت له :

— حتى شوف قماشها .. « **ملكى** » مش « **ميرى** » .
— فعلا .. قماش « **ملكى** » .

وتصورت أن المشكلة قد انتهت ، فأخذت البدلة لاضعها فى «المخلة» .. لكن السجان جذبها منى بعنف وقال :
— يا حضرة الضابط .. ده رآح ياخدها .

وقال الضابط :

— سيبه ياخدها .. مش بتاعته ؟

ويتساءل السجان :

ـــ والعهدة يا حضرة الضابط ؟

يبدو أن الضابط كان حديث عهد بالعمل فى السجون ، فقد سأل السجان بدهشة ..

ـــ يعنى ايه عهدة ؟

لم يجب السجان . ربما لعدم قدرته على شرح المشكلة ، وربما ((**لفجيعته**)) فى هذا الضابط **((العيل))** الذى لا يفهم فى **القوانين واللوائح.** فتوليت أنا شرح المشكلة للضابط ..

ـــ دلوقت السجن هنا ((**استلمنى**)) لابس بدلة زرقة .
ـــ كويس .
ـــ وأنا دلوقت خارج ببدلة ((**ملكى**)) .
ـــ كويس .
ـــ البدلة ((**الملكى**)) بتاعتى .. لان السجن معنـــدوش بدلة ((**ملكى**))
ـــ أيوه .
ـــ والبدلة الزرقة بتاعة الحكومة لان المساجين ما عندهومش بدل زرقة.

ويصيح الضابط الشاب ضاحكا :

ـــ تبقى البدلة الزرقة بتاعة **الحكومة** .

واقول مبتسما :

ـــ مضبوط .
ـــ وبناء عليه .. أمرنا بمصادرة البدلة الزرقاء ، فهى ((**عهـــــدة**)) .

واكمل ضاحكا :

ـــ وحرصا على **أموال الدولة** .

ومع أن هذه البدلة الزرقاء « الملـــكى » كانت عزيزة عندى وكنت أود الاحتفاظ بها بعد خروجى من السجن ، الا أننى لم ((**أزعل**)) كثيرا حين أخذوها منى ، فهى على أى حال **ترمز** لايام السجن ، أما البـــدلة البنى ((**الملكى**)) التى لم ((**أتهنى**)) بلبسها ســـوى مرات قليلة ، والتى سجنوها معى فاننى أحمل لها **ذكريات جميلة** . وسوف البسها كثيرا حين اخرج من السجن .. ربما بعد ساعات اذا افرجت عنى **المباحث العامة** ، وربما بعد زمن غير معروف اذا **اعتقلونى** . حتى اذا أعتقلت فســـوف أستمتع بلبسها أياما أخرى قبل أن يأخذونى الى **الواحات** . وبالفعل ، عندما ذهبت الى **القلعة** معتقلا ، لم أخلع ((**بدلتى**)) أبدا طوال **العشـــرة أيام** التى مكثتها هناك . ولسبب لم أعرفه لم يصادروا بدلتى « الملـــكى » عند وصولى الى مكتب الضابط « النوبتجى » **بمعتقل الواحات !** ربما لان « المخازن » كانت مقفولة حيث وصلت مساء وبعد انتهاء مواعيـــد العمل الرسمية ، وكان من الصعب الحصول على بدلة بيضاء ((**لـــزوم المعتقلين**)) ! وربما بسبب ((**ذهول**)) الضابط « النوبتجى » الذى رآنى

أمامه فجأة . وهو الذى كان على يقين من خـــروجى « افـــراج » ! . وربما كان تصرفا **انســـانيا** منه فتركنى أستمتع بصحبة بدلتى العـــزيزة خلال الساعات المتبقيـــة من "الليل ، و « والصباح رباح » ، ومن الصعب أن يصل الخبر الى حراس ((**القانون**)) فى القاهرة قبل شروق شـــمس الغد . أيا كان السبب فقد كنت أنا ((**الكسبان**)) ، فلم أخلع بدلتى طول الليل ، ورحت أتجول بها فى حوش السجن ، وفى طرقات عنابره . **أجلس** على الرمل بجوار **سور السجن الخارجى** تارة ، وتارة اخرى أمشى فى اتجاه المزرعة . مساحة واسعة من الارض الخضراء ، الى جوارها حمام السباحة ينعكس على مياههضوء القمر .. **ســـيجارة ((كاملة))** فى يدى اليمنى ، ويدى اليسرى فى جيب بنطلون "البدلة « الملكى » ، وتشـــدنى الصورة **وتستغرقنى اللحظة ،** وأتخيل أننى اقف على كورنيش النيـــل الذى لم أره فى حياتى ، فقد كان أحد **انجازات الثورة** التى لم أر منها شيئا حتى يوم خروجى من السجن **فى أبريل ١٩٦٤** .

واسمع صوتا ينتزعنى من تأملاتى :

ـــ انت فين ؟ . قلبنا عليك الدنيا .

كان صوتا مخنوقا يجيش صاحبه بالبكاء . من الذى مات ياترى ؟ المستشفى قد امتلأت بالزملاء المرضى . **الفنان داود عزيز** أصيب بذبحـــة صدرية وحالته خطرة وهو يرقد فى انتظار ترحيله الى القصـــر العينى لعلاجه هناك ؟ **رمزى يوسف** الذى تمزقه آلام فى كل جسمه ولم يصـــل الاطباء الى تشخيص مرضه بعد ؟ ، **فتحى عبد الفتاح** الذى أصيب بصداع شـــديد وآلام حادة فى عينيـــه ، ويرقد أيضـــا فى انتظار ترحيـــله الى القاهرة لاجـــراء عملية ؟ **على زهران** بعـــد اكتشاف بولينا حـــادة ؟ الزملاء الاخرون مرضى بالدوسينتاريا والانفلونزا . فهـــل يكون أحـــــدا منهم قـــد مات ؟

وتخرج منى الكلمات بصعوبة شديدة :

ـــ ايه يا رؤوف .. فيه ايه ؟ ..

لا ينطق ويرتمى بين أحضانى والدموع لاتزال تجرى من عينيه :

ـــ فيه حد مات .. قول ؟

ـــ **اسماعيل عبد الحكم يحتضر ..**

واصرخ بأعلى صوتى :

ـــ أنا لسه كنت معاه من نصف ساعة .

ـــ حصل له انهيار مفاجىء .

ـــ انفلونزا تعمل انهيـــار ؟

ـــ التشخيص غلط .

ـــ وايه الصحيح ؟

ـــ التهاب كبدى وبائى

ـــ متأكد ؟
ـــ الدكتور شريف حتاتة هو اللى شخص المرض .
ـــ وباقى الزملاء الاطباء رأيهم ايه ؟
ـــ كلهم عند اسماعيل دلوقت .

حول سرير **اسماعيل عبد الحكم** وقف كل الزملاء الاطباء **شريف حتاتة، وعبد المنعم عبيد ، وحمزة البسيونى ، ومختار السيد ، وصلاح حافظ ، وشكرى عازر ، ورزق عبد المسيح ورؤوف نظمى ،** يتداولون ، وعشرات الزملاء يتجمعون خارج الغرفة وفى طرقات العنبر .

ـــ ايه يا شريف ؟

ويهمس شريف :

ـــ المرض معدى ولابد من نقله .

واصيح فى صوت مكتوم :

ـــ نقله .. نقله فين ؟

يقول وعلى وجهه ابتسامته الانسانية .

ـــ نفضى غرفة من الزملاء وننقل اسماعيل اليها حالا .
ـــ لكن اسماعيل حالته خطر ؟.
ـــ هيه فعـــلا خطر .

اجرى مسرعا الى غرفتى واطلب من الزملاء اخلاء الغرفة حالا ، وتنظيفها وخلال نصف ساعة يتم نقل **اسماعيل عبد الحكم** وهو فى حالة غيبوبة الى الغرفة التى جهزت لمباشرة علاجه فيها . ويقرر الاطباء بالاجماع انه يمكن انقاذ الزميل **اسماعيل عبد الحكم** من الموت ، كما يمكن حماية الزملاء من انتقال العدوى اليهم بفرض نظام دقيق ، لكن المشـــــكلة الاساسية هى مشكلة اقناع السجن بعدم نقله الى مستشفى الواحات . فهو هناك لن يلقى العناية اللازمة وسوف يعزلونه هناك ، كما سيتم عزل السجن كله ، فلا تفتح **الزنازين** الا للذهاب الى دورات المياه فقط ، ويمنع خروج الزملاء الى المزرعة ، وتتوقف زيارات الاهالى . وتمضى الساعات المتبقية من ليل ذلك اليوم والزملاء كلهم فى حالة ذهول . بعضهم يفترشون رمال الصـــحراء ، والبعض يجلس فى حوش العنبر ، تجرى دموعهم فى صـــمت ولا يتـــكلمون . وبعضـــهم جلس أمام غرفـــة **اســـماعيل عبد الحكم** ينتظرون كلمـــة تطمئنهم من احـــد الزملاء الاطباء الذين يشرفون على علاجه .

وتشرق شمس الغد على يوم غير عادى ..

ضجيج الزملاء عند ذهابهم الى دورات المياه ، أو عند خروجهم الى العمـــل يحل محله **الهدوء الشامل** . نداءات مسئولى « النظـــام »

التى تتعجل الزملاء للخروج الى العمل توقفت تماما ، فلا هم صاحوا بنداءاتهم التقليدية فى صباح كل يوم ، ولا الزملاء انتظموا فى صفوف كما اعتادوا كل يوم للخروج الى العمل . حتى السجانة الذين يحضرون فى صباح كل يوم لاصطحاب الزملاء الى المزرعة وغيرها من المرافق العامة .. أصابهم الذهول حين عرفوا الخبر وانضموا الى موكب الهدوء الشامل ولم ينطقوا بكلمة واحدة .

كانت الساعة قد بلغت الثامنة والنصف صباحا عندما كان عدد من الزملاء ((**القياديين**)) والاطباء فى مكتب **المأمور** لمناقشته فى أمر مرض **اسماعيل عبد الحكم** واقناعه بعدم نقله الى مستشفى الواحات . وفى حوش السجن وعلى بعد خطوات من مكتب المأمور كان الزملاء يقفون فى انتظار ما سوف تسفر عنه المقابلة .

تمر ساعة وتجر وراءها ساعة أخرى ، الهدوء شامل لا تسمع سوى أصوات الرياح ،**وشمس الصحراء الحارقة** تخترق أجسام الزملاء ورؤوسهم فيسيل منها العرق وتختلط بدموعهم التى ما تزال تجرى من عيونهم . القلق الذى هز نفوسهم وكيانهم منذ سمعوا الخبر فى فجر اليوم يتزايد .. فى صمت .. ولكن تراه يتسع فى تعبيرات وجوههم مع كل دقيقة أخرى تمر .

وفى الساعة العاشرة والنصف يخرج وفد الزملاء من مكتب المأمور ووجوههم تنطق بما حدث :

— هل اقتنع المأمور بعدم نقل اسماعيل الى مستشفى الواحات .
— لا .. لم يقتنع .
— وما هو الموقف ؟
— سنعرض الامر على قيادات التنظيمات لتقرر ما تراه .

ولا يعلق أى زميل على ما حدث . وبالهدوء نفسه يتحركون من أمام **مكتب المأمور** ويتجمعون أمام **باب العنبر** . وعند دخول الزملاء القياديين الى العنبر كى يجتمعوا للمناقشة ، يقول الزميل **رؤوف نظمى** بصوت هادىء :

— لن ينقل اسماعيل عبد الحكم الا على جثثنا .

ولا يعترض زميل واحد على ما قاله رؤوف . اتفق معه الجميع تلقائيا ودون أى مناقشة . كانت روح **الاستشهاد** تسيطر على جميع الزملاء . لم يكن موقفهم **مغامرة** يائس فقد الامل فى كل شىء ، وانما كان **ذروة صراعهم ضد الموت** . لم يكن موقف الدفاع عن مجرد **الوجود** ، وانما كان موقف الدفاع عن الحياة .

كان نقل **اسماعيل عبد الحكم** الى مستشفى الواحات — حتى لو انقذوا حياته — يعنى للزملاء استسلامهم لحالة من حالات التواجد .

وكان الاصرار على بقـــائه بينهم والصراع من أجــل انقاذه ، معركة ربمـــا يسقط خـــلالها اســـماعيل ومعه آخــرون ، لـــكنها سوف تكون **معركة حقهم فى الحياة .**

وتمضى نصف ساعة .. كانت كل دقيقـــة منها تمر كأنها دهر .

الزملاء لا يزالون فى انتظار قرار قياداتهم التى ماتزال مجتمعة . والسجانة يتجهون الى باب مكتب المأمور وينتظمون فى طابور ، وبعـــد دقائق يخرج اليهم المأمور ومعه بعض الضباط .

لحظـــة وينفجر هـــذا الهدوء الشامل الى بركان لا يعلم أحـــد حجم ضحاياه . المأمور يستعد لنقل **اسماعيل عبد الحكم** الى مستشفى الخارجة بالقوة حتى لا يتحمل المسئولية . والزملاء يبنون بأجسادهم المتلاصقـــة **سدا** لا يقتحم الا على **جثثهم . وقيادات التنظيمات** لاتزال تدرس الموقف ! وقبل أن يخطو طابور الجنود المدجج بالسلاح خطوة واحدة يجرى عدد من الزملاء لمناقشة المأمور فى محاولة أخيرة لوقف الكارثة :

ــ سيادة المأمور .. دقيقة واحدة لو سمحت .

ويرد :

ــ انا انقله الى المستشفى كى أنقذه من الموت واحميكم من العدوى .
ــ سيموت اذا نقل وهو فى حالته هذه الخطيرة .

ويجـــد المأمور انه سيتحمل مســـئولية نقله دون موافقة **طبيب السجن .**

فيقول :

ــ سأستدعى طبيب السجن .
ــ رجاء أن تراه أنت قبل أستدعاء الطبيب .
ــ ولماذا قبل استدعاء الطبيب ؟
ــ ربما ترى غير ما تراه الآن .
ــ لست طبيبا .
ــ ولكنك (...) الانسان .

وتمس الـــكلمة أعماقه ، يطرق بوجهـــه الى الارض قليلا ثم يقول للسجانة :

ــ انتظروا هنا .. ماحدش منكم يتحرك الا بأوامر شخصية منى .

ويلتفت الى الزملاء ويقول :

ــ تعالوا نشـــوف زميلكم .

وعندما يصل المأمور الى باب العنبر يفسح الزملاء لـــه الطريق ويســـير متجها نحو الغرفة التى يرقد فيهـــا **اسماعيل عبد الحكم** ، وجد

أمامه شاب فى ريعان شبابه يرقد على سرير وهو فى **غيبوبة تامة** . وجهه شاحب شحوب الموت ، الاصفرار يغطى كل بياض عينيه ، والمقلتان جامدتان لا تتحركان . ولم يستطع المأمور أن يقف أكثر من **دقيقة واحدة** واستدار ليخرج من باب الغرفة وهو يخفى عينيه بيده . وسار صامتا حتى خرج من باب العنبر ووصل الى مكتبه ولم ينطق بكلمة واحدة وسار معه الزملاء الذين بدأوا الحوار معه منذ لحظات . قال فى تأثر شديد :

ــ هل تستطيعون حقا علاجه .. وضمان عدم انتقال العدوى ؟
ــ زملاؤنا الاطباء يؤكدون ذلك .
ــ اذن لا داعى لنقله ولكن بشرط ..
ــ نعرفه وسوف ننفذه بكل دقة .

كان الشرط الذى يطلبه المأمور هو أن لا يتسرب خبر اصابة **اسماعيل عبد الحكم** بمرض معدى الى خارج السجن حتى لا يتحمل مسئولية وجود مرض معدى فى السجن ولم يبلغ عنه . ونؤكد له اننا مع ثقتنا بأن الخبر لن يخرج عن الحدود التى عرف فيها . فان موقفنا سوف يكون أمام المسئولين اذا تسرب الخبر بأننا لم نخبر ادارة السجن عن ظهور مرض معدى فى السجن .

وعلى مدى شهرين كاملين قام الزملاء الاطباء بمجهودات هائلة لعلاج الزميل **اسماعيل عبد الحكم** . وخلال هذين الشهرين وعلى الرغم من صدور ميثاق العمل الوطنى الذى أثار مناقشات واسعة بين الزملاء ، فلم يكن فى عنبر (٢) حيث يرقد **اسماعيل عبد الحكم** صوت واحد يرتفع قليلا داخل العنبر الذى شمله السكون المطبق طوال تلك الفترة .

ظل **اسماعيل عبد الحكيم ١٥ يوما فى غيبوبة** تامة لا يستطيع تناول الطعام وكانت تغذيته الوحيدة الجولوكوز بواسطة ابرة فى العرق . وقليلا ما كان يتبول ولكنه ظل طوال الخمسة عشر يوما لا **((يتبرز))** وخشى الاطباء أن يصاب بتسمم وكانت معركتهم لتطهير امعاءه . وعلى فترات متباعدة كان اسماعيل يفيق خلالها دقيقة أو دقيقتين وكان الطبيب ((النوبتجى)) يطعمه اقل كمية من البطاطس المسلوقة ، أو العسل الابيض ويعود بعدها الى الغيبوبة .

وفى اليوم السادس عشر حدثت **المعجزة** واخرج اسماعيل **((براز))** لايزيد عن حجم **الفولة** . وكأنما حصل **الدكتور مختار السيد** حين وضع تلك ((الفولة)) فى منديل بعناية شديدة والسعادة تملأ وجهه على أرقى **((ماسة))** فى العالم .

مازلت اذكر ما حدث فى ذلك اليوم .

كنت من القليلين جدا الذين يسمح له بزيارة اسماعيل بعد عمل كل الاحتياطات الطبية الضرورية حتى لا تنتقل الينا العدوى . فى مساء ذلك اليوم كنت أقف الى جوار سرير اسماعيل . عيناه مفتوحتان لكن مقلتيها لا تتحركان .. سألت الدكتور مختار :

— هل يرانى اسماعيل يا مختار ؟
— يراك ولكنه لا يستطيع أن يميزك عن غيرك .
— ومتى يستطيع ذلك ؟

واسمع ردا غريبا ..

— اذا حدثت المعجزة .. واخرج « برازا » .

وتمضى دقائق .. يتحرك خلالها اسماعيل قليلا .. ويسرع رؤوف باعطائه كمية قليلة جدا من البطاطس المسلوقة ، ثم يروح فى غيبوبة مرة أخرى . وتمضى حوالى ساعة لا يتحرك اسماعيل خلالها حركة واحدة، حتى عيناه اللتان كانتا مفتوحتين أغمضهما .

— ايه يا رؤوف ؟
— مش عارف .. رايح انادى على الدكتور مختار .

ويقول الدكتور مختار :

— انتهز أى فرصة يا رؤوف واعطيه شوية بطاطس فى فمه .

ويأمر الدكتور مختار باعطائه أدوية أخرى .

ويمر الوقت وأنا واقف الى جوار اسماعيل فى انتظار **المعجزة** . وفجأة يشير اسماعيل اشارات بيده لا افهمها لكن رؤوف فهم ما يطلبه . تعبيرات وجه رؤوف تدخل فى نفسى بعض الهدوء ويشير الى أن اخرج من الغرفة قليلا . واظل واقفا على باب الغرفة فى انتظار حدوث **المعجزة** . وتمر خمس دقائق أسمع خلالها ضربات قلبى تشتد ، وأنفاسى تتلاحق بسرعة ، ويخرج **الدكتور شكرى عازر** من الغرفة ينادى على والفرحة بادية على وجهه :

— تعالى يا درش .. حدثت **المعجزة** .

واقف الى جوار اسماعيل .. ورؤوف ينط من الفرح وهو يمسك بمنديل به « **البراز** » ، ويقول :

— بداية زوال مرحلة الخطر .

واقول له بلهفة ..

— هل يتكلم ؟
— لسه مش دلوقت .

— هل يتحرك ؟
— لســـه برضه .
— هل يميز من يراه ؟
— برضه .. شوية .

واقول بانفعال :

— تبقى معجزة ايه دى بقى ؟

ويسود الصمت . **العيون** ترقب بانتباه شديد ما يطرأ على الجسد الممدد **كجثة هامدة** . أتأمل اسماعيل تارة ، وتارة أخرى أرقب ما يجرى على وجوه الاطباء **حمزة البسيونى وشريف حتاتة ومختار السيد وعبـــد المنعم عبيد وشكرى عازر ورؤوف نظمى** . أفرح لكل كلمة امل ينطق بها طبيب ، وانقبض كلما رأيت على وجه أحدهم بوادر قلق . فجأة نرى مقلتى عينى اسماعيل تلمعان .. وتتجهان نحو الزملاء الاطباء واحدا بعد الاخر ثم تستقر على .. وتتحرك شفتاه وتخاطبنى بهمس :

— ازيك يا درش ؟
— شد حيلك يا أبو السباع
— حديد يا عمو .

وانخرط فى بكاء **كالاطفال** .. اهم باحتضانه وتقبيله .. لكن سواعد الاطباء التى امتدت الى تمنعنى .

بكل مقاييس تلك **اللحظة** الانسانية النادرة كان تصرف الاطباء معى **بالغ القسوة** رغم انهم كانوا على حق . **فاسماعيل عبد الحكم** كان بالنسبة لى موضـــوعيا يرمز لاستمرار حياتى النضالية . فهـــو واحـــد من **ثوار الستينات** الذين اشتركوا فى **المقاومة الشعبية فى بور سعيد عام ١٩٥٦** . وهناك فى قلب معركة تطهير أرض بلادنا المقدسة من دنس الغزاة ، التقى بعدد **من ثوار الاربعينات** الذين شاركوا فى الـكفاح المسلح **عام ١٩٥١** ، وكان لقاؤهم تجســيدا لاصرار ثوار كل الاجيـــال على تحرير مصر واستقلالها . وعلى المســتوى الذاتى **كان اسماعيل عبـــد الحكم** جزءا من كيانى . عرفنى يوم سمع عنى لاول مرة ، وعن بعض **ثـــوار الاربعينات** الذين تكبلهم ((**الحكومة الوطنية**)) بالاغـــلال بينمـــا الغزاة يحتلون جزءا عزيزا من ارض مصر ! وكان من الطبيعى أن يســـأل ، **لمـــاذا ؟**

ســـمع اسماعيل اجابة على سؤاله .. زادته اقتناعا بضـــرورة الالتحام مع ثوار الاربعينات ، والتقى **بأخى مسعد** ((رحمه الله)) وعرف منه الكثير مما كان يريد أن يعـــرفه عنى . فى الدقائق الاولى التى التقينا خلالها لاول مرة فى **عام ١٩٥٩ بسجن المحاريق** ، كان احساسنا المشترك بأن شيئا آخر غير زمالة المعركة يشد كل منا للاخر .

مازلت اذكر اول واقصر حوار مع **اسماعيل عبد الحكم** ذات يوم فى **أوائل عام ١٩٥٩** ، وكانت ((**تكديرة**)) السجن فى ذروتها ، رايته من وراء قضبان ((**زنزانتى**)) وهو يميل على السجان الذى يجذبه بعنف بعيدا عن الزنزانة يقول له وابتسامته الانسانية تملا وجهه :

ــ دقيقة واحدة .. اشوف عمى .

ويرق قلب السجان ويسال :

ــ عمك مسجون هنا ؟
ــ من زمان .. وماليش عم غيره .
ــ طيب .. شوفه .. بس بسرعة .

لم اكن قد عرفته بعد ولا عرفت اسمه . لكنه كان يعرفنى للشبه الشديد بينى وبين أخى **مسعد** . قال وهو ينادى على :

ــ مسعد بيسلم عليك يا عمو ..
ــ اهلا .. وازيه .
ــ خلف بنت اسمها ((منى))

منذ عشرة ايام .. يوم اخذونى الى المباحث العامة ((**لاعتقالى**)) بعد قضاء مدة السجن ، رأيت ((**منى**)) هناك .. كان عمرها عامين جاءت مع ابيها لزيارتى قبل أن اذهب الى معتقل ((**القلعة**)) وكانت هذه أول مرة أراها فيها :

وانتبه على صوت الزميل الدكتور **عبد المنعم عبيد** :

ــ رحت فين يا درش ؟
ــ رحت وجيت .. ورحت وجيت .. !
ــ ولسه ياما حانروح ونيجى .
ــ لكن مؤكد راح نوصل .

والمح ابتسامة رقيقة شفافة على وجه **اسماعيل عبد الحكم** ! هل سمع هذه الكلمات التى تبادلتها مع **عبد المنعم عبيد** ؟ ، ربما لم يسمعها باذنيه .. لكن من المؤكد انه كان معنا بكل كيانه المنسوجة خلاياه بحب الحياة . كان معنا بحيويته الدافقة وشبابه الغض فى صراعنا ضد الموت ومن أجل انقاذ كيانه . كان معنا بتكوينه الانسانى السوى الذى يجمع بين حب الدنيا بطولها ، وعرضها ، وبين استعداده لتحمل كل الصعاب ، وتحمل كل التضحيات حتى حياته ذاتها من أجل تحقيق أهدافه .

بعد أن حدثت **المعجزة** وافاق من غيبوبته لاح أمامنا أن أمل انقاذ حياته لايزال بعيدا فى الافق . وتستمر معركة **الصراع ضد الموت** اكثر من شهرين وتأخذ بعدا جديدا فى النصف الاخير منهما حيث بدأ اسماعيل

يتناول طعاما خفيفا بعد أن كان يعيش على « الجلوكوز » فقط ، وحيث بدأ يسير خطوات داخل الغرفة يسنده زميل ، وحيث بدأ ينطق كلمات قليلة جدا . غير أنه كان بين الحين والحين تسوء حالته ويسقط **مغشيا عليه** . وكان لابد من نقله الى **مستشفى القصر العينى بالقاهرة** لاستكمال علاجه هناك ، وكان **المأمور** مقتنعا بذلك كل الاقتناع ، وراح يرسل البرقيات المتتالية الى مصلحة السجون والمباحث العامة يطلب منها سرعة نقل **اسماعيل عبد الحكم** الذى تسوء حالته يوما بعد يوم ! وفى برقية أخيرة أرسل يقول أنه يخلى مسئوليته مما سيحدث فى السجن اذا مات **اسماعيل عبد الحكم** . وجاء الرد برقيا من المباحث العامة يحمل خبر **القرار الجمهورى بالافراج عنه** ، كما يحمل الموافقة على نقله الى القصر العينى ، لكن الاطباء لم يوافقوا على نقله الى القاهرة فى الحال ، فى نفس الوقت قالوا انه لن يتحمل السفر بالسيارة ثم بالقطار .

ووافق المأمور على « استضافة » **اسماعيل عبد الحكم** الذى أفرج عنه وعلى الابراق لوالده للحضور لمصاحبة ابنه على الطائرة التى تقوم من **الواحات الى القاهرة** مرتين فى الاسبوع . وبعد حوالى عشرة أيام قرر الزملاء الاطباء أنه يمكن نقل اسماعيل بالطائرة ولكن بشرط أن يكون فى صحبته طبيب يتولى اسعافه اذا اقتضى الامر . ولم يتردد المأمور (...) لحظة واحدة فى الموافقة على سفر الزميل **الدكتور حمزة البسيونى** معه على الطائرة نفسها ، وكان قرارا خطيرا أخذه على مسئوليته قال له أحد الزملاء مازحا :

— ربما يهرب بحمزة البسيونى .

ويرد عليه المأمور ضاحكا :

— ما انا راح آخذ كلمة شرف من الدكتور حمزة بأنه مايهربشى .
— الى هذا الحد تثق بحمزه البسيونى ؟

يقول مبتسما :

— طبعا أثق جدا .. لكن برضه الاحتياط واجب .
— كيف ؟
— سيجد فى المطار من يحرسه حتى القصر العينى .. ثم من هناك حتى هنا مرة أخرى .

ويوم سفر **اسماعيل عبد الحكم من الواحات الى القصر العينى بالقاهرة** ، شهدت **الصحراء** ، مشهدا **انسانيا** مؤثرا يعجز القلم عن تصويره . عدد من الزملاء يحملون اسماعيل وهو راقد على سريره فقد كانت تعليمات الاطباء بأن لا يتحرك حتى باب العنبر حيث تنتظره سيارة الاسعاف التى ستحمله الى مطار الواحات . السيارة تسير ببطء شديد ويحيط بها مئات الزملاء يسيرون فى صمت وقلوبهم تغنى **لاسماعيل عبد الحكم** . وتقف سيارة الاسعاف على باب العنبر ، ويتقدم عدد قليل من الزملاء

لتوديعه ، كان يرقد على سريره فى عربة الاسعاف والابتسامة لا تفارقه. قلت له مودعا :

— نلتقى قريبا يا ابو السباع .
— قريبا جدا يا عمو .

« عمو » .. سمعتها منه فى أول لقاء بيننا فوصلت مباشرة الى أعماقى وسمعتها كثيرا من أبناء اخوتى لكن تأثيرها عندى لم يتجاوز الاحساس التقليدى بها . ويزداد اقتناعى بحقيقة ان **الارتباط الانسانى** اقوى من كل الارتباطات الاخرى .. **حتى ارتباط الدم** .

وتتحرك سيارة الاسعاف فى طريقها الى **مطار الواحات** ، وترتفع سواعد الزملاء تودعه وتهفو قلوبهم للامل المستحيل .. ان يعيش اسماعيل عبد الحكم . كان الامل ضعيفا فى انقاذه **من الموت** .. هكذا قال الاطباء بعد سفره وهذا ما كتبه طبيب السجن فى تقرير رفعه للجهات المسئولة منذ حوالى ١٥ يوما . وقيل ان **المباحث العامة** وافقت على الافراج عنه بعد أن تأكدت من انه **ميت لا محالة** ، فأسرعت بنقله الى القصر العينى ليموت هناك . وحتى لا « **تتحمل** » مسئولية موته فى المعتقل فى ظروف سياسية جديدة طرحت فيها من جديد قضية **الافراج** عنا وبشكل اكثر جدية . لكن .. خاب امل المباحث العامة **وعاش اسماعيل عبد الحكم** . وفتح بخروجه وحياته باب السجن لنخرج وراءه ، ولكن بعد أن عشنا اكثر من عام ونصف بعد خروجه على أعصابنا وفى ظل ظروف سياسية جديدة ، زادت من حدة **الصراع السياسى** بين التنظيمات المختلفة ، وزادت من نشاط **المباحث العامة** لتشويه عقول أكبر عدد من الزملاء قبل أن يصبح الافراج عنا حقيقة مؤكدة .

احكى لك بعض احداث تلك الفترة العصيبة فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

٢٨ سبتمبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـالة رقم (٦٢)

حبيبتى

فى مســاء اليوم نفسه الذى سافر فيه **اسماعيل عبد الحكم** الى القاهرة ، وجدت نفسى فجأة **كغريق فى بحر ليس له قرار** . كانت هذه هى المرة الاولى — منذ أكثر من عشر سنوات فى السجن — تحدث لى فيها مثل هذه الحالة . افكار كثيرة وأسئلة أكثر تملا راسى حتى يكاد ينفجر ، واحساس **بالعجز الكامل** عن متابعة اى فكرة أو الاجابة على اى **سؤال** . ولم تكن عندى أدنى رغبة فى الحديث مع أحد ، فحول اى شىء سـيكون الحديث الذى **لا أملك بدايته** ؟ ووجدت نفسى اخرج من باب العنبر وأسير فى فناء السجن متجها الى سوره الخارجى لاجلس هناك وحيـــدا فى ((**الخلوة**)) ! جلست دقائق .. بعدها وجدت نفسى ((**ألعب**)) بالرمل .. اكومه على شكل ((**تل**)) صغير ثم اهده ! احفر **حفرة** فى الارض ثم املاها بالرمل الناعم ! امسك بيدى اليمنى ((**زلطة**)) وباليد اليسرى ((**زلطـة**)) اخرى ، واضرب اليمنى باليسرى تارة ، وتارة اخـرى اضرب اليسرى باليمنى .. واعيد الكرة مرات ومرات حتى يصيبنى **الملل** فأقذف بهما بعيداً . واجد عصـا صغيرة من ((**الجـريد**)) فأمسك بها وارسم على الرمـل خطوطا مستقيمة ، ومنحنيات ودوائر ، واحيانا **اخرى** ارسم **وجه امراة أو وجه طفل** .. ثم يصيبنى الملل مرة أخرى . أكثر من ساعة مرت على وانا **ألعب** على الرمل **كالاطفال** ، بعدها شعرت بقليل من هدوء النفس وأسمع صوتا ودودا يقول :

— منتظر حد يا درش ؟
— أيوه
— مين ؟
— جودو !

ينفجر **زين سليط** فى الضحك ويقول :

— ده أنا جاى انتظره أنا كمان .
— أقعد ننتظره سوا
— أبقى ضمنت انك تسمع **الرواية** بتاعتى لغاية آخر كلمة .

واخذ الزميل **زين سليط** يقــرأ لى روايتــه ، وكان قــد بدأ فى كتابتها منذ سقط **اسماعيل عبد الحكم** مريضا ، مع أن فكرتها كانت قد ولدت هنا — بجوار السور — منذ عامين خلال المناقشات الكثيرة التى كانت تجرى بيننا حول اوضاعنا الخاصة فى **السجن** .

ثلاثة شـــبان من رجال **المقاومة الشـــعبية** يقاتلون جنود الاحتلال الذين يطاردونهم ويدخلون شقة بأحد المنازل يسكنها رجـــل وزوجته — التى على وشك الوضـع — واختها . يحرص الجميع على الصـــمت التام حتى لا ينتبه اليهم **جنود الاحتلال الذين** يحاصرون المنزل . تبذل الام **جهداً** مضنيا وهى تكتم صراخ ((**الطلق**)) .. لكن صرخة تخرج رغما عنها **تمزق** السكون ، وتنطلق رصاصات **الاعداء** ، وأصواتهم تطلب من يقطن المنزل أن يسلم نفســه ، ويجرى الاب كى يحضر طبيبا لكنه **يموت** على باب المنزل برصاص العـــدو . يلقى جنود الاحتلال قنبلة فى حوش المنزل تدمر السلم كله . ويظل الشبان والام وأختها **محاصرون** .. وترتفع الاصوات ثانية تطلب منهم أن يسلموا أنفسهم .. ويأتيهم الرد .. رصاصات رجال المقاومة تنطلق من نوافذ الشقة ، وتدور معركة يتبادل الطرفان اطلاق النيران **والوليد** فى بطن أمه يصارع من أجل **الحياة ،** والام يتهددها الموت، فالولادة **متعثرة** ، ويقرر الشبان الثلاثة ومعهم أخت الام ، أن ينقـــذوا **الوليد** بأى ثمن حتى ولو كان هذا **الثمن** هو أرواحهم جميعا . ووسط النيران التى يطلقها جنود الاحتلال يقوم رجال المقاومة وأخت الام ببذل كل جهودهم لانقاذ الوليد وأمه .

يقتحم جنود الاحتلال الشـــقة التى صعدوا اليها على سلم خشبى ويطلقون الرصاص على كل الرجال .. ويسقطون جميعا . جثثا هامدة.. بينما تصرخ الام صرخة **الموت والحياة معا . تموت** هى وتمنح حياتها **لوليدها** وتتركه وديعة عند أختها التى تأخذه بين أحضانها وتهرب به من بين الجثث والانقاض .. والاعداء .

نور **الفجر** يزحف يبدد ظلام الليل .. **وزين سليط** يقرأ آخر كلمات روايته ((**عندما نولد من جديد**)) .

لكن مشكلتنا أكثر **تعقيداً** . فالقوى التى تحاصرنا ليست قوى معادية، انها قوى **ثورية .. حليفة وصديقة ..** نقف معها فى **خندق واحد** ضـــد عدو **مشترك واحد .** شكلت **مجالس عسكرية** لبعض من اشترك معها فى المعركة الوطنية قبل الثورة . وبعد توليها **السلطة** سجنت العشرات ، ومن بقى منا فى الخارج — أقصد خارج الســـجون — **حتى عام ١٩٥٦ .** حمل الســـلاح دفاعا عن الوطن وعن النظـــام الذى يقوده **جمـــال عبـــد الناصر .**

وعند أول **خلاف** حول شكل الوحدة بين مصر وسوريا ، اعتقلوا جميعا ، وسقط منهم الشهداء فى **السجون والمعتقلات** ، شهداء **التعذيب..** وشهداء **المرض ،** ورغم كل ذلك فهذه أرواحنا فوق أيدينا نضحى بهـــا دفاعا عن هذا **النظام الوطنى !**

ويزيد المشكلة تعقيدا أن هـــذا **النظام الوطنى** يحاصره الاعـــداء من الداخل والخارج للانقضاض عليه فى أى لحظة ، يعطيهم هو نفســه مزيدا من الفرص حين يصر على ضربنا وابعادنا عن معركة كل أبنـــاء

مصر المخلصين من أجل حريتها واستقلالها وتقـدمها . وتبلغ المشكلة ذروتها حين يكون حصيلة **الصراع السياسى** بين التنظيمات المختلفة من جهة ، وداخل كل تنظيم من جهة أخرى ، هى هذه **الحيرة** التى يعيش فيها الغالبية الساحقة من الزملاء بعد **صدور قرارات يوليو ١٩٦١** ، والتى زادت بعد صدور **الميثاق الوطنى** .

كنا نتجمع كلنا حول الراديو نستمع الى **الرئيس جمال عبد الناصر** وهو يذيع الميثـاق ، وبينما كان الزملاء ينصـتون باهتمام لما تقـوله هذه الوثيقة الهـامة ، والخطيرة . كان البعض فى قيـادات التنظيمات ، يصـدرون احكامهم **((البابوية))** شـديدة **التنـاقض** ، وغايـة فى **السطحية** .

ـــ هو برنامج لتحقيق الاشتراكية !
ـــ بل هو وثيقة خيانة وطنية !
ـــ هو تدعيم لسلطة « المجموعة الاشتراكية » !
ـــ بل يدعم سلطة « رأسمالية الدولة الاحتكارية » !
ـــ الـ ٥٠ ٪ عمال وفلاحين فكرة فاشية !
ـــ انه يعبر عن فكر الطبقة العاملة !
ـــ بل هو تعبير عن فكر البورجوازية الكبيرة !

كانت هذه الاحكام تصـدر بسرعـة مذهلة لم يعهدها فيهم الزملاء من قبـل .

بعد الانتهاء من اذاعة **الميثاق الوطنى** ، دار حوار بين عدد من الزملاء وبين واحد من هؤلاء القادة .

ـــ تعجلت فى اصدار حكمك على الميثاق ؟.
ـــ كان موقفا سياسيا .
ـــ ولم يكن رأيا علميا ؟
ـــ نعم
ـــ ولمـاذا ؟
ـــ حتى لا يخدع الزملاء بعباراته البراقة .
ـــ فتحاصرون أفكارهم ؟
ـــ بل نحميهم من الافكار الخاطئة .
ـــ أحسب أنهم قد بلغوا سن الرشـد
ـــ ليست وصاية .. بل قيادة .
ـــ وهل قالت القيادة رأيها فى الميثاق ؟
ـــ كل ما يجرى من احداث يفسر على ضوء الرأى الرسمى .
ـــ ولا يفكرون الا فى حدود ما تقوله القيادة ؟
ـــ هى المركزية الديموقراطية .

هكذا باسم المركزية الديموقراطية يا حبيبتى يا ابنة الستينيات كانوا يحاصرون الافكار باسم الموقف السياسى .

وفى اواخر عام ١٩٦٣ نشرت جريدة ((**ليموند**)) الفرنسية حديثا **للرئيس جمال عبد الناصر** حول الاوضاع الداخلية والخارجية وعن المعركة ضد الاستعمار والصهيونية والرجعية . وفى نهاية الحديث يسأل الصحفى ((**ايريك رولو**)) عن ((**الشيوعيين**)) **بالواحات** ويجيب عبد الناصر .. اننا بصدد تصفية المعتقلات فى **بداية عام ١٩٦٤** .

وأعادت قيادة ((الحزب الشيوعى المصرى)) مناقشة خطها السياسى . وفى اجتماع عام أعلنت **تأييدها ((للحكم الوطنى)) ولاجراءاته التقدمية** . لم أكن سعيدا بهذا الموقف السياسى الجديد رغم أننى ناضلت سنوات من أجله ، ((**لعنت**)) خلالها على ((**السبحة**)) من هؤلاء أنفسهم الذين تبنوا ما أنادى به . ويجرى حوار بينى وبين واحد من قيادة ((**الحزب المصرى**)) .

قال :

— هل رأيت وسمعت ؟
— وبئس ما رأيت وما سمعت

قال بدهشة :

— سياستنا انتصرت .
— والفضل لجريدة **ليموند** .
— بل لنضالنا داخل الحزب .
— **وهم** كبير تعيش فيه .
— المهم انهم اليوم يقفون الموقف الصحيح .
— لكن الاهم هو السبب ..
— ماذا يكون غير اقتناعهم ؟
— الافراج عنهم .
— كان الافراج معروفا منذ مدة .
— وتأكد بعد وعد الرئيس جمال .
— مهما يكن الامر فأمامنا عمل كبير .
— شد حيلك .
— نحتاج اليك .
— اى خدمة .
— تعدل عن استقالتك من اللجنة المحلية .
— لماذا ؟
— كى تكون فى المستوى نفسه فى الخارج !!
— ...

ويسأل منزعجا :

— ماذا افهم ؟
— سوف اقدم لهم اليوم استقالتى من التنظيم كله .

بعدها .. أجد نفسى أعيش معك يا حبيبتى يا ابنة الستينات بكل كيانى . عندما دخلت السجن عام ١٩٥٢ كنت ما تزالين طفلة صغيرة ، بينما كنت أنا فى مثل عمرك الان ، وأراك اليوم كما كنت أرى نفسى وأنا شاب مثلك ، يملأك الحماس لمواصلة المسيرة ، فأضمك بين أحضانى بكل حبى وحنانى ، وأهمس فى أذنيك الصغيرتين :

ــ ليس بالحماس وحده تتحقق الامال .

تقولين وغضب الشباب يملأ عينيك الواسعتين الجميلتين :

ــ والهرب يحطم كل الامال .

وأقول لك وابتسامة حزينة تملأ وجهى :

ــ كان محاولة لصياغة فكر جديد .

الساعة تقترب من العاشرة مساءا ومندوبى وكالة أنباء « واس » ، لصاحبها عبد الستار الطويلة يصيحون :

ــ آخر أخبار الافراج يا زملا .
ــ الساعة عشرة ونصف فى عنبر (١) .

الافراج عن كل الزميلات المعتقلات وكن حوالى ٤٠ زميلة . من بينهن أسماء حليم التى ولد ابنها فى السجن وقضى عامين مع أمه فى سجن مصر ، ثم اعتقلت مرة أخرى فى سجن القناطر . وسميرة الصاوى زوجة أحمد طه .. دخلا السجن وتركا ابنهما الصغير عند الجيران أكثر من أربع سنوات ، وسعاد بطرس خطيبة شكرى عازر ، اعتقلوهما قبل أن يتزوجا بشهور قليلة . وثريا حبشى زوجة فوزى حبشى ومنذ سنوات لا يعرفان من أخبار أولادهما سوى القليل جدا . وفاطمة زكى زوجة نبيل الهلالى ومنذ زواجهما لم يستقرا معا أكثر من شهور . وثريا ابراهيم زوجة الدكتور مختار السيد .. اعتقلوهما معا وتركوا أولادهما الصغار وحدهم لا يعرفون الحكاية ، وثريا زوجة حلمى ياسين ، اعتقلوهما قبل أن يمر عام واحد على زواجهما .. وغيرهن .. وغيرهن ...

كان لهذا الخبر دوى واسع بيننا ، فهذه أول مرة منذ أربع سنوات يتم فيها الافراج عن مجموعة كاملة وبذلك الشكل الواسع ودون أى قيود أو شروط ..

ويصل الى « واس » آخر خبر يهمس به الزميل فوزى حبشى لعبد الستار الطويلة كى يذيعه قبل أن ينصرف الزملاء .

خطيبة شكرى عازر وخطيبة الدكتور فوزى منصور وزوجات أحمد طه وفوزى حبشى والدكتور مختار السيد يحضرن فى زيارة غدا .. وكان غدا هو ٣١ ديسمبر ١٩٦٢ ، وكانت الاستعدادات تجرى على قدم وساق للاحتفال بالعام الجديد .. عام الافراج والحرية .

احكى لك عن ذلك الاحتفال فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى ..

٣ اكتوبر ١٩٧٧ ـــ القاهرة

الرســــالة رقم (٦٣)

حبيبتى

كانت الساعة حوالى السادسة صباحا حين كان الزملاء **فـوزى منصور وشكرى عازر ومختار السيد وفوزى حبشى واحمد طه** يقفـون على باب احدى زنازين سجن المحاريق يتناوبون ((**التوسل**)) **لمصطفى درويش** كى يقـوم من النوم ! كان هو الوحيـد بيننا الذى يسـتطيع أن ((**يشخط وينطر**)) فينا جميعا ، ولا يملك اى زميل الا أن يتحمله كى ((يقص)) له شعره و ((يحلق)) له ذقنه . ومع انه كان معفيا من القيام بأى عمل آخر كى يتفرغ لهذا العمل ، وانه كان يأخذ كل اسبوع علبة سجاير صغيرة كحافز مادى ، أنه كان يقبل ما ((**يغمزه**)) به بعض الزملاء بسـيجارة أو سيجارتين كى يعتنى بهم ((حبتين)) . وفى موسم **الزيارات** ترتفع أسهم **مصطفى درويش** ويتضاعف محصوله من السجاير التى يأخذها من الزملاء بعد الزيارة . وكانت له ((**شلة**)) من الزملاء يجلسون معه مساء كل يوم يدخنون السجاير ويستمعون الى ما كتبه من زجل ركيك !

بعد أكثر من ساعة يقوم **مصطفى درويش** من نومه . يضع فوطة الوجه على كتفه ويسير فى خطوات متثاقلة الى دورة المياه ، والزملاء يقفون ((**آخر أدب**)) فى انتظار عودته .

الساعة تقترب من السابعة والنصف صباحا ، **ومصطفى درويش** لم يعد بعد من دورة المياه ، وتعبيرات القلق تبدو على وجوه الزملاء كلهم ماعدا **أحمد طه** . ويسأل **الدكتور فوزى منصور** :

ــ اشمعنى أنت يا احمد اللى هادى قوى كده ؟

يضحك **أحمد طه** ويقول :

ــ أصل انا بقى يا دكتور فى مرحلة ((**الخضار المسلوق**)) فى رحلة الزواج

ويعلق **الدكتور شكرى عازر** بخبث :

ــ مش ده السبب الحقيقى يا أحمد .

ويسأل الدكتور فوزى :

ــ ايه هوه السبب الحقيقى يا شكرى ؟

ويصرخ احمد طه :

ــ اسكت يا شكرى ماتبوظشى الشغل !

ويعود **مصطفى درويش** من دورة المياه يسير « الهوينى » وقبل أن يدخل زنزانته ينظر « **شذرا** » الى الزملاء ويقول :

— مستعجلين قوى كده ليه .. مالسه بدرى على الزيارة ..

وبعد دقائق يخرج من زنزانته يحمل « **عدة الحلاقة** » ويلتفت الى **أحمد طه ويسأله :**

— نبتدى بمين يا احمد ؟

ويقول أحمد طه :

— طبعا الدكتور **فوزى منصور** .

ويتساءل الدكتور فوزى وحمرة الخجل تكسو وجهه :

— مش ممكن . . ليه أنا الاول ؟

ويقول **مصطفى درويش** ضاحكا :

— احنا عندنا نظر يا دكتور .

ويضيف **أحمد طه** :

— وأنت كلك كرم يا دكتور .

ويقهقه الدكتور فوزى ، ويقول :

— يا أولاد الايه .. عاملين «كومبينة» !

فى مساء اليوم نفسه — بعد الزيارة — كان الزملاء فى «شلة» **مصطفى درويش** يتجمعون حوله وفى يده علبة سجاير بلمونت «لارج» يتطلعون اليها «**بحب**» . قال وابتسامة تكسو وجهه الطيب :

— «الغلة» النهارده محترمة .
— واحنا معاك للصبح .
— عاوزين نسمع القصيدة بتاعتك .

ويقول مصطفى درويش :

— تصوروا القصيدة دى .. حسن فؤاد مش موافق يحطها الليلة فى برنامج الاحتفال برأس السنة .
— يا شيخ سيبك منه .
— شوية مثقفين معقدين .
— يا عم دى بلد «شهادات» .

وتزداد ابتسامة **مصطفى درويش** اتساعا ويبدأ فى توزيع السجاير ويقول :

— كل واحد سيجارة بحالها .. بس بشرط !
— ايه يا ريس ؟

تعبيرات وجهه تنطق **بحبه** العميق للزملاء :

ـــ كل واحد يولع سيجارته بحالها .
ـــ بس لسه الليل طويل .
ـــ وعاوزين نسمع قصيدتك الجديدة .

ويرد عليهم :

ـــ نوزع ثانى .. وثالث .. ورابع .. الخير كثير والحمد لله .

وتتوالى تعليقات الزملاء :

ـــ يعنى مفيش ((**تهميس**)) الليلة ..
ـــ بس خسارة الواحد يرمى ((**عقب**)) .
ـــ يا أخى الواحد **يحس بانسانيته** مرة ويرمى «العقب» .
ـــ والليله راس السنة الجديدة ..
ـــ بيقولوا فيه أخبار جديدة عن الافراج ..
ـــ فرصة نتمرن على شرب سيجارة بحالها قبل ما نخرج .

وينتبه **مصطفى درويش** الى أن **احمد طه** ليس موجودا بينهم على غير العادة ، ويسأل :

ـــ أمال فين احمد طه ؟
ـــ تلاقيه قاعد لواحده سرحان فى **((أم عبده))** بعد ما زارته .

ويقول **مصطفى درويش** بعتاب :

ـــ أيوه .. لكن كان برضه أصول يحضر شوية ..

ويعلق أحد الزملاء :

ـــ أصل معاه سجاير .. مش محتاج ينافقك النهارده .

ويندهش الزملاء للتغيير المفاجىء الذى حدث **لمصطفى درويش** . **انفعالات حزينة** تحل محل **ابتسامته الانسانية** التى كانت تملأ وجهه وهو يوزع السجائر على زملائه . وفجأة **ينفجر** فى بكاء كالاطفال . وعبثا راحت محاولات الزملاء لتهدئته . ولم تجد اعتذارات الزميل صاحب التعليق . ويذهب بعض الزملاء يبحثون عن **أحمد طه** .. ربما يستطيع اخراج **مصطفى درويش** من الحالة التى سيطرت على كل كيانه . ويجىء **أحمد طه** تسبقه شتائمه « البذيئة » التى يتبادلها باستمرار مع **مصطفى درويش** ويفتتحا بها الجلسات المسائية اليومية للشلة :

ـــ يا ابن (...) ما احنا كل يوم بننافق فيك .

ابتسامة **طيبة** تبدو على وجهه **مصطفى درويش** ، ويقول :

ـــ أيوه .. أيوه .. لكن .

ثم بصوت مخنوق ..

— مش عارف أقول ايه .. مش عارف .

كان **مصطفى درويش** عامل النسيج بالاسكندرية محبوبا من عمال مصنعه ومن أهل حيه «كرموز» . قبض عليه فى **أوائل عام ١٩٥٩** وترك وراءه **زوجة وطفلين** وهم لا يملكون قوت يومهم ، وتكفل بهم أهل الحى حتى خرج من **السجن فى أوائل عام ١٩٦٤** .

كانت مشكلته أن احساسه بالاشياء **قوى** ولكنه لا يملك القدرة على **ادراكه** والتعبير عنه . وكان يدرك هذه المشكلة ولكنها لم تكن عقبة أمام علاقته بالناس الذين ولد وتربى وعاش بينهم طول حياته . **فالناس البسطاء** يحبون من يشعر بهم حتى وان لم يعبر عن مشاعره نحوهم بكلمات ، فصوت **الحوار الانسانى** هو الاعلى ، كان يجد نفسه خلال حواره الانسانى الصامت مع الآخرين **البسطاء** كما يجد **الحبيبان** ذاتهما فى لحظات **الوجد الصامتة** . وفجأة وجد نفسه فى عالم لغة التعامل فيه هى لغة « **الكلام** » .. وهو لا يجيدها .

كيف يجد نفسه فى هذا العالم « الكلمانجى » ؟ ماذا يعطيه ؟ وماذا يأخذ منه؟

تعلم كيف «**يقص**» الشعر وكيف «**يحلق** » الذقن كى يحلق لكل الزملاء، يعطيهم مجهوده .. وربما يتعلم منهم « **الكلام** » أثناء قيامه بالحلاقة لهم . حتى هؤلاء « **الاساتذة** » الكبار يمكن أن يتعلم منهم شيئا خلال حديث ودى بينهم وبينه أثناء الحلاقة ، « **فالزبائن** » — حتى المحترمين جدا منهم — يتواضعون مع «الحلاق» الذى يحلق لهم ! لكن ، ما الذى يعطيه الزبائن « للحلاق » غير المجاملات والابتسامات التى لا معنى لها ، و «**البقشيش**» !

ومع انه كان يعرف أن معظم ما يقوله له بعض الزملاء من كلمات « **استحسان** » لقصيدة زجل كتبها أو رأى قاله ليست سوى «**مجاملات**» الا انها كانت ترضيه **انسانيا** ! وكان يعرف أيضا أن السجائر التى يأخذها من بعض الزملاء ليست سوى «**تحية**» كتلك التى يقدمها « **الزبون** » « **للحلاق** » ، لكنه كان يقبلها منهم وهو على أى حال لا يدخنها وحده وانما يشاركه فيها عدد من الزملاء خلال جلساتهم المسائية اليومية . وهذه الجلسات بكل ما يجرى خلالها ، حتى تبادل الشتائم ، يحتاج اليها الزملاء للتخفيف عن **أعصابهم** التى أرهقتها الاخبار المتناقضة عن الافراج ! .

ويعود الهدوء الى نفس **مصطفى درويش** ، وتستأنف « **الشلة** » مواصلة جلستها بعد أن يصيح **عبد الملك خليل** بكلمته الشهيرة :

— أى حاجة زى أى حاجة .

قالها ذات يوم من أيام **السجن العصبية** ، وانتشرت بين كل الزملاء وكانوا يقولونها عندما **تختلط** عليهم الامور ، أو عندما تصل المناقشة

بينهم الى طريق **مسدود** ، خاصة خلال الثلاث سنوات الاخيرة منذ صدور قرارات **يوليو ١٩٦١** ، وما أعقبها من خطوات سياسية تقدمية ، **وكثرة** الاخبار عن الافراج ((**العاجل**)) جداً !

هل كانت الصورة واضحة أمامنا يوم **٣١ ديسمبر ١٩٦٣** ، **وهو اليوم** الذى جاء فيه **خمس زميلات** أفرج عنهن منذ أيام من سجن **القناطر الخيرية** فى زيارة **لازواجهن** ، يحملن معهن آخر اخبار الافراج ، وعدد كبير من خطابات أهالينا الينا ؟ .

أحد جوانب الصورة ، كانت تلك الاخبار التى جمعتها وكالة أنباء «واس» من الزملاء الذين كانت عندهم زيارة ، **ومن الخطابات التىوصلت** الى الزملاء من أهاليهم :

* انه لا يزال هناك صراع داخل **السلطة** بين الرئيس جمال عبد الناصر وعدد من قادة الثورة من ناحية ، وبين عدد آخر من ناحية حول الافراج عنا . خاصة بعد الحديث الذى أدلى به ناصر الى صحيفة **«ليموند»** الفرنسية والذى وعد فيه بالافراج **عنا فى أوائل عام ١٩٦٤** .

* أن أجهزة الامن وفى مقدمتها **المباحث العامة** بذلت ولا تزال تبـــذل كل المحاولات لعدم الافراج عنا . وآخر محاولة للمباحث العامة بعد أن صدرت اليها الاوامر الصريحة **بالافراج** ، هى انها طلبت التأخير حتى لا نخرج بشعور **الابطال !**

* ان عدد من الكتاب التقدميين ، مثل **حسين فهمى ، وعبـــد الرحمن الشرقاوى ، والدكتور محمد أنيس ، ولطفى الخولى ، ومحمد عودة** يؤكدون ان الافراج عنا قد أصبح على الابواب .

وكان الجانب الثانى للصورة ، هى تلك **اللحظـــة** التى بدأ الاهالى يعيشونها لاستقبالنا بعد ان أصبح الافراج عنا **يقينا** عندهم . خطاب وصلنى من **الفنان داود عزيز** الذى يعالج فى مستشفى القصر العينى من ذبحة صدرية يقول لى فيه أن **عايدة** خطيبته ذهبت اليه مع أخيه فخرى ومعهما قسيس وعقداً قرانهما وشهد **عقد القران** ضابط الحرس والجنود الذين يحرسون داود عزيز وبعض نزلاء المستشفى . ووزع الشربات وانطلقت **«زغاريد»** بعض الممرضات .. والف مبروك يا درش .. عايدة تؤكد انها علمت من أوثق المصادر **انه لم يبق على الافراج سوى اعداد** القوائم !

وتعود ذاكرتى الى أوائل **عام ١٩٥٢** ، كنت مع عايدة وداود نجلس فى حديقة **«جروبى»** نشرب قهوة الصباح وننشد دفء الشمس فى ذلك اليوم البارد من أيام يناير . سألتنى عايدة :

— هل قال لك داود لمـــاذا لا يريد أن نتزوج ؟
— ولا أوافق على رأيه .
— ومع ذلك يصر على رأيه !
— يخاف عليك .
— لكننى لا أخاف .. ولن أتزوج غيره .

ولم يقتنع داود بكل ما قلته وقالته له عايدة . كانت حجته أن احتمال القبض عليه فى أى يوم احتمال قائم وهو لا يريد لها أن ترتبط بانسان مطارد ! ومضت شهور دخلت بعدها السجن وداود مصر على رأيه . وفى أوائل عام ١٩٥٤ علمت أن داود وعايدة قد اتفقا على تحديد **يوم عقـــد قرانهما** ، وتشاء الصدفة أن يكون هذا اليوم هو تاريخ **القبض على داود عزيز !** وبعد ١٥ يوما وهى المدة المحددة التى يستحق بعدها المسجون تحت التحقيق زيارة خاصة ، ذهبت عايدة يصحبها قسيس الى سجن **«القناطر الخيرية»** كى تزور **داود عزيز وتعقد قرانها عليه .** اذهلتـــــه المفاجأة .. بعد القبض عليه شكر الظروف ، فقد حدث ما كان يتوقعه قبل أن يتزوجا . فكيف يوافق اليوم على الزواج مع وقف التنفيذ لسنوات لن تقل عن عشرة !

— وانت ايه ذنبك يا عايدة ؟
— ليس ذنبا .. بل حبا .
— تنتظرين عشرة أعوام .. وقد تزيد ؟
— حتى نهاية العمر .
— طيب نخليها خطبة .
— ليـــــه ؟
— ربما تجد ظروف وتعيدين النظر .

وتوافق عايدة عن غير اقتناع فلا فرق عندها بين الخطبة والقران . وحتى لو لم تتم خطبتها فهى تحبه وسوف تنتظره مهما طال الوقت ، والمسألة عندها مسألة شكلية أمام المجتمع ، ولكنها تعطيها الفرصة للوقوف الى جانب حبيبها .

وبعد عشرة سنوات من خطبتهما — ٧ سنوات سجن وثلاث سنوات اعتقال — وقبل أن يخرج داود من المعتقل يوافق على عقد قرانه .

وعبد الستار الطويلة يصله خطاب من زوجته التى حصلت على الطلاق منه بعد أن ضاقت بها الدنيا ويأست من خروجه ، تقول له انها سوف تحضر اليه فى زيارة غدا وتحمل معها أخبارا مؤكدة عن الافراج .

يســـــألنى :

— ايه رأيك ؟
— موافق .

ــ تركتنى فى محنتى ؟
ــ كانت محنتها أكبر .

واقرأ فقرة من خطاب وصل الى **مجدى فهمى** من أمه تقول له «اعمل حسابك يا مجدى . عروستك **((كوثر))** منتظراك . بعد شهر واحد راح نعمل الفرح . فرح الافراج عنك وفرح زواجك .

ــ ألف مبروك يا **مجدى** .
ــ الافراج والا العروسة ؟
ــ الاحرار فقط هم الذين يتزوجون .
ــ ربما لانهم ضاقوا بالحرية .

وأسمع صوت **((فاتن))** الابنة الكبرى **لرمزى يوسف** . « يا بابا أوعى تكون زعلان من ماما . أنا اتكلمت معاها بعد ما سمعت أخبار الافراج عنكم علشان ترجع عن اللى فى مخها ونقعد كلنا مع بعض ، **((أنا وانت وماما وماجدة ويوسف** . حافظ على صحتك يابابا واخواتى وماما محتاجين لك » .

ــ بتحب ايزيس يارمزى ؟
ــ أخبارها مش كويسة .
ــ هربت من السؤال .
ــ طبعا لسه باحبها .
ــ تبقى تسمع كلام فاتن .
ــ يا ريت .
ــ الافراج راح يحل حاجات كثير يا رمزى .
ــ لكن عقدة ايزيس لن تحل .
ــ كل عقدة ولها حلال .
ــ الا عقدة التطلعات الطبقية .

وخطابات أخرى كثيرة وصلت الى الزملاء . خطيبة تقول لخطيبها أنها حصلت على شقة **((حلوة))** وكتبت العقد [illegible]
دهانها بعد أن حصلت على أجازة ، وانها
اللوازم الضرورية للبيت وأهمها حجرة الن
« علشانه » . وتطلب منه أن لا يفكر فى
((جمعية)) ٢٠٠ جنيه .

وزوجة تقول لزوجها « بعت المصاغ
لكن ولا يهمك بكره ترجع يا حبيبى وتعوض

وابن يرسل الى أبيه يقول : « كنت
بالثانوية العامة كى أساعد أمى وأخوتى فى
عن هذه الفكرة وسأواصل دراستى الجامع

كانت الصورة عند أهلينا أننا على بعد خطوة واحدة من باب **الحرية.** وكانت الصورة عندنا أن الافراج ما يزال رهن **الصراع داخل السلطة** وهو لم يحسم بعد لصالحنا رغم تصريح عبد الناصر لصحيفة : « ليموند » الفرنسية ، وكنا نرجح كفة الرئيس ناصر بوزنه الهائل محليا وعربيا وعالميا . وعلى هذا الامل قضينا ليلة راس السنة الجديدة **لعام ١٩٦٤،** أحكى لك تفاصيل احتفالنا بها فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى ..

٨ اكتوبر ١٩٧٧ . القاهرة

الرســـالة رقم (٦٤)

حبيبتى

بعد مجهود شاق بذلته طول النهار فى **ازاحة الرمال** من على «مقاعد» **رح الرومانى بسجن المحاريق** استعدادا لاستقبال جمهور المشاهدين تفالنا برأس السنة الجديدة**لعام ١٩٦٤** ، ذهبت الى **زنزانتى** لانام قليلا نى اكون فى حالة تسمح لى باستقبال **المأمور** والضباط **وبعض موظفى** بافظـــة ووزارة الزراعـــة بالواحات ، فقد كنت احد اعضاء لجنة ستقبـــال .

كانت الساعة حوالى السابعة مساء حين استيقظت على صـــوت ـــاة :

أصحى بقى يابابا علشان تلبس .

لم أصدق عيناى . حسبت اننى فى **حلم** وأغمضت جفـــونى حتى فوتنى بقية **الحلم الجميل . بابا .. تلبس ..** وصوت فتاة !

يد تهزنى ونفس الصوت ، يقول :

قوم يابابا .. شوف فستانى الجديد !
حلو قوى **يا حبيبتى !**

هل سمعوا هذه الكلمات فانطلقت ضحكاتهم التي جذبتني بعنف من مى الجميل ؟ وهل خرجت هذه الكلمات من فمى أم انها كانت احدى يات حلمى **المستحيل ؟**

الزميل **رؤوف حلمى** فى زى فتاة رائعة الجمال ، **ومنير المغربى** وعلى جهما ابتسامة حبيبة .

يقول **رؤوف حلمى** بصوت ناعم رقيق :

. حلوه كده يابابا ؟

وتخرج من صدرى تنهيده عميقة وطويلة ..

. بابا .. يا ريت يارؤوف .

«**بابا**» .. لم اسمعها من احد قبل دخولى السجن ، ومنذ التقيت به فى **أوائل عام ١٩٥٩** وهو ينادينى بها ! كان وقعها فى نفسى منذ أول يوم نطق بها عميقا ، ينفذ الى **وجدانى** لحظة افيق بعدها على صوت عقلى يشدنى الى الحقيقة ! فى هذه المرة ذاب كل **كيانى** فى لحظة الوجد مع ((**ابنتى وحبيبتى**)) .. وطالت اللحظة وغاب خلالها عقلى ، واسمع حوارا بين الزملاء ، لا يخرجنى منها :

ـــ هل اخطأنا ؟
ـــ آثرنا شجونه . !
ـــ ربما كانت قسوة !
ـــ نتركه الآن .
ـــ سنكون أكثر قسوة .

لكن صوت **عدلى برسوم** وضحكتـــه يرنان فى أذنى ويشـــدانى من استغراقى :

ـــ اثيل .. اثيل .. اين انت يا حبيبتى ؟

واقول **لرؤوف حلمى** ضاحكا :

ـــ زوجك روز نبرج يبحث عنك يا ابنتى !

وبكل قوة وحب الابن لابيه يندفع رؤوف نحـــوى ويضمنى بين احضانه .. يقبلنى .. واقبله . ويصرخ عدلى :

ـــ مين ده يا اثيل ؟

ويقول رؤوف ضاحكا :

ـــ ده بابا ياروز نبرج ..
ـــ كنت فاكر انه راجل غريب !

وتخرج من أعماقى وأعماق كل الزملاء ضحكات تحكى نغماتها سيمفونية معاناتنا وآلامنا وأحلامنا وحبنا ، سيمفونية الحياة .

وفى المساء حين فتحت الستار على مسرحية **((أثيل وروز نبرج))** بطولة **رؤوف حلمى** «اثيل» **وعدلى برســوم** «روز نبرج» كان المشاهدون يتأملون قصة حياة عالم الذرة **((روز نبرج))** وزوجته عالمة الذرة أيضا ، اللذان رفضا أن يسخرا العلم من أجل **الحرب** ، فلفقت لهما **المخابرات الامريكية** تهمة الخيانة الوطنية وصدر ضدهما حكما **بالاعدام** . وعندما يظهر على خشبة المسرح طفلاهما مع والديهما قبل تنفيذ حكم الاعدام ، يشرد ذهنى بعيدا .. خارج الاسوار ويستغرقنى عالمى الخاص .

لو أن **((ميمى))** زوجتى السابقة لم تقتل **الجنين** الذى تركته فى أحشائها **فى عام ١٩٥٢** وقبل دخولى السجن بشهرين ، لكان عمر ابنى أو ابنتى الآن

١٢ **عاما** ، كان سيستقبلني عند خروجي من السجن وهو مازال طفلا عمره ١٢ عاما أو تزيد شهورا اذا خرجت هذا العام ، وربما كان **سيستقبلني** وهو شاب اذا امتد بي العمر في **السجن** ، ثم خرجت منه بعد سنوات اخرى ، حتى لو **فارقت الحياة** داخل السجن فكان هو الذي سوف ينتظر **جثماني** ليرعاه حتى يذهب به الى مثواه الاخير .

دخلت السجن ، عمري ٢٧ عاما ، وهو يقترب الآن من الاربعين،فعلى اى محطة يمكن أن الحق بالقطار لو خرجت من السجن هذا العام ؟ وكم سنة تستغرقها الرحلة الى المحطة التى أنشدها ؟

لست أنوى البحث عن **((بنت الحلال))** كي أتزوجها واستقر ، ما أتمناه هو تجربة **حب صادقة**. كنت **((غبيا))** قبل دخولي السجن، أو كنت **((جادا))** بالمعنى التقليدى لهذه الكلمة ، أو كنت أفهم **((الحب))** على انه نقيض **((النضال))** ، أو كنت أسير قيم وتقاليد متخلفة . بل كنت كل هذا واكثر .

في منتصف **عام ١٩٤٩** كانت لي تجربة **حب** بترتها بقسوة وهي في بدايتها ، وها أنذا أجنى ثمار موقفي **((الغبي)) مرارة** . . **ووحدة** . . **واحباط** . ورغم موقفي «الغبي» وبعد دخولي السجن بسنوات كانت **حبيبتي** تتتبع أخباري باهتمام وترسل لي بانتظام ، وحين عرفت بانفصال زوجتي عني **عام ١٩٥٥** أرسلت الى تطلب عقد قراننا ، **وأرسلت اكرر** نفس الاسباب التي رفضت من اجلها الاستمرار في تجربة حبنا ، وأهمها أن بيني وبينها فروق **طبقية كبيرة !** فهي بنت رجل اعمال كبير ، وأنا في احسن الاحوال لن أكون أكثر من موظف يخرج على المعاش في الدرجة الثانية ! ومن أسرة شعبية لا تملك سوى قوت يومها .

سوف أبحث عن **الحب** بعد خروجي من السجن حتى آخر **عمري** . ولن يكون **الزمن** مقياسا مقياسا أقيس به المسافة الى **اللحظة** التي اريدها ولا الوقت الذي تستغرقه . ما أتمناه هو **اللحظة ذاتها** ، حتى ولو كانت **دقيقة واحدة** أموت **بعدها** . لكنني سأكون قد عشت حياتي كلها خلال هذه **الدقيقة** .

ألمح في عينيك يا حبيبتي سؤالا ماكرا : هل وصلت الى المحطة التى تنشدها بعد خروجك من السجن ! ؟

أنغام تنساب من بين اصابع **محمد حمام** يدق بها على الطبلة ، ويرقص عليها **زكي مراد ومحمد مختار وخليل قاسم ومحمود شندى** ، ويصدح صوته العميق الدافىء . . «عم يا جمال» . . وتنقلني تلك اللوحة الرائعة ، الى النوبة وأهلها البسطاء الطيبين .

كان **وليم اسحق** هو أول من اكتشف موهبة **محمد حمام** في الغناء . في البداية كان **محمد حمام** يظن أن وليم يمزح معه :

— اغنى ازاى يا وليم بس ؟
— زى اللى بيغنـــــوا
— وانت تفهم فى الغنا كمان ؟
— انا ملك
— ايوه ملك .. بس ملك صحراء .
— فى صحراء النوبة عندكم .. مش بيغنوا .. ؟

ويسرح **محمد حمام** قليلا .. ويدندن بصوت منخفض جدا بينما تدق اصابعه على ((**غطاء جردل مياه**)) . ويصيح وليم :

— **اقطع** دراعى .. ولا صوت «بول روبنسون» .

ويكتب له وليم اغنية من اغنيات روبنسون ، ويغنيهـــا **محمد حمام** . ويقول له وليم :

— لو مش مصدقنى نخللى بعض الزملاء يسمعوك ويقولوا رايهم .

ويرد **محمد حمام** بخجل شديد

— بقى معقول اغنى قدام حد .. انت بس .. وآدينى بأسليك .
— يا حمام اسمع كلامى .. انت موهبة ..
— وحياتك يا وليم بلاش هزار .

وبعد مجهود مضنى يبذله **وليم اسحق** لاقناع **محمد حمام** بالغناء امام بعض الزملاء ، يقتنع بشرط ان يختفى **وراء بطانية** بحيثلايراه أحد ،ولايرى هو أحد . وتجرى أول تجربة لصوت **محمد حمام** الذى يختبىء وراء بطانية فى احدى زنازين سجن **المحاريق** ، وعلى الجانب الآخر من البطانية كان الزملاء **حسن فؤاد وصلاح حافظ والفريد فرج وداود عزيز وشـــــوقى عبد الحكيم ووليم اسحق ومحمود شندى** وهم أعضاء لجنةالتحكيميستمعون الى صوت **محمد حمام** يغنى اغنية نوبية ، وأخرى بالانجليزية **لروبنسون.** وتصدر اللجنة بالاجماع قرارها بأن صوت محمد حمام امامه مستقبـــل عظيم . بعدها ظل **محمد حمام** لا يغنى الا من وراء بطانية فقد كان خجولا الى درجة مذهلة ، وتدريجيا تعود على مواجهة الناس وازداد ثقة بجمال صوته . وكانت هذه الاغنية التى يقدمها على المسرح فى شكل تابلوه هى أول مرة يغنى فيها حمام امام عدد كبير من المشاهدين .

والغريب ان **محمد حمام** الذى كان يخجل من الغناء امام عددمنالزملاء وهو فى السجن ، شهدته بعض **صالات القاهرة** يغنى فيها بعد خروجه ، وكان لذلك قصة طريفة . ففى ذات مساء دق جرس تليفون منزلى واسمع صوت **محمد حمام** :

— عاوز اعرف رايك فى مسالة ربما يتوقف عليها مستقبلى .
— خير يا حمام ؟
— عاوز اغنى فى صالة من صالات شارع الهرم .

كدت لا اصدق اذنى وقلت بصوت مرتفع :

— مش معقول .. بتتكلم جد ؟
— **٤٠ جنيه** فى نص ساعة يا درش .
— تغنى وسط السكارى ؟
— اعمل ايه مفلس .
— واذا قلت لك لا .. تسمع كلامى ؟
— طبعا .. أمال باسألك ليه .

ووجدت نفسى أمام **مشكلة حقيقية** ان نصحته بأن لا يبيع فنه لمجموعة من السكارى فمن أين يغطى احتياجاته العاجلة ؟ وان وافقت بلا شروط فسوف ينحدر حتما وربما ينتهى **كفنان** ، قلت لمحمد حمام :

— كام ليلة تغنى فى الصالة دى وتتوقف بعدها ؟
— شهر واحــــد .
— شهر .. يعنى ١٢٠٠ جنيه ممكن تستحلى الحكاية ؟
— ولا يوم زيادة .

لمـــاذا اضطر محمد حمام الى أن يلجأ الى هذا ؟

صحيح أنه استطاع أن يحمى نفسه من الانحدار . لكن كم هى المواهب التى اضطرتها الظروف الى أن **تبيع نفسها ؟** .

دقات الساعة تدق منتصف الليل . تطفأ أنوار المسرح دقيقة ، تضاء بعدها على الشاعر **محمود شندى** يلقى قصيدة **((حكاية الصبار))** وبعده مجموعة كبيرة من الزملاء تنشد « بلادى . بلادى » ويســــدل الستار معلنا انتهاء الحفل الرسمى ويدعو الزملاء الى احتفالاتهم «الحرة» !

كان انتهاء الاحتفال على هذه الصورة **مفاجأة** للزوار وللزملاء . قال المـــأمور :

— الضيوف كانوا يريدون مشاهدة مسرحية **حلاق بغداد** .
— الحلاق ارتفعت درجة حرارته الى ٤٠ بشكل مفاجىء !

ولم يكن هذا هو السبب الحقيقى . كان السبب هـــو **هروب** زميلين من السجن ويجب أن يتخذ الزملاء كافة الاحتياطات قبل أن تعرف ادارة السجن بالخبر وتعمل **((تكديره))** أحكى لك قصة هروب الزميلين فى الرسالة المقبلة يا حبيبتى ..

١٠ أكتوبر ١٩٧٧ . القـــاهرة

الرســــالة رقم (٦٥)

حـــــبيبتى :

فى مخازن الحكومة والقطاع العام يجرى جرد **((العهدة))** مرة واحدة كل عام ويسمونه «الجرد السنوى» . . صنف واحد من مئات أصناف العهدة فى المخازن يجرى «جرده» **مرتين كل يوم** . . هو **((المسجون))** ! ففى السجون يجرى **جرد** المساجين مرة فى الصباح ويسمونه **((تمام الصباح))** ومرة ثانية فى المساء ويسمونه **((تمام المساء))** . وبعد اجراء الجرداليومى **((للمساجين))** صباحا ومساءا ترسل السجون الى المسئولين فىالمصلحة كشوف **((التمام))** حتى يطمئنوا على **((العهدة))** .

وبالهول ما يحدث فى سجن ينقص من «عهدته» مســـجون واحد . التحقيق فورا مع **المأمور والضباط والسجانة** لمعرفة المسئول وتوقيـــــع العقوبة التى تصل الى الفصل من الخدمة . واثناء التحقيق وبعده واحيانا حتى يتم تسديد **((عجز العهدة))** بالقبض على المسجون الهارب تفرض حالة الطوارىء .

وحالة الطوارىء فى السجون تعنى **ضرب المساجين** وغلق **((الزنازين))** عليهم ووقف خروجهم الى العمـــــل وتعاملهم مع الكائنتين ، ومنـــــع الزيارات .

وفى سجن **المحاريق** كان يجرى «جردنا» صباحا ومساء ، وكان كله «تمام» ! ومنذ حوالى ستة شهور سابقة على يوم **٣١ ديسمبر ١٩٦٣ ،** كان الذى يقوم **((بالتمام)) علينا ،** الزملاء « مسئولى النظام » . **وكانت قوة** السجن ، ابتداءا بالسجان حتى المأمور مطمئنون تماما . فمن هذا الذى يستطيع الهرب **من سجن فى قلب الصحراء يبعد مئات الاميال عن أقرب عمران ؟** فضلا عن ذلك فان مسألة الافراج عنا خاصة بعد تصريح الرئيس الى صحيفة الموند قد أصبحت مؤكدة . **فمن هـــذا الذى يهرب والحرية على بعد خطوة منه ؟**

وكان تمام المساء يجرى كل يوم بعد دخول الزملاء الى الزنازين فى الثامنة وتغلق عليهم ، ويتولى « مسئول النظام » فى كل عنبر **مع سجان** العنبر **((جردنا))** . وبعد اجراء الجرد وعمل الكشف يوقع عليـــه سجان العنبر **والشاويش النوبتجى ، والصول النوبتجى ، والضابط النوبتجى ،** ثم **المــأمور** الذى يقوم بابلاغ **المسئولين** فى القاهرة باشارة تليفونية ، أو برقيا اذا تعطل التليفون **((بالتمام))** . بعد ذلك تفتح الزنازين علينـــا مرة

أخرى . وظل وضعنا على هذا الحال شهورا حتى مساء ٣١ ديسمبر ١٩٦٣ .

عندما كان الزميل **سيد عبد الله** « مسئول النظام » فى عنبر (٢) يقوم بعمل التمام المسائى اكتشف وجود نقص فى **((العهدة)) !.** لم يصدق نفسه وأعاد الجرد مرة ثانية فوجد **((نقص زميلين))** ، ولم يصدق نفسه أيضا ، وفكر فى ان يعيد **((جردنا))** مرة ثالثة ولكن بالاسم هذه المرة بدلا من الرقم ! لكن اذا قام بعملية حصرنا بالاسم فسوف يتنبه السجان الى أن أمرا ما قد حدث ، فكلف بعض الزملاء مهمة شغل السجان حتى يجرى الحصر مرة ثالثة .

وبعد اجراء عملية ((**حصرنا**)) فى العنابر الثلاثة تأكد اختفاء **الدكتور المحامى ((هرارى)) وعامل النسيج ((عويضة))** ؛ فى البداية استبعد الزملاء أن يكون الزميلان قد هربا من السجن . وأخذوا يبحثون عنهما عند سور السجن الخارجى فهما صديقان حميمان وربما يكون الوقت قد سرقهما ولم ينتبها الى موعد « التمام » اليوم ولم يذهبا الى العنبر ، ولكن لا اثر لهما هناك. وذهبوا الى ((**المزرعة**)) و ((**حمام السباحة**)) **فربما** يكونا قد فكرا فى احضار « شوربة » خضار ، أو فى أن يسبحا فى ضوء القمر . . ولا أثر لهما أبدا .

اذن فقد هربا من السجن . فما العمل ؟

خرجت المسألة من يد الزملاء المسئولين عن النظام الى يد الزملاء « القيادين » فى التنظيمات المختلفة الذين بدأوا يتداولون فى الامر .

ستفرض حالة الطوارىء حتما بمجرد أن يعرف المأمور الخبر . وعند أول تفتيش **للزنازين** سوف يعثرون على عشرات التقريرات السياسية والتنظيمية والكتب الممنوعة ، فقد تحولت التنظيمات خلال الشهور الماضية الى ((**العلنية**)) الكاملة ، فضلا عن ((**الممنوعات**)) الأخرى ، لابد اذن من فرصة لاخفاء المهم منها والاستغناء عن غير المهم . واتفقوا على تكتيم الخبر عن كل الزملاء عدا الذين سيتولون القيام باخفاء **((الممنوعات))** المهمة جدا . فى نفس الوقت عدم ابلاغ الخبر **للادارة** الا فى مساء **الغد** عند عمل ((**التمام**)) المسائى !

وحين رفعت الستار على خشبة المسرح الرومانى بسجن المحاريق للاحتفال بليلة رأس السنة الجديدة **لعام ١٩٦٤** . كان العدد الأكبر من الزملاء فى قاعة المسرح مع ضيوفهم من موظفى ادارة السجن وموظفى المحافظة ، بينما كان هناك عدد آخر من الزملاء يقوم ((**بفرز**)) الممنوعات للاحتفاظ بالمهم جدا منها والتصرف فى الباقى ، وحرصنا على أن لا يعرف الزملاء الممثلون والمشرفون على الحفل أى شىء عن **هروب** هذين الزميلين حتى لايرتبكون وهم يؤدون أدوارهم .

وحين أسدل الستار على خشبة **المسرح** بعد منتصــف الليل بقليل وكان المفروض أن يمتد الاحتفال حتى **الفجر** ، **كان من أجل اعطاءالفرصة** لكل زميل كى يراجع ماعنده من ((**ممنوعات**)) خاصة ، ولما ســألوا عن السبب ، قيل لهم لاحتمال قوى بأن يقوم **رجال المباحث العــامة** بعمــل تفتيش دقيق فربما يعثرون على ((**مطبوعات**)) يتخذون منها حجة لتعطيل **الافراج**، وبعد أقل من ساعة كانت هناك أكداسا من الممنوعات . الاوراق تم حرقها بسرعة ، والملابس الملكى والشاى والسكر وأمواس الحلاقة وضعت فى المخزن ، ومع شروق شمس اليوم التالى لم يكن فى أى زنزانة ((ممنوعات)) من أى نوع .

وقام ((مســئولو النظام)) بعمل ((**تمام**)) الصــباح وكان ((**تماما**)) أرســلته **ادارة السجن** الى القاهرة ، وكأن شيئا لم يحــدث ، ولا نقص فى ((**عهدتها**)) من المساجين .

طول نهار **أول ينــاير ١٩٦٤** والزملاء الذين يعرفون خبــر هروب الزميلين **كانوا** يستعيدون تذكر تصرفات وتحــركات الــدكتور **هــرارى والعامل عويضة** خاصة خلال الشهور الاخيرة .

كان **الدكتور هرارى** محام قديم لعدد من الشركات الكبيرة **المصرية والاجنبية** . وكان له مكتب فخم فى شارع قصر النيل بالقاهرة ويساعده فى عمله الضخم **٤٠ محاميا** . ويقال انه **نصف مليونير** على الأقل . ومع أنه كان على هذا الجانب الكبير من **الثراء** فان احدا لم يقم بزيارته منذ قبض عليه فى **أوائل عام ١٩٥٩** حتى يوم هروبه فى **٣١ ديســمبر عام ١٩٦٣** . مرة واحدة زارته زوجته قبل هروبه بحوالى شهرين ، ولم تحضر معهــا شيئا لزوجها منذ أكثر من خمس سنوات . كان عدد من الزملاء يتراهنون حول ((**الخير**)) الذى سيأتى به هــرارى من الــزيارة ، من الطعــام ، والســجاير ، والحلويات والنقــود . كان الرهان حول الــكميات التى ستحضرها معها زوجته التى كانت فى فرنسا ، ولهذا لم تزره ، بل ولم تكن ترسل له نقوداطوال السنوات السابقة . كان**صلاح هاشم** ((مسئول الحياة العامة)) من بين المتفائلين جدا وكان ينتظر **أعدادا هائلة** من طرود الطعام والملابس والحلويات والفاكهة ، والمعلبات ، ربما يحتاج نقلها الى ((لورى)) !

فى صباح يوم الــزيارة ذهب اليه الــزميل **مصــطفى درويش** كى ((يحلق)) له كما جرت العادة . ومع أن دقنه كانت ((طويلة)) فقد رفض ان يحلق :

— ليه يا متر ؟
— أصل عندى مرض جلدى فى وشى .

وباسم «**المرض الجلدى**» لم يحلق هرارى شعر دقنه شـــهورا . فقد كان يشذ بها «**سكسوكة**» !

كان أول من تنبه الى مجىء الزيارةهو **صلاح هاشم** . جرى بسرعة الى هرارى يزف اليه الخبر ثم صحبه حتى مكتب الضـــابط « النوبتجى » حيث تتم الزيارة . قال له صلاح وهما فى طريقهما الى الزيارة :

— أظن بقى يامتر المدام جايبه معاها حاجات كثيرة ؟

ويرد عليه هرارى :

— دى من يومين بس وصلت من باريس .
— تبعث أى خدام يشترى اللى هيه عاوزاه ..
— خدام مين ياصلاح .. المدام باعت الشقة وعايشة فى باريس .
— تبعث فراش من المكتب .
— فراش ايه ياصلاح .. ما أنا بعت المكتب .

ويصرخ **صلاح هاشم** :

— يعنى مالكش حد أبدا فى مصر ؟
— أبدا ياصلاح .. مراتى وأولادى من يوم مادخلت السجن وهمه فى **فرنســـا** .

يخرج صلاح من جيبه سيجارة «**فرط**»ويمد يده يعطيها لهرارى قائلا:

— خد سيجارة هدى أعصابك .
— ما انت عارف ياصلاح .. **أنا** مش باشرب سجاير .

ويرد عليه بسخرية :

— يمكن المدام بتدخن !

ويعود **صلاح هاشم** حزينا ، يائسا ، محبطا ، كان حمله مستحيلا ولم يأت « اللورى » المحمل بالخيرات مع زوجة هرارى ، وكانت لاتحمل فى يدها سوى شنطة اليد !

وبعد الزيارة راح هرارى يبحث عن صلاح هاشم وحين وجده مد اليه يده وقال :

— خد يا صلاح ..

ويصيح صلاح :

— ايه ده كله .. خمسة جنيه ! ؟
— وحياتك يا صلاح . دى كل الفلوس اللى كانت مع المدام .
— وتسيبها من غير فلوس ؟ . كنت خللى معاها أجرة التاكسى .
— تروح ماشيه .. ماهو البيت قريب قوى من محطة السكة الحديد .
— انت مش بتقول بعت البيت ؟

— بيت أمها يا صلاح .. فى أول عماد الدين .

كان **هرارى** حريصا منذ دخل **السجن** على أن يؤكد **فقره** بمختلف الاساليب وكان حريصا فى نفس الوقت على أن يبدو أمام كل الزملاء **« ابلها ، وعبيطا »** . وعشت **معه أنا ومجدى فهمى ورمزى يوسف ووليم طانيوس وماجد حافظ وسعد باسيلى ووليم اسحق فى زنزانة واحدة فى سجن المحاريق** . كنا عادة نأكل فى مجموعات ، كل ثلاثة فى **«قروانة»** واحدة ، وكان هرارى هو الوحيد الذى يأكل فى «قروانته» الخاصة ، يأخذ فيها نصيبه من الطعام ، ثم يضع عليه كمية كبيرة من **«الردة»** بصرف النظر عن نوع الطعام . فول ، أو عدس ، أو فاصوليا ، فى الغداء . وفى العشاء يضع الارز على الخضار المطبوخ على كمية كبيرة من «الردة» ثم يبدأ فى تقطيع نصيبه من اللحم **بأسنانه** الى قطع صغيرة بطريقة **«مقززة»** ولكن متعمدة ! وفى الفطور يكتفى بخلط «الردة» بالماء وشوية عسل اسود ان وجد . وفى كل ليلة قبل النوم اذا لم يسخر منه الزملاء ويعاكسونه يأتى بحركات بهلوانية ، كأن يقف على **رأسه** ، أو يخلع ملابسه كلها ويدهن جسمه **بالزيت** حتى يستفز أى زميل كى يعاكسه ! وكان لا يستحم الا **مرة واحدة** فى الشهر كى تكون رائحته كريهة ولا ينام احد الى جانبه ، وابتليت **«زنزانتنا»** به فقد رفض كل الزملاء المسجونين أن يعيش معهم ولم يكن امامى غير اقناع زملائى فى السكن بأن يعيش معنا ونتحمله . وعاش بيننا اكثر من عامين ، استطاع خلالها أن يقنع كل الزملاء بأنه **عبيط وأبله !** .

ذات يوم ارتفعت حرارته ونام حتى حل موعد احضار **«العيش»** من الفرن وكان يقوم بهذه المهمة يوميا ، واذا به ينهض من نومه ويجرى لاحضار العيش .

— انت مريض يا هرارى .. خللى حد تانى يجيب العيش المره دى .
— مش ممكن .. لازم اقوم بعملى .
— طيب نشوف لك عمل تانى أخف ..

يرد منزعجا :

— ده انسب عمل ليه ..
— انت راجل سنك كبير والعيش وزنه ثقيل جدا .

ويزداد انزعاجه ويقول :

— مش ممكن اقوم بأى عمل آخر .
— طيب افهم ليه ؟

ابتسامة **بلهاء** على وجهه . ويقول :

— اصل انا عندى روماتيزم فى ظهرى .. والعيش السخن يطلع الرطوبة منه .

وأضع أمامه علامة استفهام . وتشاء الصدفة أن يعطيني أحد السجانة ورقة صغيرة ملفوفة ويطلب مني أن أعطيها للدكتور هراري لانه مسافر حالا وليس لديه وقت للبحث عنه أو انتظاره الى الغد كي يسلمها له عند حضوره لاستلام « العيش » ! ما حسبته كان صحيحا . عملية احضار العيش من الفرن تعطى من يقوم بها — مهما كانت ظروف السجن صعبة — ان يتصل **بالسجانة** المشرفون على العمل في **الفرن** وبالتالي يمكن الاتصال **بالخارج** عن طريق واحد منهم ، أما بالصداقة ، أو بالفلوس .

كان اذن مصرا على أن يقوم بهذا العمل الشاق كي يستثمره في **اتصالات خاصة !** وكانت الورقة الملفوفة التي وصلت الى صدفة بداخلها **١٠٠ جنيه** ، وورقة أخرى مكتوبة **بلغة** غير معروفة ، وكنت حتى ذلك الوقت أملك **سلطة اتخاذ القرار** ، فمنعته من القيام بعملية احضار «العيش» . غير أن هذا المنع لم يستمر أكثر من يوم واحد ، بعدها صدر قرار من المستوى الاعلى بعودة هراري الى عمله ! فقد كان «القادة» قد وصلوا منذ شهور ، وكان «القائد» الاكبر من نفس « التيار التاريخي » للدكتور هراري !

واستمر هراري يقوم بعملية احضار العيش حتى يوم هروبه !

أما عن علاقته بعامل النسيج **((عويضة))** فلها قصة . حين تكونت فصول لتدريس اللغات الاجنبية ، لم يكن من بينها **اللغة الالمانية** ، وتطوع الدكتور هراري أن يقوم بتدريسها ، وبدأ الفصل من عشرة زملاء **((وصفصف))** على زميل واحد هو : «عويضة» ، ومع ذلك فقد كان الفصل أكثر الفصول انتظاما . يوميا وأكثر من ساعتين يلتقي هراري بعويضة كي يدرسه الالمانية ! والزملاء كلهم مبهورين بالتزام هراري واصرار عويضة على تعلم الالمانية ! **ولم يعرفوا لماذا كان هذا ((الالتزام)) وذاك ((الاصرار)) الا بعد هروب الاثنين يوم ٣١ ديسمبر ١٩٦٣ .**

شمس يوم أول يناير ١٩٦٤ تغيب وراء الافق ، والساعة تقترب من الثامنة مساء ، وموعد «تمام المساء» يحل . يدخل الزملاء **((زنازينهم))** وهم يعرفون أنها لن تفتح عليهم مرة أخرى الا للذهاب الى دورة المياه ولاجل غير معروف . **((التكديرة)) هذه المرة بسبب هروب زميلين فما حجتهم ؟ .**

بعد «التمام» يذهب وفد من الزملاء يبلغون المأمور الذي يصرخ :

— امتى ؟
— امس .
— وليه انتظرتوا للنهارده ؟
— لم نكن متأكدين .

ويجد المأمور نفسه أمام الامر الواقع . لا مفر من أن يكون تاريخ هرب الزميلين **هو أول يناير ١٩٦٤** . وليس ٣١ ديسمبر ١٩٦٣ **والا أصبح** هو والضابط النوبتجى وسجان العنبر هم المسئولين . ويصـــدر المأمور أوامره بعمل الاجراءات المعتادة فى مثل هـــذه الاحـــوال . اعلان **حالة الطوارىء** ويبدأ بضرب ((**بروجى**)) هرب مســـجونين .. وتغلق الزنازين على كل المسجونين . وتخطر **مصــلحة السجون لاسلكيا** ، وتعبأ قوة السجن لمطاردة الهــاربين . وتبدأ ((**تكديرة**)) جديدة لنا فى الســـجن .

احى لك عنها فى رسالتى المقبلة يا حبيبتى .

١١ أكتوبر ١٩٧٧ . القاهرة .

الرســـــالة رقم (٦٦)

حبيبتى

مثل شعبى يقول : **جت الحزينة تفرح مالقيتش مطرح** . وكنـــا نحن خلال اليومين الاول والثانى من **يناير ١٩٦٤** ، صورة مجسدة لآلام ومعاناة تلك ((**الحزينة**)) . ولم تدم محاولتنا للفرح بقرب الافراج عنـــا اكثر من **٣٦ ساعة** ، عشنا بعدها هذين اليومين على أعصابنا . **الزنازين** مغلقـــة علينا طول اليوم ، وتتوقع بين لحظة وأخرى حملة **تفتيش** ، أو حملة **تأديب** ، وفكرة أن المباحث العـــامة سوف تســـتغل هـــروب الزميلين لتعطيل الافراج عنا تسيطر على عقولنا وتتضاعف آلامنا ومعاناتنا مع كل دقيقة تمر .

وتتوالى علينا الاخبار :

- حالة الطوارئ فى السجن ستمتد حتى يقبض على **الهاربين** .
- أهالى جاءوا من القاهرة لزيارتنا **وحجزوهم** فى الواحات . لان الزيارة **ممنوعـــة** .
- لجنة تحقيق من ضباط مصلحة السجون وصـــلت للتحقيق فى حادث **الهرب** .
- بعض الاهالى الذين جاءوا لزيارتنا عادوا الى القاهرة بعد أن يئسوا من امكانية **الزيارة** فى موعد محدد .

كانت هذه هى أخبار اليوم الاول الذى مر دون **تفتيش أو تأديب** ، وتتوالى تعليقات الزملاء :

ــ يعني مفيش تأديب ولا تفتيش ؟
ــ ولا حتى سؤال لاى واحد منا ؟
ــ فاكر يوم ما هرب مسجون من **ليمان طره ؟**
ــ كان يوم أسود على كل المساجين .
ــ مع انه كان مسجون عادى !
ــ لكن هروبه كان عادى !
ــ وهروب الزميلين دول مش عادى !
ــ عند جهينة الخبر اليقين .
ــ يظهر انها لعبة كبيرة .

— حيكون ايه هدفها ؟
— تعطيل الافراج .
— الحجة ضعيفة !
— مع تصريحات مضادة تبقى قوية .
— مش ممكن هرارى يعمل كده .
— وموقفه السياسى أصبح واضحا ..
— وهو مشكلة .. يغيره .
— لزوم الشيء
— ويصرح بيها فين ؟
— فى باريس .
— ويخرج ازاى من مصر ؟
— اسأل جهينه .
— السياسة قررت الافراج عنا .
— يبقى من وراء ضهرها !
— بل وضـــدها !
— ســـتعرف .
— ان كان فى جدول أعمالها
— وســـتضرب .
— ان كان محل اهتمامها .
— نحن معها فى نفس الخنـــدق .
— وهى تعـــرف هذا جيـــدا .
— اتفقنا اذن .
— ولم نتفق أيضـــا .
— كيف ؟
— الذات تغلب .
— الخطر يحيط بها .
— هذا رايك .
— ورأيهـــا أيضـــا .
— المهم أن يـــكون .
— وقبل فوات الاوان .
— ومن أجـــل مصر حبيبتى .

كان هذا الحوار صورة مكثفة **للصراع** بين الزملاء خلال الساعات القليلة السابقة على اعلان **حالة الطوارىء** ، وغلق **الزنازين علينا** ، وكان غلقها حائلا دون اتخاذ الصراع أشكالا **عنيفة !**

وتشرق علينا شمس اليوم التالى ، ثم تغيب ، ويزحف ظلام الليل ، وحصيلتنا من الاخبار هى :

- انتهى التحقيق وسافرت اللجنة الى القاهرة .

- تنتهى حالة الطوارىء صباح الغد .

● الاهل الذين لم يعودوا الى القاهرة سيحضرون غدا .

ويجرى حوار :

— تبقى المسألة عدت .
— حاجة تلخبط .
— اللعبة فشلت .
— وربما هى جزء منها .
— ضربتها السياسة .
— لمصلحة من ؟
— الوحدة الوطنية .
— آمنت السياسة بها ؟
— بالتأكيد .
— لها سوابق !
— تعلمت من خبرتها .
— ربما .. بطريقتها الخاصة .
— المهم .. الهدف .
— الوسيلة جزء منه .
— تختلف الوسائل .
— والديمقراطية جوهرها .
— الديمقراطية موجهه .
— من يوجهها ؟
— قيادة الجبهة .
— كيف تمارس ؟
— الاتحاد الاشتراكى .
— ليس جبهة .
— تحالفقوى الشعب .
— لا تحالف بدون أحزاب .
— مرحلة ضرورية .
— ودوافعها ذاتية .
— بل طريق خاص .
— الخاص لا يلغى العام .
— التطبيق محك .
— وهو ليس التجربة والخطأ .
— مرحلة مؤقتة .
— ونستخدم خلالها ؟
— بل نفرض وجودنا .
— أرجو ذلك .
— سنخرج اذن ؟
— نعم .. ولكن .
— المهم نخرج .

وفى صباح اليوم التالى تفتح علينا الزنازين لتعود حياتنا فى السجن كما كانت منذ يومين ، وكأن شيئاً لم يحدث !

ويصل الى السجن **الاهل** الذين كانوا محجوزين فى **الواحات** بسبب حالة **الطوارىء** ، يحملون معهم أخبار **الافراج** ، وخطابات للزملاء من **اهلهم** تزف اليهم خبر الافراج القريب .

وقبل أن يودع يناير ١٩٦٤ أيامه الاخيرة ، كان الزملاء يودعون عددا من بينهم يصل الى الخمسين جاءت أسماؤهم فى أول كشف يصل الى سجن المحاريق . فى الوقت نفسه كان معتقل **الفيوم ومعتقل القلعة قد** أصبحا خاليين بعد خروج كل الزملاء هناك وبغير قيد أو شرط .

فتحوا باب المعتقل .. فمن الذين عليه الدور كى يخرج منه ؟

وجاء فبراير ومضى أكثر من نصفه .. ولا حس ولا خبر ؟

حديث الصحف عن **الاشتراكية** لم يتوقف ،بل يزداد ، وبعض الزملاء الكتاب والصحفيون الذين خرجوا يكتبون .

— ايه الحكاية ؟
— المباحث العامة تماطل .
— هل تنجح فى تعطيل الافراج ؟
— **لا** يمكن .
— من يدرى .. ربما ؟.

ومع كل صباح **يقف** الزملاء الذين يتوقعون أن يكون عليهم الدور بالقرب من مكاتب **ادارة السجن** فى انتظار الكشوف التى تحمل **أسمائهم .** وتصل فى نهاية فبراير **كشوف جديدة** بأسماء الذين **أفرج عنهم . ويقيم** المسجونون والمعتقلون الذين لم ترد أسمائهم فى الكشوف احتفالات لتوديع المفرج عنهم :

— هى اذن مسألة أيام .
— لكن ليه . الخروج بالقطارة كده ؟
— المباحث العامة وراء هذا .
— لكن قرار الافراج صدر بالفعل .
— ربما يحدث ما يعطل الافراج .
— انقلاب مثلا ..
— يا شيخ .. تف من بقك .

وفى **منتصف مارس** تخرج دفعة كبيرة ولا يبقى فى المعتقل **سوى ١٠٠** معتقل ، وكل المسجونين وعددهم يزيد عن المائة .

ويمضى النصف الثانى من **مارس ١٩٦٤** ويهل **أول ابريل ١٩٦٤** ولا يخرج احد .

— يظهر ان **الـ ١٠٠** معتقل دول بقى راح يخلوهم « **خميرة** » .
— زى **الـ ١٤** زميل اللى خلوهم خميرة فى سجن الاجانب بعـــد الثــورة .

وفى ٢ **أبريل** جاءت كشوف تحتوى على أسماء ٣٠ زميلا فقط !

— يبقى **الـ ٧٠** الباقين دول بقى همه « الخميره » !
— فعلا .. كشوفات قبل كده كان فيها اكثر من **١٠٠ اسم** .
— وكثير من اللى أفرج عنهم كانوا بيطالبـــوا باسقاط الحكومة من كام شهر فقط !
— وفيهم أسماء لامعة جدا .
— والغريب ان كثيرين من زملاء « حدتو » ماخرجوش !
— وكل المساجين القدامى تقريبا لم يخرجوا !

ويضحك **رمزى يوسف** ويقول :

— أصل احنا بقى خدنا على السجن والمعتقل .

ويضيف **مجدى فهمى** :

— أصل المتعوس .. متعوس من يومه .

وأقول ضــــاحكا :

— يا جماعه .. احنا **رواد** .. أول من يدخل السجن **وآخـــر** من يخرج منـــــه .

ويعلق **وليم طانيوس** :

— المهم مانخرجش محمولين !
— أو نخرج على أعناق الجماهير .

ويمضى يوم ٢ **أبريل ١٩٦٤** ، وتشرق شمس يوم ٣ **أبريل ١٩٦٤** ويمضى النهار ويحل الظلام وتسيطر علينا فكرة أن هؤلاء السبعين زميلاهم « **الخميره** » !

— نعمــل ايـــه ؟
— ننـكب على القــراءة .
— ما جدواها بعد أن فقدنا الامل ؟
— أن نموت مثقفين خير من أن نموت جهلة .

ورحت فى **نوم عميق** واحساس بالاستقرار يملا **كيــانى كــله** . سوف **أموت** هنا ولا داعى للتفكير فى **الافراج** . كانت فكرة يائسة ، ولكنى كنت **أحتاج** اليها احتياجى الى **الحياة** نفسها . كانت هى الفكرة الوحيدة التى أستطيع بها أن أستعيد **هدوء نفسى** .

وأفتح عينى فى صباح **يوم ٤ أبريل ١٩٦٤** على صوت ينادينى :

ـــ قوم البس علشان تروح .

لا أصدق وأرد بغضب :

ـــ وحياتك بلاش هزار سخيف .

كانت فكرة أننى سأموت هنا قد سيطرت على كل كيانى الى حد أننى رفضت وأنا فى تمام يقظتى ما يناقضها .

ويرد الضابط الذى أيقظنى ..

ـــ ودى حاجة فيهـــا هزار برضه ؟
ـــ يعنى البس بدلتى « الملكى » ! ؟
ـــ بسرعـــة .
ـــ **افراج .. يا له**

١٢ أكتوبر ١٩٧٧ . القاهرة .

أود ان أعبر عن عميق امتنانى لجميع الاصدقاء الذين شجعوا هـذا العمل ، وخصوصا المجموعة التى تجاوزت حدود التشجيع المعنوى الى المساندة المادية ، ولولاهم ما خرج هذا الجزء الى النور .. اليهم : **فؤاد زكريا ، ورمزى يوسف ، ونادر الفرجانى ، ومحمد همام ، وسمير أكرم ، ومحمد الشاذلى ، وعواطف عبد الرحمن ، وزينب الديب ، ونهير أمين ،** والآخرين الذين لا أعرف أسمائهم ، ولكنى أعتز بمشاركتهم المخلصة .

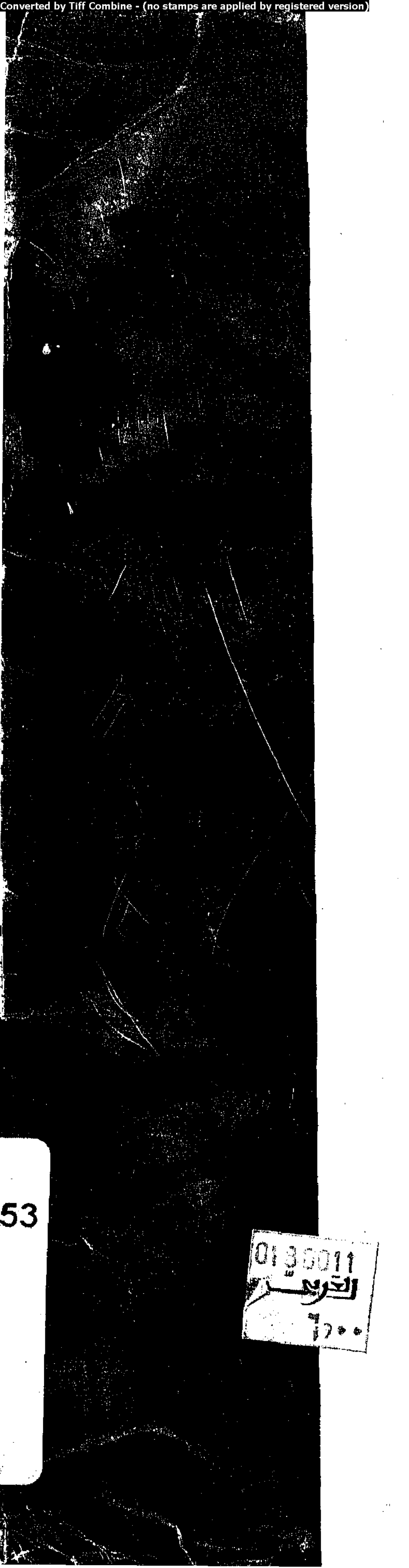
مصطفى طيبة

١٨ أبريل ١٩٨٠

رقم الايداع ٨٠/٣٤١٢

مطبعـــــة
يوم المستشفيـــات
١ شارع بستان الخشاب بالمنيرة
القصر العينى ــ القاهرة





قضى المؤلف اثنى عشر عاما **فى سجون وليمانات ومعتقلات المملكة المصرية ، وجمهورية مصر ، والجمهورية العربية المتحدة** . وبعد خروجه ظل سنوات أخرى يتأمل بعض أحداث جيله ... وفى لحظة صدق مع نفسه سجل هذه التجربة الغنية .

ان رحلة المؤلف فى سجون مصر كما سجلها فى هذا الكتاب لم تكن رحلة حقد على أحـد .. ولم تكن انتقام بالكلمات من السجانين .. لان السجانين ببساطة مذهلة يموتون فى اللحظة التى يقبلون فيها هذا العمل .

ان رحلة هذا الكتاب تؤكد أن سؤال الانسان عن حقه فى الحب أمر طبيعى .. وأن فهم الانسان لظروف مجتمعه أمر عادى جدا حتى وان كان غال الثمن .

والكتاب قد يبدو فى ظاهره مجرد رحلة فى السجون السياسية .. لكنه فى أعماقه رحلة انسان يبحث عن حقه الطبيعى فى الحرية والحب . انها رحلة الاصرار على الحق التى تجعل العذاب الذى يفرضه السجان هو طاقة جديدة يثير بها الانسان ايام المستقبل .

وفى هذا الجزء الثانى يقدم المؤلف — من وجهة نظره — صورة لحقبة سياسية هامة فى تاريخ مصر . قد يختلف معه البعض او يتفق .. وهو أمر طبيعى لان المجال مفتوح امام من يريد أن يقول كلمته عن نفس الحقبة التاريخيـة .

غير ان قيمة هذا الكتاب تتجسد فى تقديمه **نماذج للانسان المصرى المناضل الذى يدفع عمره كله من أجل مصر . هو صديق لسجانه ، مشفق عليه ، متحديا لسلطة لا تملك سوى السوط والقيد .. بينما هو يملك الحب والفكر ، وخصوبة ارضه وتراث نضال شعبه منذ آلاف السنين .**

هذا الكتاب يقدم نماذج لبطولات مصرية .. تملأ قلبك بمزيد من حب هذا البلد .. وتؤكد لك أن الزهور يمكن أن تنبت فى الصخر طالما أن هناك وطنا وانسانا وعشق يجمعهما .

وحين تمضى بك السنون وتبهت فى ذاكرتك تفاصيل الاحداث ، لن تنسى أبدا **« عم شعبان حافظ »** .

حاول ان تفهم حقك فى حب الحياة والناس بأن تقرأ هذا الكتاب اكثر من مرة .

النـاشر